شـرق
الغربين

Twitter: @alqareah
18.5.2016

رحلة عبر بلاد فارس

1903

يوميات ومشاهدات

إليوت كراوشاي وليامز

ترجمة: د. فايد رشيد رباح

سلسلة شرق الغربيين

إليوت كراوشاي وليامز

رحلة عبر بلاد فارس

1903

يوميات ومشاهدات

ترجمة: د. فايد رشيد رباح

Twitter: @alqareah

سلسلة شرق الغربيين

رحلة عبر بلاد فارس

إليوت كراوشاي وليامز

ترجمة: د. فايد رشيد رباح

الطبعة الأولى: 2005

حقوق الطبع محفوظة

المجمع الثقافي

أبو ظبي ، الإمارات العربية المتحدة

ص.ب : 2380 ، هاتف : 6215300

دار السويدي للنشر والتوزيع

أبو ظبي، ص.ب: 44480

الإمارات العربية المتحدة

هاتف: 6322079 ، فاكس: 6312866

تصميم الغلاف: الفنان ناصر بخيت

الصف الضوئي: القرية الإلكترونية - أبو ظبي

دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع

سورية - دمشق ، ص.ب : 30249

هاتف: 5141441 ، فاكس : 2716103

الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر

الإشراف الفني: د. مجد حيدر

التوزيع: دار ورد، هاتف: 5141441

All rights reseved . No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the puplisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

Twitter: @alqareah

يشرف على هذه السلسلة:
نوري الجرّاح

مستشار التحرير:
علي كنعان

أمانة التحرير:
محسن خالد
أيمن حجازي

الإشراف الفني:
ناصر بخيت

التنضيد والتنسيق:
علاء البيوك

Twitter: @alqareah

يصدر هذا الكتاب في إطار خطة متكاملة لتحقيق وترجمة ونشر مجموعة مختارة من أعمال الرحالة والحجاج والأدباء الأوروبيين إلى الشرق، وذلك منذ أقدم الرحلات إلى هذه الديار وحتى الرحلات التي قام بها الأدباء والحجاج والسفراء والسائحون في مطلع القرن العشرين.

بما يشكل موسوعة معرفية متكاملة تكشف عن جغرافيا الشرق كما تمثلتها عبر العصور يوميات المسافرين الأوروبيين.

يسجل لأدب الرحلة الغربي إلى الشرق محاولته اكتشاف عالم مختلف ونقل الانطباعات عن هذا العالم لكن هذا الأدب كان في جانب منه قائماً على تنميط الشرق والشرقيين، عَبْرَ رسم صورٍ دنيا لهم، بوساطة مخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السِّحري والإيروسيِّ والعجائبيِّ.

إن أحد أهداف هذه السِّلسلة من كتبٍ الرحلات هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريقِ الرحلة، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب الرحلة، على

Twitter: @alqareah

هـذا الصـعيـد، يشكّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي علـى الطريف والغريب والمدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكّرُ بها.

والواقع أنه لا يمكن قراءة نصوص السفر الغربية إلى الديار المقدسة في فلسطين والأردن، أو إلى المناطق والأقاليم المجاورة، والشرق بصفة عامة، بمعزل عن جملة التطورات التي شهدها التاريخ الأوروبي في علاقته بالعرب والشرقيين عبر محطات كبرى (الحروب الصليبية، سقوط القسطنطينية، سقوط الأندلس، نشأة الاستعمار الحديث) وبالتالي فهي نصوص تأسرها النظرة الغربية المسبقة إلى الشرق والشرقيين. ولا يجوز عزل هذه النظرة أيضاً عن استراتيجيات دول المركزية الغربية في التطلع نحو أراضٍ وأسواق واستثمارات في الشرق، وذلك في ظل حراك اجتماعي، سياسي، علمي، اقتصادي، عسكري، إمبراطوري الطابع، ومن ثم حركة دؤوبة للبرجوازية الوليدة في مجتمعات دخلت عصور الصناعة الثقيلة وتحولت إلى مراجل أكول لم يكن ليكفيها ما تملكه من ثروة خاصة بها، فراحت عينها تتسع أكثر فأكثر على ثروات الشرق، وقد رافقها في الرحلة إليه وصّافو الشرق من رسامين، ومستكشفين، ومغامرين عبر المدن والصحارى والجبال والسواحل قريبة وبعيدة عن عواصم الشرق.

بمتعةٍ وحبٍّ اكتشافٍ للنظرة المختلفة يمكن قراءة جزء من نصوص الرحالين الغربيين إلى الشرق والديار المقدسة، ويتحفظ

Twitter: @alqareah

وتنبه لما في السطور وبين السطور ووراء السطور يجب قراءة بقية الأجزاء. من دون إغفال أهمية هذه النصوص كوثائق عن رؤية الآخر لنا.

لم يقع اختيارنا على نصوص هذه السلسلة ترجمة ونشراً من باب تبني ما جاء فيها، وبعضه قبيح، أو مجافٍ للحقائق، إنما بصفتها وثائق أدبية وفكرية تعكس نظرة النخب الغربية المثقفة نحو الشرق وأهله وثقافاته، فهو هنا شرق الغربيين وليس شرق الشرقيين. وهي، غالباً، نصوص تكشف بجلاء، وأحياناً بشكل فاضح، عن تلك الاستعلائية الغربية الصادرة عن ثقافة متمركزة على ذاتها، ومطمئنة إلى مقاييسها. لكن الاطلاع على هذه النصوص واستكشاف ما فيها يبدو لنا فعلاً مهماً لابد لقراء العربية، على اختلاف مستوياتهم ومرجعياتهم ومشاربهم، أن يباشروه ليمكنهم أن يبلوروا فكرة أوضح عن نظرة الغرب إلى عالمهم، ليس فقط من باب الوعي بالأشياء، وإنما من باب تحديد قيمتها أيضاً.

بإنجاز هذا المشروع بشقيه الورقي والإلكتروني تتوافر المكتبة العربية على كنز فكري وأدبي أنتجته الأمم عبر قرون وما يزال أغلبه في مخطوطات، أو طبعات قديمة صارت خارج التداول، وبالتالي نتطلع إلى أن تكون هذه الموسوعة بمثابة ذخيرة للثقافة العربية تمكن من وضع شرق الرحالة بصورة موسوعية في متناول وعي الأجيال المقبلة.

محمد أحمد السويدي

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

أمعن النظر في قلبك واكتب.
السير فيليب سيدني

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

مقدمة

إنَّ أي إنسان يولع بعالم الطبيعة والبشر يتملكه شوق مفعم بالقلق لدراسته، وقضاء جلّ وقته كمراقب لحركة الحياة الزاخرة، وأن يعيش ويرى ويتعلم ويعرف ويشعر فقط. وعندما يسافر يصبح مواطناً في هذا العالم يتمتع بحرية بحاره وغاباته وصحاريه الرملية وشوارعه المضطربة ويقضي حياته متأملاً مزاياه المتعددة سابراً أسراره التي لا حصر لها.

إن هذا النهم للسفر فيه جاذبية لا تقاوم، ومع ذلك وفي معظم الحالات، ينطوي على هدف أناني. فالمسافر هو الوحيد الذي يعطي حياة السفر قيمتها الحقيقية إذا كان السفر هو الهدف الوحيد لديه. وكما يعشق الفنان عمله ويعتبر العالم المصدر الأغنى له فكذلك الشاعر والموسيقي والمؤلف والسياسي يشبعون رغباتهم منه ويقدمون خدمة للإنسانية. أما المسافر كثير الترحال فإن إشباع الرغبة لا جدوى منها سوى لشخص واحد فقط في هذا العالم المشغول، أليس بوسعه إذن، أن يلحق بالموتى من أقرانه ليدع العالم يكتشف في ذاته شيئاً أفضل لمتابعته واكتشاف كنهه.

فإذا ما سافر بذهن متقد فبوسعه أن يحقق أمرين. يمكنه أن يطبِّق المعرفة التي يكتسبها لفائدة أبناء جلدته، ويمكنه أن يعرض تجاربه وخبراته لإقناعهم.

ومن المؤكد إذن أن يكون هناك إحساس بالواجب تجاه المسافر وعليه أن يرده بكلمات أو أفعال إلى العالم لما قدمه له.

Twitter: @alqareah

تلك كانت فلسفتي عندما شرعت قبل أربع سنوات في رحلة أمدها ثمانية شهور إلى وطني من الهند عبر بلاد فارس وروسيا. وحيث أني قضيت تلك الفترة بين الصحارى وأناس غرباء عني فقد صادفت العديد من التجارب المتنوعة، كما تركت رحلات أخرى بصماتها على صفحات حياتي، ولكني لم أنسَ الأدلّاء الذين انطلقوا معي في أحد أصباح تشرين الثاني من بومباي، والذين يستحقون مني الإشادة بما أنجزوه معي وتم تدوينه في هذا الكتاب.

وإذا ما عدت بالذاكرة إلى الوراء الآن، تبدو الإطلالة على تلك الأمور أكثر وضوحاً مما كانت عليه الحال قبل انتهاء رحلاتي. فمن الأفضل الابتعاد عن الشيء حتى تدرك أهميته بصدق وجلاء. إذ أن تقادم الزمن لم يؤثر على قوة ذاكرتي وحدّة تأملاتي فيما مرّ عليّ، لأنني دونت وبالتفصيل ما شاهدته في كل رحلة قمت بها. ففي أغلب الأحيان كنت أكتب في ظل ظروف صعبة للغاية، في أكواخ من الطين، أو في قطارات تتأرجح بي أو في غرف باردة، ولكن الأمر بالنسبة لي يتعلق بانطباعي الأول والصادق من أنّ ما أقوم به سيكون أساساً قيّماً لرواية سردية مقبلة.

أمّا بالنسبة لظروف رحلتي البحرية، فقد قمت بها عام 1903 بعد أن استقلت من مهمتي في سلاح المدفعية الملكي في الهند، ومن أجل إشباع رغبتي في اكتساب الخبرة والانصراف عن حياة الرتابة في رحلة البحر الطويلة والمملة قررت أن أعود لوطني عن طريق بلاد فارس وبحر قزوين وروسيا، ومن ثم أتخذ أحد الطرق البرية إلى إنكلترا.

وبناءً على هذا القرار، تشاورت مع خدمي من الهنود ووجدت اثنين منهم ـ كيشنا وكاليشا ـ على استعداد لمصاحبتي، كما إن أفغانياً اسمه سيف الله شاه شاءت الصدف أن أتعرف عليه أثناء عمله كمستخدم حكومي انضمَّ إلى المجموعة المرافقة لي.

تخيَّل بعد انتهاء الرحلة البحرية وهبوط المجموعة كلها على

Twitter: @alqareah

ساحل بلاد فارس، حيث يرفع الستار عن المشهد الأول لرحلاتي المميزة.

آمل أن يكون ما سيتبع ممتعاً عند قراءته كما كان ممتعاً عند كتابته. أكرر القول بأني عشت وتجولت في بلاد الشرق العجيبة. وأقول مرة أخرى بأني شعرت بسحر الشرق وامتزاجه بأسرار الحياة والكون معاً، فرغم لهيب الحر وشراسة الجو في تلك الأرجاء إلا أن روعة ما تحتويه كنوزه الدفينة والظاهرة تزيده بهجة ورونقاً، وتجعل المتجول في أرجائه الفسيحة ينسى نفسه ويشعر كأنه في حلم جميل ويعيش في عالم بديع وفاتن.

إليوت كراوشاي وليامز
لندن، أيلول 1907

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

1

بلاد الأسد والشمس

محبب لهم كل شيء يزيل
عنهم الاتساع والملوحة
والخوف والعمق الأبدي

دون جوان

يعتقد معظم الناس أنَّ البقاء على ظهر السفينة لفترة طويلة أمر ممل للغاية. فالملاح السيئ، بطبيعة الحال، يجد في البحر مجرد مكانٍ للقلق أو مصدر للعذاب، ولكن حتى الملاح الجيد إذا ما منح طقساً معتدلاً وصحبةٍ ممتعة فإنه يرحب وبكل ارتياح بنهاية رحلته البحرية، إذ بعد فترة من الزمن تميل الأرجل إلى الامتداد مسافة أطول من تلك التي تمنحها لها الألواح الخشبية على السطح العلوي للسفينة حيث ينمو شعور بعدم الراحة لا يزيله أو يخفف منه حتى الألعاب الرياضية، بحيث يصاب الجسم بالارتخاء والخمول بسبب الحاجة إلى ضرورة تصريف طاقته، وتصبح الحواس متعبة من الأيام الرتيبة وجامدة من طول تسمُّرها على كرسي ظهر السفينة في رفاهية خاملة ورفيقه كتاب (وهو مجرد تبرير، لأن العقل يعاني كالجسم تماماً من نفس الإرباك والتشويش) أو إنسان من الجنس الآخر، والذي ستكون صحبته إما مملة لدرجة كبيرة أو مسلّية على نحو خطير.

Twitter: @alqareah

ثمة على الدوام رتابة بالنسبة للأفق البعيد. إذ أن ظهوره المتصلب كرقاص الساعة واختفاءه خلف الحافة المتناهية يطوق المملكة الصغيرة للسفينة ويخمد العقل وينومه في سبات عميق، فالعمل مهما كان شكله يصبح بغيضاً ومستحيلاً، وأية محاولة لإزاحة سلطان الكسل يوّلد شعوراً غريباً ينجم عن كابوس اللحاق بالقطار، بينما تحاول القوى الخفية ذات القوة الخارقة منع تحقيق هذه الرغبة.

ومن هذه الإغفاءة يستيقظ الجسم والعقل على حياة جديدة في نهاية الرحلة البحرية، وثمة إحساس بهيج بالحرية والفضاء الفسيح حتى عند أكثر الشواطئ قساوة وصدوداً. فالأساس الأكثر صلابة واتساعاً والذي يمثّل قاعدة ثابتة هي الأشياء التي يوجهون شكرهم وامتنانهم لها، مثلهم في ذلك مثل «دون جوان» ورفاقه الذين:

محبب لهم كل شيء يزيل
عنهم الاتساع والملوحة
والخوف والعمق الأبدي.

فالعيون تتلهف لرؤية أي شيء إلى جانب هذا الامتداد المترامي من المياه وتعتبره منظراً مبهجاً وساراً. وذات مرة وهم على الشاطئ، وبعد شعورهم بأنهم يقفون على الأرض مرة أخرى، انتاب أوصالهم المخدرة ميل للحركة من أجل الحركة فقط. وكان لديهم رغبة للانطلاق بعيداً حيث المسافة التي بوسعهم تجاوزها وتحطيم حدودها بفرح غامر وهو ما كانوا يفتقدونه. لقد كانت صورة البحر القابعة هناك تتوهج بذلك القلق والاضطراب، وقد تلاشت مؤخراً وزاد تقديرها والإعجاب بها لبعدها وعمق امتدادها.

ومما لاشك فيه أن البعض الذين يجدون متعة في رحلة البحر وأن الوصول إلى الشاطئ هي استراحة لهم في «حياة موجة المحيط»، هؤلاء لا يمثلون الأغلبية. فالرجل الإنكليزي العادي يحب البحر ولكنه يحبه وهو على الأرض. ففي ذاكرته تتردد أغاني

Twitter: @alqareah

«دبدن» وأسماء أمراء البحر العظام والانتصارات الباهرة، وكلها تدعوه كي ينظر إلى البحر باعتباره تراثاً له وعليه أن ينظر إليه بفخر وإعجاب ويفضل كذلك أن يعتقد بأن الإنكليز أمة بحّارة وليسوا بقالين. ولكن ولسوء الحظ، ليس بوسع رغبة الروح أن تمنع الجسد من أن يكون ضعيفاً، وفي الوقت الذي يكون فيه الرجل الإنكليزي بحّاراً ذا قدرة صاخبة فإن حقيقة الرجل الإنكليزي هي الإقرار وبكل سرور «بقناة بحرية» إذا ما كان كارهاً لمتاعب ومصاعب الجندية الطويلة الأمد أكثر من كرهه للملاحة المؤقتة والميسرة. ليس الأمر كذلك، فالرجل العادي ليس حيواناً يعمل في البحر ولاشك لديه من أن نهاية الرحلة البحرية ستجلب له الراحة والسرور.

إن الوصول إلى الشاطئ حيث يبدأ هذا الكتاب لم يكن استثناءً للقاعدة العامة. فالرحلة ذاتها لم تكن في الحقيقة طويلة أو مملة، على العكس من ذلك، فإن أمدها لأكثر من شهر قد جعلها بهيجة بسبب الرفقة المريحة والزيارات المتقطعة للشواطئ والموانئ. لقد كانت مريحة وعملية مثلما يجب أن تكون عليه أية رحلة سارة، ولكنها أوصلتني إلى بلاد ذات سحر غريب وفتنة فريدة، بحيث يمكن النظر إلى رحلتي البحرية على أنها مقدمة سارة للموضوع الحقيقي لرحلاتي.

امتدت أمامي بلاد فارس، أرض الأسد والشمس، مع أن الأسد يكمن في الوقت الراهن في مخيلة الفرس فقط، ولو أن الشمس ماتزال على شروقها وغروبها كما في السابق، وكذلك الأرض هي الأخرى باقية بتاريخها العظيم والمحزن أحياناً، حيث حكم ملوكها العالم في حقبة من الزمن وحيث يسكنها حالياً الرعاة والتجار وشعب برز منهم «حاجي بابا» كنموذج أعلى وتقليدي بالإضافة إلى سايروس، داريوس إكسيركيس والاسكندر ضمن عدد كبير من أبطال التاريخ ومن الذين تبوؤوا شهرة في هذه البلاد.

وفي هذه البلاد عاش أيضا «عمر... عمر المسلم، عمر الخيّام»

Twitter: @alqareah

أو «الحارس الأسود» حسب تعبير الشاعر توماس كارلايل (1795 ـ 1881) حيث ما تزال قدسيته تمثل عقيدة هذه الأيام، كما عاش أيضاً سعدي الشيرازي والجاحظ وفلاسفة وشعراء آخرون سكنوا وغنوا وماتوا بين الحدائق الغناء وأشجار السرو. وهنا تقبع اليوم إحدى عجائب الدنيا وبقايا القصور والآثار العظيمة والصور المنحوتة على واجهات التلال والمقابر، والتي تمثل الأباطرة والملوك في بلاد فارس.

في هذه البلاد حططت رحالي بعد نهاية رحلتي في إحدى الأصباح المشمسة، وعقدت العزم على الأشياء التي سأشاهدها ليس من التاريخ فقط وإنما من الذين سبقوني في هذا المضمار؛ «فراير، شاردان، لوبرون» وآخرون غيرهم، كانوا قد رحلوا إلى هذه البلاد من أجل المتعة أو حتى في الزمن الراهن، من أجل تعاليم الحج حيث سجلوا وبكل أمانة كل ما صادفوه وعرفوه في رحلاتهم التي دامت أياماً وعندما كان السفر ليس متعة في أيام العطل، وإنما كان مهنة تستغرق العمر كله.

لقد بدأت الحل والترحال. هاأنذا قد صرت حراً. لم يكن أمامي خطة محددة للرحلة. فطريقي تحددها رغبتي وإرادتي. إذ بوسعي أن اتجه أخيراً صوب الغرب إلى دمشق أو أتجه شمالاً إلى سمرقند أو إلى أبعد من ذلك إلى سيبيريا أو أختار طريقي شرقاً نحو الصين، فالوقت والفضاء أصبحا تحت تصرفي تماماً. فقد أصبحت الأرض والبرية ملكاً لي. ولكن هنا وفي هذه اللحظة تمتد بلاد فارس أمام نظري بكل ما تكتنزه من متعة.

فالمتشرد أو الهائم على وجهه لا يمتلك خططاً بعيدة المدى، ولكن يكفيني ما كنت أتمتع به من حرية وأنني سيد نفسي ولديّ شهور أقضيها وبلاد أهيم بها وأتزود منها.

لقد كان المكان الذي وصلته يقع على رأس المجرى المائي الذي يفصل بلاد فارس عن الجزيرة العربية، والذي بهرني أثناء دراستي لأنه يمتزج مع جاره البحر الأحمر.

Twitter: @alqareah

اتجهت في طريقي من بومباي صوب الخليج العربي وحتى بوشهر حيث الميناء الذي ترجلنا فيه، وخلال الرحلة كانت هناك زيارات إلى مسقط وبندر عباس والبحرين وموانئ خليجية أخرى. وعند مرورنا بالأرض الجرداء التي تحيط بمداخل البحر الداخلي، انطلقنا نحو الجنوب إلى ما يسمى ساحل القراصنة، ثم عدنا إلى الشريط الضيق ذي الرمال اللاهبة من شدة الحر والذي يقع شمالاً بين البحر والحواف الصخرية الوعرة لبلاد فارس الجنوبية. وعلى الدوام كانت هناك واحدة من هاتين الميزتين للمشهد الذي أمامنا، إلى الشمال هناك الرمال الصفراء الموشومة بخطوط ضوئية والمندفعة بسرعة فائقة نحو التلال القرنفلية الداكنة، أو إلى الجنوب حيث الصحراء العربية الجرداء ذات الشجيرات المتناثرة هنا وهناك.

وأخيراً، تركنا كل ذلك وراءنا وحللنا في أحد الموانئ الفارسية.

يتميز ميناء بوشهر بميزتين مزعجتين: المناخ والمرفأ ذاته، أما بالنسبة للمناخ فهو أمر تقليدي لمنطقة الخليج إذ يمكن تحمله في فصل الشتاء فقط وليس بوسع الإنسان أن يطيقه في فصل الصيف، وكما قال اللورد كورزون: «لا بد للمحرار العادي أن ينفجر، أما المحارير ذات المستويات المرتفعة فتؤشر على درجة حرارة 189 فهرنهايت». أمّا الميزة الأخرى فهي نموذج مماثل لكل المرافئ الفارسية، فهو لا يسمح للسفن الكبيرة بالاقتراب إلا على بعد ميل من رصيف التحميل. ونتيجة لذلك، وبعد اتفاق حول الانتقال من السفينة، تم إنجاز الجزء الأخير من الرحلة بمساعدة عمالة محلية.

امتدت أمامي صورة رائعة نابضة بالحياة في الصباح المشرق عندما نزلنا بهدوء على رصيف ميناء بوشهر الطويل والكئيب، والذي تحمّل منه عشرات الناقلات أو تفرغ النفط والتمر والقواقع البحرية وغيرها من البضائع الرائجة في المنطقة، وسرنا بمحاذاة المباني ذات الطابع البلجيكي حتى وصلنا إلى مكان إقامتنا. وكانت هناك حركة صاخبة على رصيف الميناء، جنود فارسيون بملابسهم

Twitter: @alqareah

الزاهية ومواطنون عاديون يحملون قدوراً وعرب بملابس رثة يغسلون القواقع أو يفرغون أوانٍ مملوءة بالنفط أو أغلبهم جالسون لا يعملون شيئاً، وهناك النساء اللواتي يلبسن العباءة التقليدية الطويلة السوداء أو الزرقاء يطأطئن رؤوسهن حتى أقدامهن وينظرن إلى أية مادة تقدم لهن. وهنا أيضا رأيت الفرسان على ظهور الخيل بملابسهم العسكرية من حراس المقيم البريطاني، وهم من فئة الهنود السيخ المتميزين بجمالهم وأناقتهم. لقد كان أمراً ممتعاً أن أسمع الأوامر الصارمة تصدر من القائد إلى جنوده وتابعيه، والتي أثارت سروري وأنا بعيد عن طقوسها الروتينية الآن.

وتتميز بوشهر بأزقتها الضيقة والصغيرة وأبنيتها الرئيسية ذات الطابع الشرقي وأسواقها الشرقية المفعمة بالروائح والأتربة، وميزتها الوحيدة هي إطلالها على البحر. وفي هذه المدينة الساحلية يوجد شارع عريض تكتنفه الأشجار من الجانبين، وهو شبيه بـ«هايد بارك» و «إنتردين لندن» حيث تجمّع الجميع فيه وتجد فيه كل شيء، فهو بمثابة متنزه حديث وجذاب.

وفي الواقع، إنه مكان مبهج في صباح مشرق وفي فصل البرد، وقد اعتدت أن أخرج قبل الفطور وأتجول خارج سوق جولزاد لأنعم بدفء الشمس وأراقب حركة الطبيعة والناس. لقد كان سوق جولزاد غريباً، حيث كان جولزاد نفسه شخصية طريفة ولهذا سندخل إلى محله التجاري ونراه عن قرب. حينما ابتعدنا عن شمس الصباح وجدنا أنفسنا داخل غرفة طويلة على شكل ممر مظلم تنبعث منه رائحة ما يبيعه البقال، وأسفل هذا الممر الطويل كان يجلس عدد من الفُرْس الصامتين والمتجهمين والعاطلين عن العمل حتى إن أحداً لا يعترض على جلوسهم هنا. وخلف هذه الغرفة الخاصة بالجلوس كانت هناك غرفة أخرى مليئة بأكداس من النبيذ والكاكاو وعلب الثقاب والشاي، وبوسعك الحصول على أي شيء من محل جولزاد. ولكن هذا لم يكن مجرد محل تجاري إذ لا يتعلق الأمر بقذارته، ولم يكن جولزاد مجرد بائع بل كان هذا الأرميني الكهل والنحيف صديقاً

Twitter: @alqareah

وفيلسوفاً وسياسياً، ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل كان لا يتصرف خارج حدود الحياة وعلاقاته برفاقه. وفوق هذا كله كان رجلاً يعرف العالم. ربما كان يعامل المواطنين العاديين باحتقار إلى حد ما، على أنهم فريسته القانونية ولكنك مماثل له بل وحتى صديقه، فإذا ما أشرت أو ألمحت إلى كونك زبون فهذه تعد إهانة له. وإذا رغبت بشراء مِحدّة لأمواس الحلاقة معلقة في الطرف الخلفي من المحل فإن جولزاد سيهز رأسه بحزن ويقول لك «أنصحك بعدم شرائها لأنها رديئة». ويمكنك الاستنتاج من ذلك بأنه يتعامل مع الفرس بطريقة مختلفة عن تلك التي يتعامل فيها مع الرجل الأبيض، وبكل صراحة لم يكن ودوداً بما فيه الكفاية. ولكن هل تريد شيئاً من النبيذ؟

أما في الخارج وفي ضوء الشمس، فقد كان المد قادماً على شكل موجات داكنة يطارد إحداها الأخرى وتلمع على الرمال السوداء وعلى الشاطئ، وكانت النسوة يغسلن وهن واقفات حافيات الأقدام في البرك الصغيرة بين الصخور ويضربن غسيلهن الأسبوعي بقسوة تثير الشفقة لدى أصحاب تلك الملابس. ومع ذلك فهو منظر جذاب أن ترى أولئك النسوة الرشيقات على الرمال الداكنة وهن يرفعن أجسادهن ويخفضنها فوق الرمال المتلألئة، وبين الفينة والأخرى سترى شالاً يتطاير على بعد أقدام في الهواء مما يدفع صاحبته إلى رفع ملابسها الفضفاضة وإظهار ساقها المصقولة بإحكام وركبتيها الصغيرتين كأنهما خاتمان من فضة، وفي أحيان أخرى يؤدي سقوط الشال الأسود عن رأس فتاة شابة إلى الكشف عن وجه جميل، وغالباً ما تمثل الغسالات منظراً طويلاً من الأشكال البشرية المرتدية شالات سود ومن ذوات الأذرع والسيقان المتهادية بوهن وتؤدة. إن هذا الكشف بطبيعة الحال يقع مصادفة، ولكنها خيانة ما بعدها خيانة أن تدع أجنبياً متلصصاً يلمح الوجه الخفي أو المحرّم رؤيته. (ودعني أهمس، على أية حال، بأن هناك سبباً يدعونا للافتراض بأن التمسك بالتعليمات الشرقية يتضمن بأن

Twitter: @alqareah

الحشمة لن تتحقق بمزيد من الإظهار، فالعينان الواسعتان والسوداوان هما الميزة الأساسية للسيدة الفارسية).

كان الهواء عبقاً برائحة الملابس الرطبة، ويمتزج به صراخ الأطفال العراة الذين يغدون من الأمور المألوفة على الشاطئ. إنهم مخلوقات غريبة من كل الأصناف، منهم النوبي الفظ، ومنهم الفارسي النحيف والرقيق. وبالطبع كانوا يمارسون ألعاباً متنوعة مماثلة لألعاب الأطفال في كل أنحاء العالم. وكانت لعبة «ضرب القطة» هي السائدة عندما كنت في بلاد فارس. وتمثل هذه اللعبة في أن يمسك فتى بعصا ويضرب بها عصا صغيرة لتندفع بقوة في الهواء حتى تنزل على الرمال، حيث يلتقطها فتى آخر ويقوم بقذفها بكل قوة صوب رأس صديقه. وفي الوقت ذاته يقوم الضارب بالقبض على عصاتين صغيرتين ليقوم بضرب الهدف بواحدة منهما ثم بالأخرى حتى يصيبه.

والفتيات أيضا لهن ألعابهن الخاصة تناسب طباعهن الأنثوية، إذ بدلاً من رمي العصا على رأس الفتاة توضع العصا على الأرض كهدف لهن ليوجهن العصي إليها بغية إصابتها واقتلاعها من الأرض، ومن تفشل منهن تقوم بحمل الفائزة على ظهرها من مكان إلى آخر بعد تحديد المسافة بين المكانين.

وعلى العموم، إنه منظر مفعم بالحيوية والنشاط في إحدى أصباح شهر كانون الأول والأمواج المتألقة ترتطم على الرمال المشرقة والنسوة ينحنين على المياه، والأطفال تملؤهم البهجة كالصباح ذاته وهم يتصايحون في ألعابهم. إذن بوشهر ليست رديئة.

ولكن ثمة جانباً آخر، جانب الأزقة القذرة ذات الأكوام من القمامة والتي تعج بالمتسولين والمرضى والمعوقين. ففي كل زاوية فيها تجد منظراً مفزعاً، هناك رجل يرفع جزءاً من ذراعه أو طفل معوق، وهنا تقابلك امرأة تحدق فيك بعينين فقدتا البصر.

Twitter: @alqareah

وحينما يقابلك رجل أو امرأة تلاحظ لديه أو لديها إعاقة ما ووجهاً شاحباً وعينين ذابلتين تحدقان على غير هدى، وهيكلاً غائراً وشبكة من الآثار أو البصمات التي تدعو إلى الشفقة. فالشرق هو مكان للتناقضات الحادة والتطرف العنيف، فالمرض ينخر في الأجساد ولا حدود لمقاومته أو الحد منه، فهو غزير كغزارة المناطق الاستوائية.

في أحد الأيام ذهبت إلى المستوصف البريطاني في إحدى المدن الفارسية، وكان هناك رجل يجلس على كرسي يئن من الألم بينما كان مساعد الطبيب الجراح يغسل عينيه.

«إنه الرمد» قال الجراح بهدوء: «حالة سيئة، لن يبصر مرة أخرى». (الرمد بشكل عام مرض شائع في الشرق ولا أمل للشفاء منه). وبالقرب منه جلست زوجتاه تربتان على رأسه وهو يئن وينوح.

ثم دخلت عجوز شمطاء وتمتمت بكلمات جعلت صديقي يلتفت إلى رجل بالقرب منه كان يبتسم بود ودون تمييز إلى كل من كان في المكان. «مجنون» بالطبع أشار الطبيب. ثم استدار إلى المساعد «أعطه مُسَكّناً حتى يهدأ»، ولكنه أخذ يهذي بخنوع وطلب من العجوز أن تشرب منه، وطلبوا منها أن تأخذ الدواء والرجل إلى البيت. كانت هناك أمور مفزعة أخرى ولكنها مألوفة ولا داعي لذكرها. هذا هو الشرق، مزيج بهي من التألق والظلام، الرفاهية والبؤس، الجمال والقبح، يذهل العقل بروعته ورعبه.

ولكن ثمة شيئاً مؤكداً: إن الجهد التبشيري الرئيسي في كل أرجاء الشرق مكرس لنشر دين العلم، فالطبيب هو الأعظم والأفضل، والمبشر الأكثر تقديراً وهكذا هو بحق. فهو يعالج أجسام الرجال ويشفيها، والأجساد هي التي تحتاج إلى العلاج والشفاء في الوقت الراهن. فالشروط الصحية ومعرفة العلاج ووسائل الوقاية من الأمراض والأساليب الصحية الأفضل للحياة، هي الخطوات الأولى

Twitter: @alqareah

نحو إعادة خلق وبناء شعوب الشرق. ولا عجب، فالرجل الذي يخفف معاناتهم ويجعلهم أفضل يُنظر إليه بمزيد من الاحترام والتقدير. وهو يستحق ذلك حقاً.

وفي خضم هذه الأمور المفزعة التي لا يمكن تجاوزها والصعوبات الجمة التي تقابلها والإجحاف والمعتقدات الخرافية ونقص المعدات والأجهزة الدقيقة، كانوا يعيشون حياة يحسدهم عليها أولئك الذين يستمدون مباهجهم من رؤية تقدم العالم حتى من إمدادات ضئيلة بفضل جهودهم. هل سيزداد عددهم ويتعاظم نفوذهم؟ وهل هناك أدنى شك بأن ما يحتاجه الشرق هو إصلاح الأجساد أولاً ثم تطوير القدرات العقلية، وأخيراً إذا كانت هناك حاجة باقية من تلك العقيدة الدينية الصارمة التي تثير الاهتمام بكوامن وأسرار النظام اللاهوتي اللامحدود.

سينصب اهتمامنا الآن على الرجل الفارسي، ونجد من المناسب أن نقدم وصفاً مختصراً له ونضعه تحت رؤيتنا الفعلية.

فالرجل الفارسي، إذن لا يختلف عن غيره في مظهره من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه، ففي البلاد الإسلامية يحرّم لبس الملابس الزاهية. فالألوان والملابس الحريرية كل ذلك مخالف لتعاليم القرآن. ونتيجة لذلك يرتدي المواطنون الأقمشة التقليدية، الداكنة والرمادية والسوداء والتي تفوق في تفاهتها القبعة اللبادية السوداء التي يرتديها سكان لندن. وعلى أية حال ليس لذلك أثر شرير عدا عن كونه يمثل مظهراً غريباً يؤدي إلى التوازن مع التماثل الرتيب في الجوهر والشكل.

أمَّا الفارسي النموذجي فهو رجل أنيق وتتمثل في وجهه الجميل الكثير من الأجناس البشرية، فبالإضافة إلى ملامحه الخفيفة يتميز بعينين مشرقتين وقوام ممشوق وحركات شيطانية تحتم الإعجاب المطلق بوجوده. فالرجل من الطبقة العليا يرتدي قبعة فاخرة من صوف الغنم على رأسه، دائرية الشكل وتمثل رمزاً للرجل

Twitter: @alqareah

العسكري، أما الطبقات الدنيا فيُمثل زي الرأس بقماش صلب ناعم الملمس يشبه شكله قِدراً مقلوباً ومن تحته يتدلى إلى الخلف شعر كثيف أسود قُطع بشكل مستقيم حتى حدود الرقبة، ويبلغ طول هذا الشعر عادة من بوصتين إلى ثلاث ويتجعد تحت القبعة المسماة «كولا»، وكلما ازداد الشعر تجعداً كلما كان مدعاة لزهو الفارسي وتبجحه. ويلبس الفارسي ثوباً فضفاضاً يتدلى من ذراعيه وحتى يُحزم بحزام عند الخصر بحيث يبدو وكأنه بلوزة وتنورة. أما في الشتاء، فيتدثر الفارسي برداء من الفرو السميك يغطي كل جسمه يسمى «بوشتين» ويرتدي تحته سروالاً فضفاضاً أو أحياناً سروالاً قصيراً مزموماً عند الركبة. وفي المدن الكبيرة يلبس الرجال الأجلّاء كالأساتذة وغيرهم العمامة بدلاً من القبعة القومية. وترمز هذه العمائم إلى وظائفهم ومراكزهم، ورغم عدم الانسجام في ملبسهم وعدم اهتمامهم به إلا أنه من المؤكد أن الفرس يمثلون عنصراً متميزاً في مظهرهم.

وإذا ما أتيحت لك الفرصة لاختلاس نظرة إلى النساء (تحاول الفتاة الجميلة بطريقة ما أن تكشف عن وجهها كي تلقي نظرة عليه)، فإنهن على درجة عالية من الجمال وهن شابات. ولكن وكما هي الحال في الشرق، سرعان ما يذبل هذا الجمال ويتلاشى كالأزهار في بيت زجاجي حار. فالفتاة المراهقة هي في ريعان شبابها وعندما تبلغ الخامسة والعشرين يبدأ جمالها بالخفوت، وبعد ذلك وعندما يتقدم بها العمر تصبح عجوزاً شمطاء. وتتميز الفارسيات بعيون جميلة وواسعة تشبه إلى حد كبير عيون الحيوانات (لقد شاهدت مثل هذه العيون عند الكلاب أكثر مما شاهدتها عند الرجال والنساء)، وبصدقٍ لا مجال للشك فيه تعد هذه العيون الشيء الوحيد الذي يمكن للعالم الخارجي التمتع بالنظر إليه والولوج إلى سحره، أما بقية الوجه فهو بشكل عام محفوظ تحت غطاء متين. وحتى هذه العيون الخطرة لا يمكن رؤيتها في المدن الكبيرة حيث ترتدي النسوة رداءً طويلاً أزرق أو أسود من قمة الرأس وحتى أخمص

Twitter: @alqareah

القدمين، يتدلى عليه من الأمام شال يمتد من الرأس وحتى منتصف الجسم وبه ثقبان من الأعلى حتى يمكن الرؤية منهما، وحتى لا يتمكن الغريب من التحديق في هاتين العينين. الشكل والزي لا يتغيران بسرعة في بلاد فارس وتبقى الأمور على حالها لعدة قرون. فالوصف الذي قدمه فراي عام 1676 ينطبق بكل دقة على الوقت الراهن، حيث قال «النساء جميلات متوردات الخدود، شعورهن وعيونهن غالباً تميل إلى السواد وهن أكثر رشاقة وصرامة من نسائنا، وليس بوسع المسافر المغامرة معهن، وإنهن على درجة من الإغراء ولكن ليس لديك الحرية كي تتورط في أمر غير مأمون العواقب، ولولا ملابسهن الرثة ووجوههن التي لفحتها الشمس بحرارتها لكُنّ أكثر النساء إغراءً وجمالاً».

أما بالنسبة للطفل الفارسي فهو يشبه إلى حد كبير تلك الحيوانات الصغيرة في كل الأقطار الأخرى، إنه بصحة جيدة وتبدو عليه السعادة، ويلعب ألعابه المعتادة ويبدي إعجابه بالعالم مثل أقرانه في إنكلترا واليابان أو حتى في جزر الفيجي، وهو لا يعمل شيئاً حتى يقدم الشكر والعرفان، وفي بلد يسود فيه المبدأ القومي، وهو أن تعمل قليلاً وتكسب كثيراً، يكون التدريب عاجزاً وناقصاً كي يحقق حياة مستقبلية أفضل. وفي بعض الأحيان يذهب الطفل إلى المدرسة ومن ثم تكون الضوضاء التي يقوم بها مرعبة، وبعكس التقاليد في إنكلترا فإن الطفل الفارسي أكثر هدوءاً خارج المدرسة، لأن الفترة التي ينشغل فيها داخل المدرسة تحتم عليه تكرار كل شيء يعرفه بأعلى صوته. أما ماذا يتعلم وكيف يتعلمه فإني لم أدرك كنهه، ولكنه بدون شك يجد ما يشبع رغباته في الظروف الراهنة.

لم تدم إقامتي طويلا في بوشهر، وأخيراً وبعد ترتيبات ومداولات كثيرة، أبرمت عقوداً لاستخدام بعض البغال وأجريت مفاوضات مع دائرة الجمارك حول البضائع التي بحوزتي. وبعد أن تغلبت على العديد من العقبات ودواعي التأخير، كنت على أهبة الاستعداد للانطلاق في الجزء الرئيسي من رحلتي.

Twitter: @alqareah

كانت الساعة الخامسة من صباح أحد أيام شهر كانون الأول عندما نهضت من فراشي في قصر الضيافة، حيث كنت أستجم فيه، وهيأت نفسي وأخيراً غادرت. وفي الخارج كان القمر الرمضاني يشع فوق أسطح المنازل البيضاء وسقوف مدينة بوشهر، وهو منظر يبدو جميلاً وعلى غير المتوقع منه.

ليس الرحيل أمراً سهلاً في بلاد فارس، ففي البداية تأخر الحمالون ساعة عن موعدهم، وعندما نقلت معداتي بعد ذلك إلى رصيف الميناء، ووضعت في القارب الذي سأسافر فيه عبر الخليج الصغير إلى محطة التحميل على الجهة المقابلة في «شيف»، أعلن ملاح القارب بأنه يريد ضعف الأجرة المتفق عليها كي ينقلني بقاربه. هذا الأسلوب من التحايل كثيراً ما يمارسه المخادعون مع المسافر البريء. فبعد الاتفاق على النقل والإبحار بالمسافر يعمد إلى طلب الأجر الذي يريده ليقينه بأن المسافر سيوافق مُكرهاً وسيضطر إلى الدفع. وقد حاولت ذات مرة إحباط مسعاه هذا وكانت النتيجة إعادة أمتعتي مرة أخرى إلى الرصيف. وبعد ذلك تقدم رجل آخر وعرض إيصالي بمضاعفة الأجرة مرة ونصف، ولكني صممت على دفع الأجرة بزيادة الربع كحل وسط ومعقول. وأخيراً عاد الرجل الأول يحوم حولي وأصرَّ على إعادة كل أمتعتي إلى المركب، ومؤكداً بأنه سيتقاضى الأجر الذي أدفعه له.

وعلى كل حال لم تنته المصاعب والمتاعب. إذ بينما كنت على وشك الانطلاق تقدم مني رجل ومعه فاتورة حساب يتوجب عليّ تسديدها، وهي أجرة الأيام القليلة التي قضيتها عند مضيفي. وقد أخبرت الرجل بذلك ولكنه لم يقتنع ووقف بيني وبين المركب، وهدَّد بأنه لن يسمح لي بالمغادرة إلا بعد أن أدفع ما بذمتي من حساب له. لقد واجهت بعض المتاعب مع الرجل نفسه حول النقود التي دفعتها للحمالين وأخبرته بأنني سأقذفه في الماء إذا ما حاول إثارة المتاعب لي. وأعترف بأن مزاجي قد تعكر كثيراً وبِتُّ أخشى أن ازداد توتراً وأفقد أعصابي نهائياً. اختلست نظرة إلى الرجل

Twitter: @alqareah

فوجدته ضخماً، وأخبرته بكلمات فارسية صحيحة بأنه إذا لم يُصغِ إلى نداء العقل والمنطق فإنني سأُنفذ تهديدي بكل صدق وأنطلق في القارب، ولكنه ضحك وتحداني أن أقذفه إلى الرصيف وهذا ما فعلته ولكن لسوء الحظ سقط في القارب ثم وثب إلى الأعلى واتجه نحوي. إنني أكره القتال لأنني لست ملاكماً ولكن المرء كثيراً ما يتعرض لمواقف يُفرض عليه القتال حتى ولو لم يخلق مقاتلاً. فعندما يهجم عليك رجل ضخم الجسم مدفوع بالغضب والمزاج العنيف، ففي هذه الحالة لا مجال للحوار السلمي فالحوار الممكن هو الذي يضع حداً فورياً لهذا الخطر الداهم نحوك. ولذلك قابلت هجومه بلكمة عنيفة بيدي اليسرى بعد أن تراجعت عن المكان الذي داهمني فيه بقوة متناهية، حينئذ انتابتني رغبة عارمة للقتال ولذلك أمسكت بذراعيه وقبضت عليهما بكل قوة وهو يسب ويلعن ويبذل جهده للخلاص مني. وبعد أن هدأ روعه وافق على التفاوض معي بالكلمات بدلاً من اللكمات. وأخيراً اقترحت كحل لأرضائه أن اترك الموضوع بين يدي أحد الأصدقاء، وأخيراً وبعد انفضاض الأزمة غمرني شعور بالرضى وأنا أغادر الرصيف على ظهر المركب عندما شاهدت غريمي بين البحارة على ظهر المركب نفسه الذي نقلني عبر الخليج إلى المحطة المقابلة.

ويتميز الفارسي بسرعة نسيانه للخصام مثلما هو سريع في القيام به، وفي الوقت الذي كنت أفكر فيه بالحادثة وأندم على فقدان أعصابي وأتذكر قول «شوبنهاور» بأن مثل هذه الحادثة تنطوي على تفوق خصمك، كان هو مشغولاً وبشكل جلي في عملية مماثلة على الجانب الآخر من القارب. وعلى الفور انحنى إلى الأسفل وتلمس طريقه أسفل مقعد المجدف، ثم اقترب من المكان الذي كنت أجلس فيه وكان يحمل في يده قطعة سجاد بالية ومن ثم وبدون أن ينبس ببنت شفة قدمها لي كي أجلس عليها. لقد تغلب علي بتصرفه هذا وكانت لديّ رغبة للاعتذار منه، ولكن معرفتي الضئيلة بالفرس عموماً حالت دون التعبير عن ذلك. فالسكوت، على أية حال، يؤدي

Twitter: @alqareah

إلى نتائج أفضل في كثير من المناسبات المثيرة، وهكذا حسم الأمر بيننا بسرعة وبشكل فعال ولم نعد على خلاف مع بعضنا.

همدت الريح وكان علينا أن نخرج المجاديف حتى نتمكن من التكيف مع الحالة. لقد كانت آلية فن التجديف على الساحل الفارسي مدعاة لحيرتي. فعملية ربط المجدف بمسند خشبي بوساطة حبل، تُمكن المجدّف من الجلوس على أسفل الحافة العليا من جانب المركب ويتطلع إلى الداخل في الوقت الذي يجدف فيه من الجانب. أما لماذا يتجه المركب إلى الأمام فهذا لم يكن بوسعي أن أتأكد منه، فمن الناحية النظرية يفترض أن تؤدي الجهود المبذولة إلى رفع المركب إلى الأعلى في الهواء. ومهما يكن الأمر، يعمل المجدفون على دفع المركب، إلى الأمام وأقدامهم مثبتة على عيدان من الخيزران تمتد طولياً أسفل المركب، ويقوم رجل آخر بالمساعدة إذا ما كانت هناك حاجة ماسة إلى مزيد من الدفع بوساطة عمود رقيق.

وبهذه الطريقة الغريبة واصلنا التقدم وحتى أقضي على الرتابة أخرجت مسدسي وأطلقت عدة طلقات على عدة طيور كانت تحوم قريبة منا، وقد أثر ذلك في المجدّف ولكنه لم يؤد إلى نتيجة ملموسة. وعلى كل حال، لم يكن ذلك ضرورياً في بلاد فارس حيث إن القيام بفعل يكون أكثر أهمية من نتيجته.

وفجأة استدرنا حول زاوية حيث وصلنا إلى «شيف»، وبعد أن استغرقت رحلتنا ساعتين وربع الساعة لقطع مسافة ثمانية أميال وجدنا أنفسنا - الخدم والأمتعة وأنا شخصياً - في بناية حجرية مقفرة وكئيبة على نتوء رملي قاحل والذي سيكون نقطة الانطلاق لقافلتنا.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

2

الطريق المفتوح

بقلب رقيق وحركة خفيفة انطلقت في طريق مفتوح وكان العالم أمامي حراً ومعافى، وقد قادني الطريق الطويل الداكن إلى حيث شئت.

والت وايتمان

كان الطريق إلى بلاد فارس مفتوحا أمامي، طريق معبدة وعريضة، وعلى الجانبين، عدا تلك التي خلفتها خلفي، كانت تلتمع مياه الخليج وتمتد الصحراء الكالحة العريضة المترامية الأطراف، وباندهاش كبير وشعور بالتأثر لا حدود له، امتدت تحت النظرات المحدقة بحدة أرض رملية حرقتها الشمس بلهيبها. وهنا وهناك غمرتها تموجات كانت تعكس ظلالاً سوداء حادة، ومن النادر رؤية أكثر من شجرتين تقفان وحيدتين صامدتين بوجه البرية الجرداء القاحلة. لقد خدمت هذه الاستثناءات الفريدة لتأكيد التماثل في الأفق اللامتناهي والمشهد القاحل. ولكن ليس متناهياً. ففي الأفق البعيد صوب الشمال المعتم وفوق الضباب المشع الذي يغطي الصحراء، هناك حد فاصل من الظلال الباهتة. ورغم خشونتها ومنعتها وعدم تأثير المسافة عليها، كانت تصعد صعوداً حاداً خارج السهول المنبسطة، ذلك هو الجدار الصخري العظيم لبلاد فارس.

Twitter: @alqareah

وهناك على امتداد البصر يمتد مرورنا عبر الأرض الجرداء، وعندما نظرت إليها من الساحل، اعتقدت بأننا خلال مسيرة أو مسيرتين لنا عبرها، سنتجاوز حدها الفاصل المرعب وانتابتني حيرة غامضة عن كيفية القيام بذلك.

كان المفروض أن تصل البغال الآن، ولكن هذا لا يعني شيئاً في بلاد فارس، حيث الشعار «لا تفعل اليوم ما تستطيع تأجيله حتى الغد ولا تفعل شيئاً على الإطلاق إذا كان بالإمكان تجنبه» هو من عادات العمل والالتزام وتعد أموراً شاذة وآثاماً إيجابية.

يقول الشرق بأن الحياة قصيرة بحيث لا تستحق الاهتمام بالزمن.

«من لم يُولد غداً أو مات بالأمس فلماذا القلق إذا كان اليوم هو الأحلى والأبهى».

هذا ما يشدو به فيلسوف فارسي وتتغنى به عواطف البلاد كلها.

وتسود البلاد عبارتان محببتان وشائعتان هما:

«إن شاء الله فاردا (غداً إن شاء الله) وعيب نيست (لا يهم)». أما المرء البغيض، عديم الأخلاق والفلسفة والذي يتجرأ القول «هذا يهم»، فيُنظر إليه من خلال قيمته الحقيقية ويصبح في وضع مضايَق بحيث يستسلم بعد فترة وجيزة ويقبل صاغراً طريقة العيش المعتادة أي تقاليد البلاد. هذا كل ما بوسعه أن يفعله.

ليس محبباً للمرء أن يذهب إلى الشرق وهو في عجلة من أمره. فالشرق هو أرض الانتظار ـ عليه أن ينتظر سواء رغب في ذلك أم لاـ إذ ليس بوسعه أن يتغلب على أمة بمفرده. لقد تعلمت شيئا من هذا القبيل خلال إقامتي في الهند لمدة سنتين، وقد بدأت استوعب تأثير الروح المدمرة للامبالاة الشرقية. ولذلك جلست على الرمال تحت شجيرة صغيرة وانتظرت قدوم البغال بفارغ الصبر.

Twitter: @alqareah

كان عملاً مرهقاً حيث امتدت الطريق أمامي واضحة ومستقيمة وقلبي في شوق إلى الطريق، وعقلي يحدثني بأنّ كل ساعة تأخير تعني بالنسبة لي ساعة أخرى من المسير ليلاً في أرض غريبة ولم تأت البغال بعد.

انطلقت قافلة بعد أخرى خارجة من الصحراء، في البداية بقع سوداء متحركة على الرمال الداكنة، ثم مخلوقات غريبة مشوشة نتيجة الضياء المرتعش تطفو فوق الصحراء مثل أشياء بشعة ذات أجسام يصل ارتفاعها إلى عشرة أقدام، أو مقطوعة إلى النصف تماماً. وتتقدم إلى الأمام في شريحتين تقترب، تتراجع، تتغير، وأخيراً ظهرت هذه المخلوقات كأجساد آدمية صلبة منهكة من شدة الإعياء، وتطلق أصواتا مرتفعة وتدق الأجراس لتفريغ حمولة الجمال والبغال وتهيئة مكان مريح خلال الليل. ولكن بغالي لم تصل بعد.

تأرجحت الشمس في غروبها عبر السماء وانقلب النهار من حرارة نابضة بسرعة إلى برودة ناعسة، وبدأ الغسق يزحف من التلال البعيدة إلى الشمال الشرقي. ومع ذلك لا أثر للبغال.

وأخيراً، وعندما بدأ اليأس يتسلل إلى قلبي المتعب ولم تعد التبريرات الكاذبة تجدي نفعاً مع أفراد القافلة، ويئست تماماً من إمكانية التفكير في رؤية مجاميع من الحيوانات بعد أن حلّ الليل وساد الظلام، انتصب أمامي «سيف».

«هناك يا سيدي. لقد وصلت».

اعتقدت في البداية أن الأمر مشكوك فيه، ولكنه كان مصيباً حيث وصلت البغال الخائرة بكل هدوء.

لا فائدة من الغضب ولا فائدة منه في أي مكان، وهو أقل من المعتاد في بلاد الشرق، وهكذا لم نضيع الوقت عبثاً بل انطلقنا للعمل.

Twitter: @alqareah

هبّ معسكري الصغير إلى النشاط والحياة المذهلة. صناديق وحقائب وعلب من كل الأحجام تكدست بغير انتظام، وعند النظر من هذه الأكداس صوب البغال أو من البغال نحو الأكداس بدت المهمة يائسة للجمع بين الطرفين.

ولكن البغال أبت التحرك نحو الصناديق، وسُحبت الصناديق نحو البغال بقوة خارقة واتخذت الرزم والحقائب مكانها في الأماكن المستحيلة لها، حيث انتصبت صروح لا شكل لها من الإهمال على سروج البغال. وهكذا أصبحت البغال جاهزة من الناحية العملية وتُركت طليقة ترعى على غير هدى في البرية الجرداء، وبعد كثير من الجهد والعناء والقَسَم والصراخ انتظمنا في فترة قياسية من الزمن، وقد حظيت أنا وسيف بفرس لكل واحد منا، وهذا ما يطلق عليه الحاجة إلى اسم أفضل. لم يكن في الحقيقة بغلاً وهذا كل ما يمكن أن يقال عن هذا الأمر. وحالما أصبحت الحيوانات المحملة جاهزة للانطلاق قذفنا في أفواهها الصغيرة الكارهة قطعاً كبيرة من الطعام، ويبدو إنها لم تذق الطعام بين أسنانها منذ مدة وهي كارهة له مرة أخرى. وبعد أن دثرناها ببطانيات عملنا أن يكون حزام السرج مناسباً ومحكماً حولها لمقاومة كل الاحتمالات والأحداث التي قد تقع فجأة، فلا تهتز الأحمال فوقها وتسقط على رمال الصحراء.

وعندما حلّ الليل كنا على أهبة الاستعداد للانطلاق، وامتطينا أنا وسيف حصانين دونكيشوتيين (دونكيشوت بطل الرواية الشهيرة بهذا الاسم لسرفانتس) بكل شجاعة، وبغال الحمل تسير بانتظام يدفعها للمسير رجال يمتطون الحمير لا تكاد تراها من كثرة البطانيات على ظهورها و«كيشنا» يمتطي واحداً بينهم، وأخيراً كان هناك السيد «ستمبس» الذي كان مترجلاً وبروح معنوية عالية، وكما كنا جميعاً لأننا بدأنا رحلتنا أخيراً خلال بلاد فارس.

وفي تلك اللحظة ركب فارسيان يلفتان النظر وشكلهما مثير للاشمئزاز. ويمكن الاستدلال من مظهرهما على كونهما أعضاء في

Twitter: @alqareah

إحدى عصابات اللصوص والتي نسمع عنها كثيرا، ولكن في هذه الأيام المتدهورة لقطارات السكة الحديد وخطوط النقل عبر الأطلسي فإن المرء لا يكاد يراها. ويتسم كل واحد منهما بسمرة الوجه وشارب أشعث كثيف وملابس مرتخية ومتدلية على طول الجسم، وهي الشائعة في هذا البلد الإسلامي، ويضع «كولا» سوداء مثبتة على قمة شعره المتناثر ويضع على كتفه بندقية مرعبة قديمة الصنع. إنها وحشية مبهجة ورومانسية. ولكن وبكل أسف، بدلاً من أن يركب اللص حصاناً عربياً، امتطى كل منهما بغلا فارسياً. لم يكونا لصين وإنما شرطيين.

تحمل كلمة «شرطي» للرجل الإنكليزي المتحضر صوراً ذهنية لرجل عنيف وقوي ووجه أحمر، ويلبس ملابس وقورة وأنيقة من القماش الأزرق المعتم ويضع على رأسه خوذة قاسية ومتواضعة. وتُستثمر هذه المزايا بتأدية التحية التي تنم عن كامل التقدير والسلطة التي يتمتعون بها، بحيث إذا رفع الشرطي إصبعه الصغير يحترمه حتى سائق السيارة العمومية المشاكس والسليط اللسان. إن الحصان الذي يجر عربة النقل الواطئة وكذلك الجواد المطهم بين الممرات الرئيسية في لندن يمكن شد لجامهما وكبحهما حتى تتمكن الحاضنة والطفل الذي بعهدتها من العبور بسلام إلى «برووك ووك»، إذ ليس ثمة أبلغ تعبير عن الحضارة من احترام وخشية السلطات المسؤولة عن تحقيق العدالة، والذي يتمثل في انتصار هذه السلطات على القوة الغاشمة.

لا شيء يمكن أن يبتعد عن التماثل الفارسي. ففي الشرق هناك إهمال وإسقاط للسلطة المعنوية والأخلاقية، ولذلك عندما تنتصر القوة الغاشمة فإن السبب هو أن المكر قد تغلب عليها. ولكن الشرطي الفارسي يربح مصلحياً أكثر مما يفقد وظيفياً ومع أنه ليس موضع ثقة ولا يؤتمن جانبه، إلا أنه أكثر إثارة للدراسة من نظيره البريطاني. فهو وحشي مبهج. ورغم كل شيء، يثير البهجة لأنه وحشي بصورة رسمية. وفي الواقع إن إعطاءه الصفة الرسمية

Twitter: @alqareah

تضاعف من جاذبيته. إذ أن ميزاته الشرسة لا يخفف منها الرهبة من النتائج والتي تجعل الشقي يحقق ما يريد بوسائل دنيئة وماكرة، والتي تثير اشمئزاز المسافر وتجعله ينصرف عن اكتشافاته. وهكذا كانت المهمة أسهل وأبهج عند التعامل مع مثل هذه الطبقة المقصرة في واجباتها والمنتهكة للقانون، والتي يمكن الاستفادة منها لتحقيق حصانة نسبية لنا.

فصديقنا الشرطي الفارسي الذي يسمَّى في تلك البلاد «توفانكجي» سيحرسك بكل أمانة وإخلاص إذا حقق مصلحته من ذلك، ولكنه سيسرقك عندما يعتقد بأن ذلك أكثر فائدة له، ومن المحتمل أن يقوم بالفعلين معاً وعلى الفور. وهكذا يكافأ مرتين على خدماته حيث أن براعته العقلية والجسمية هائلة، فهو عادة ما يتفوق، حتى في بلاد فارس، على الخبير العادي في الوسائل والذرائع سواء بالكلام أو الأفعال. ففي بلاد تعتبر الكذب إنجازاً وليس إثماً فإن الجريمة الوحيدة هو اكتشافها أو إماطة اللثام عن مرتكبيها، فهو مشهود له بالكفاءة الخارقة من خلال الفن القومي. سيخبرك بوجود لصوص قريباً منك حيث إن اللصوص ضمن مسافة مائة ميل هم هو ورفاقه، وما دام قد فرض نفسه عليك فإنه سيصحبك حتى تدفع له أو يتجنب خدمتك حالما يؤكد بأن طريقه المعتادة قد انتهت وأنه سيغادر إلى موطنه أو إلى فريسة أخرى. أما بالنسبة إلى قافلة التجار فهو يتصرف بتجرد ودون تحيز ويكون بمثابة الرفيق الحامي والسارق والمسلي في آن واحد. فالنظام في البلاد هو إما أن تكون فريسة أو تفترس الآخرين، فهو فريسة وفي ذات الوقت يبذل جهده لافتراس الآخرين.

ومن الملفت للنظر للمواطن في بلد يدفع الرجال من أجل أن يمنحوا امتياز الشرطي. إذ تجد بلداً يدفع فيه الرجال من أجل امتياز أن يكونوا في سلك الشرطة. وعلى أية حال، هذا هو النظام في بلاد فارس. وعندما يدرك ذلك، فمن الطبيعي أن يقدر كثيراً أن على

Twitter: @alqareah

المسافر الذي يقصد زيارتها أن يتسلح جيدا بمعرفة تؤهله حماية نفسه من رجال الشرطة.

وحالما يدرك موقع حماة القانون الفارسي، ربما يصبحون رفقاء ممتعين ومسلين في المسافات القصيرة التي يرافقونك فيها، حتى يكتشفوا بأنك ترفض أن يخدعك أحد. فهم مزيج بهيج من التظاهر بالشجاعة والمكر. فبالإضافة إلى قدرة الشرقيين على النفاق فهم مولعون بالبهرجة والكلام المنمق الطنان، والشرطي الفارسي مزيج غريب من الجندي الطائش واللص المحترف، ولهذا فهو يستحق الدراسة سواء كشخصية قومية أو من ناحية «الجريمة العلمية» إذا ما أطلقنا على هذا السلوك تعبير «الجريمة»، والمرفوضة هنا تماماً، ولكنها في الشرق تعد من المهن المعترف بها. ويبدو أن «التوفانكجي» يشعر بالسعادة الضامرة حين يسطو عند منتصف الليل على قافلة، ويندفع على فرسه وهو يمسك اللجام بكلتا يديه ويطلق صيحات الابتهاج مدوية في أرجاء الصحراء. مثله في ذلك مثل الكثيرين من الشرقيين، فهو طفل عظيم يمتلك حكمة الشيوخ. إنه بسيط كتلميذ المدرسة ولديه ذكاء يمكنه في جميع الأحوال من أن يربك مجلس الوزراء. وفي الوقت الذي يستمتع فيه الأجنبي الحاذق بسلوكياته الغريبة فإنه في ذات الوقت ربما يشعر بالخزي والمقت جراء مكره. ويبدو أن بيير لوتي (والذي كان عيبه الوحيد أنه قام برحلة عبر بلاد فارس ليلاً بسبب رداءة الطقس في أحد فصول السنة، الأمر الذي جعله يشاهد في جلّ رحلته شروق الشمس وغروبها وسراب خيالي) كان قد وقع ضحية سهلة لشرطي فارسي مخادع. لقد ارتكب خطأ حين صدّق ما قالوه له، وكانت النتيجة ليس خوفاً دائماً من لصوص وهميين فقط وإنما أُخضع لعملية ابتزاز مستمرة، حتّمت عليه أن يدفع لحراس لم يكن بحاجة لهم، وكانوا يعتبرون بأنهم قاموا بواجبهم حينما يتلقون أجورهم لقاء خدمات لا ضرورة لها ولا فائدة منها.

وعلى أية حال، بدأ يرتاب في الأمر وأن ثمة خطأ ما، خاصة

Twitter: @alqareah

عندما تخلى عنه مرافقوه وتركوه وحيداً وليس هناك من يدافع عنه أو يحميه في الصحراء الموحشة، وقد أشار في مذكراته إلى أن الابتزاز سمة أساسية لديهم، وإذا ما توقفت عن الدفع فلن تجد أحداً إلى جانبك حتى لو تعرضت إلى الهلاك. من الناحية الشخصية كنت دائما أرفض مقابلة رجال الشرطة في الحالات الرسمية أو التجارية. أما كرفاق درب فكنت ممتناً لصحبتهم ولكن كشرطة كنت أرفض التعامل معهم بأي شكل من الأشكال، وبغير إبطاء يأتيك اثنان أو ثلاثة من هؤلاء الحقراء الأنيقين ويسردون عليك حكايتهم عن أعمال إرهابية خيالية. إنه لأمر ممتع أن تصغي إليهم وكنت من عادتي الإصغاء وأدع مرافقي الأفغاني يترجم لي ما يصعب عليّ فهمه، ولكن عندما كانوا ينتهون كنت أشير إلى البنادق التي أحملها أنا وخدمي وأقول مبتسماً «نحن أيضا توفانكجية». وبعد برهة وجيزة كانوا يدركون ما أعنيه بقولي، ويغادرون وآيات الشكر والتبريك تتردد على شفاههم، ولم يكن لدي أدنى شك بأن قلوبهم كانت تضج بمختلف اللعنات والسباب، ولكن هذا هو السبيل في بلاد فارس.

لقد بُهرت برجال الشرطة الفرس، بحيث أجريت عدداً من التحقيقات غير الرسمية حول أخلاقهم ووسائلهم. وكانت نتائج هذه التحقيقات قد اعتُمدت في بحث قصير حول «اللصوصية الفارسية».

يمارس كل فرد في بلاد فارس اللصوصية بصورة أو أخرى وكلما سنحت له الفرصة لذلك، ولكن أكثر العناصر مهارة هم موظفو الحكومة والذين يعرفون «توفانكجية» والذين تم وصفهم من قبل. كانوا يتخذون لهم مواقع هنا وهناك وفي فترات متقطعة على الطرق التجارية حتى يحمون الطريق من الناحية الإسمية فقط، ولكنهم من الناحية العملية يفعلون ذلك من أجل ممارسة السرقة وعمليات الابتزاز والاغتصاب على تلك الطرق. وربما مقابل هذه الخدمات لا يتقاضون أجوراً من الحكومة. وفي الحقيقة وكما ألمحت آنفاً، منهم من يدفعون من أجل أن يتبوّؤا هذا المركز الرسمي وقد أدركت

Twitter: @alqareah

ذلك قبل زيارتي، فقد عرفت أن محافظ «بوراجون»، وهي مدينة صغيرة في الصحراء تقع بين حافة التلال الصخرية الجنوبية لبلاد فارس والبحر، قد تلقى مبلغ 450 تومان من التوفانكجية. وفي الواقع كانوا يتحولون إلى لصوص محترفين ومسلحين في ظل حماية السلطات العليا لهم. ولا يفترض بأنهم لن يخدموا الدولة بإخلاص إذا ما تورطوا بأعمال سيئة أو تقصير أو سوء تصرف من أجل مصالحهم الذاتية. فهم يخدمون رؤساءهم بكل أمانة إذا ما سمحوا لهم بتأدية واجباتهم تجاه مرؤوسيهم بكل خيانة وانحراف. ولكن ذلك قد يكون مبدأ معمولاً به بشكل أو بآخر في بلاد الشرق، وإلى هذا الجزء من العالم يمكن أن تنسب هذه الأبيات الشعرية:

البراغيث الكبيرة تحمل على ظهورها
براغيث صغيرة حتى تلسعها
والبراغيث الصغيرة لديها براغيث أصغر
وهكذا وإلى ما لا نهاية.

هذا هو النظام الذي تتكون منه الحكومة، ولا عجب في ذلك إذ يقاس نهم وشراهة البرغوث بمدى ما يمارس ضده من لدغ ومدى ما يمارس هو من لدغ ضد الأصغر منه. ويبدو أن الحراس الرسميين في بلاد فارس يعتبرون القافلة العابرة غنيمة ثمينة وصيداً سميناً لهم ويؤدون واجباتهم وفقا لذلك الافتراض. أما بالنسبة للقوافل ذاتها فهم لا يستسلمون بخضوع إلى نظام الابتزاز والاغتصاب الذي يمارس ضدهم وحسب، ولكن سائقي البغال الذين هم حمالون للأمتعة فقط وليسوا مالكين لها، لم يكونوا على درجة من اليقظة والحذر وليسوا مؤهلين عقلياً أو جسمياً للوقوف بوجه الأساليب التي يمارسها «التوفانكجي» لكسب عيشه. هذا ما وجدت فيه مجالاً شائقاً للبحث والتحقيق القضائي والملاحظة والتي نجم عنها نتائج مثيرة للدهشة.

Twitter: @alqareah

فالشرطة الفارسية مزودة بكل الأدوات اللازمة لأعمال السرقة التي تمارسها إضافة إلى عمليات الابتزاز الشرعية على الطرقات، حيث تمر مختلف البضائع عبر طرق التجارة الرئيسية في بلاد فارس. ولدى رجال الشرطة مختلف الوسائل للاستيلاء عليها. وحتى البضائع المرسلة كأمانة إلى أحد العملاء لا تسلم من السطو عليها. وبخصوص هذا الموضوع سمعت قصة بليغة ومعبرة عن براعتهم.

كان أحد الموظفين الإنكليز المعروفين في بلاد فارس قد طلب بعض الشمبانيا من أوروبا وعند وصولها أقام حفل عشاء كبيراً. وقد جرت الأمور على خير ما يرام حتى جاء موعد تقديم النبيذ الذي وصل مؤخراً حيث اكتشف بأنه قد استبدل بصنف آخر. وعند إزالة السدادات والأغلفة ظهر بأنّ الشمبانيا عديمة النكهة وبدرجة غير طبيعية، وعند فحصها تبينّ ولسوء الحظ بأن القناني قد ملئت بالماء القذر بدلاً من النبيذ الممتاز الذي تم طلبه. وحيث إن السدادات كانت سليمة والقناني متكاملة فلا بد من معجزة لكشف السر، وقد قام بذلك أحد المراقبين الأذكياء. لقد قام التوفانكجية أثناء الطريق وبوساطة سلك أحمر حار بثقب ثقوب صغيرة في القناني، ومن خلالها وبكل حيوية ونشاط وضعوا أنفسهم على النقيض تماماً من تعاليم القرآن وبطريقة مرضية ومقنعة تماماً لهم. ثم قاموا بعد ذلك بملء القناني من مياه نهر «دكنا آباد» أومن أي مجرى آخر، والتي لا يمكن لمياهه ومهما تقوّل الشعراء في مديح نقائها أن تكون مماثلة للشمبانيا الممتازة. وبكل دقة أغلقوا الثقوب وأعادوا ترتيب الصناديق ليرسلوها حتى تقدم في حفلة العشاء الفاخرة التي ذكرناها. هذا المثل عن خلفية رجال الشرطة الفرس يبينّ أسلوب التعامل مع الموقف الجديد معهم.

وعندما تكون تجارة البلاد الاعتيادية هي التي يهتمون بها فإن أساليبهم تكون كاملة وشاملة، وتتكون بعض السلع التي تنقل بالبغال عبر الممرات الرئيسية لبلاد فارس من القطن الخام والصوف الخام. فعلى الطريق تمر سلسلة طويلة من البغال وكل

Twitter: @alqareah

واحد منها محمل بالدهون والبالات ورزم ضخمة يتدلى منها خيوط تظهر محتوياتها. وهذا أمر يدخل البهجة إلى التوفانكجي الذي يتعامل مع هذه البالات لأن أسلوبه، إضافة لما سيجلبه له من الفائدة، ينطوي على ذكاء أعلى من المعدل وعلى قدر كبير من روح الفكاهة نحو أي شخص عدا صاحب البضاعة. ومن الواضح أن هؤلاء التوفانكجية إذا ما قاموا بفتح هذه البالات عنوة والاستيلاء على محتوياتها فإن أمرهم يُكتشف على الفور ويتعرضون إلى الفصل من وظائفهم، فالمظاهر يجب المحافظة عليها حتى في بلاد الفرس، ولهذا فهم يبذلون قصارى جهدهم كي لا يلاحظ النقص في القطن أو الصوف حتى وصوله إلى غايته المقصودة حيث يكون البحث عن الجاني أمراً مستحيلاً، وأن الشخص الوحيد الذي سيعاني هو المشحونة له البضائع، أما الإجراء المتبع فهو الآتي:

يتسلح حارس الطريق بقضيب نهايته خشنة مثل القضيب التي تنظف بواسطته البندقية، وبعد أن يثقب القماش الذي يغطي البالة يدفع القضيب إلى وسطها ثم يلويه عدة مرات حتى يتجمع في نهايته الخشنة كميات من القطن أو الصوف، ويقوم بعد ذلك بسحبه وتكرار هذه العملية بشكل ارتجالي، ويكرر العملية نفسها في كل بالة في القافلة، وحيث أن كل شيء لا مجال للشك فيه من المظهر الخارجي، يقوم سائق البغل بتحميلها في الصباح التالي ويواصل مسيره فرحاً ومن فرط سعادته لا يلاحظ الثقب الكبير الذي يزداد اتساعاً في وسط كل بالة والبعض منها خاوية إلا من جدرانها.

أما السلعة الأخرى التي يغرم التوفانكجي بالاستيلاء عليها فهي الملابس القطنية والأقمشة وغيرها والتي تصل إلى البلاد من إنكلترا، الهند وروسيا، ويبدو أن سرقتها أمر في غاية الصعوبة، حيث إن البالة محكمة التخريم والرزم بحيث تكون المادة القطنية قابلة للتدحرج والدفع ولتأمين سلامتها يلتف حولها أطواق حديدية قوية. ولذلك فإن أية محاولة لجر قطعة من داخل البالة سيثبت على أن الأساليب العادية في السرقة غير مجدية ويجب تجنبها ولكن هذا

Twitter: @alqareah

لا يسبب قلقاً لصديقنا التوفانكجي، فهو يمتلك شريطين طويلين ومسطحين من الحديد وبواسطتها يباشر مهمته.

إنه السكون المطبق الذي يميز الليل في بلاد فارس، وتتكدس البالات والرزم في الخان أو على الأرض الرملية في الصحراء. ويجد «جارفاردا» أو سائق البغال ورجاله فرصتهم للخلود إلى النوم العميق، ولا تسمع في الأرجاء سوى حركة البغال المتعبة وجرس يدق بخفوت بين الفينة والأخرى. وبكل هدوء يدحرج التوفانكجي إحدى البالات إلى مكان ملائم، ثم يدخل الشريط الحديدي داخل القماش بعد أن يكتشف مكاناً بين قطعتين منفصلتين ويدفعه أكثر إلى الداخل ومرة أخرى بين قطعتين من القماش، ثم يدفع الشريط الحديدي الآخر ويقوم بربط طرفي الشريطين بلولب يشبه مكبس السروال في هذا الأسلوب الفريد، ثم يجلس بعد ذلك على الأرض ويضع قدميه بقوة على البالة ويمسك الشريطين بحزم ويسحب بعنف، وتخرج الآلة المستعملة حاملة معها قطعة القماش بكاملها، وبعد أن يرتاح قليلاً يقوم بسحب ما تبقى من القماش بسهولة وليس ثمة أثر باق لهذه العملية.

كما إن السكر الرطب مادة جذابة للسرقة، ويمكن الاستيلاء عليه من أكياس الفحص بالطريقة التالية:

يقوم التوفانكجي بعمل ثقب ضئيل في الكيس، ثم يدفع أنبوباً إلى داخله، وبقليل من المعالجة والصبر ينساب السكر بسهولة خلال الأنبوب، ولا يلاحظ سائق البغال هذا العمل إلا بعد صعودها أحد التلال فيعتقد للوهلة الأولى بأن أكياس السكر قد انحدرت إلى الأسفل.

ويقع سكر القوالب فريسة سهلة أيضاً حيث يتم الاستيلاء على عدة قوالب من كل كيس ووضع حصى مكانها وينتهي الأمر.

وكذلك أدوات الزينة الزجاجية والمسابح إذا ما وضعت أحجار مكانها وبنفس الحجم فلن يلحظ أحد شيئاً أو يشك في الأمر، وحتى

Twitter: @alqareah

نهاية الرحلة لا يكون للعنصر الأجنبي تأثير قوي على حالة السلع الأصلية.

وهناك نزعة خاصة وانجذاب متماثل نحو الشاي والقش. إذ يحدث غالباً وعندما تصل القافلة إلى غايتها أن تجد أكياس الشاي تحتوي على مزيج ينجم عنه شراب مخمر إذا ما وضع مباشرة في قدر الشاي. ولكن الخطأ هنا لا يلحق بفرد بعينه إذ لا أحد يقوم بعملية التسجيل وبالتالي فإن الخاسر الوحيد هو التاجر، وهكذا لماذا يحرص سائق البغل وعلى ماذا يحرص؟ وفي الواقع لا يبدي سائق البغال حرصاً أو اهتماماً على الإطلاق، وكما ذكرت سابقاً، فهو مجرد ناقل أو موصّل وليس مالكاً للبضائع، ومن الناحية الواقعية، فهولا يستطيع التحريض على الممارسات الخفية لصديقه الشرطي إذا ما وجد في ذلك حياة أيسر وأسهل له. وفي بعض الأحيان يتمكن من الحصول على اللوز والجوز في نهاية الرحلة رغم الخسائر الباهظة التي تعترضه في الطريق.

إنَّ علم اللصوصية أكثر عمقاً وغموضاً من الأمور التي تم نكرها آنفا، وهو يقدم فكرة واضحة عن الأحداث التجارية في بلاد فارس وفي الشرق عموماً. فهل هناك مدعاة للعجب بأن الأسعار مرتفعة، والتجارة تحفها المخاطر والتقدم يكاد يكون مستحيلاً؟ فإذا ما أراد الشرق أن يحقق مستقبلاً تجارياً متقدماً، فعليه أن يستبدل وسائل العمل وأنماط التعامل التجاري بين التجار، والقضية الأساسية التي تعلو على كل القضايا هي قضية إيجاد حكومة أكثر استقامة.

لقد ذهبت بعيداً عن الشرطيين اللذين يرافقاني واللذين ركبا معي في ذلك اليوم الشتوي على الساحل الجنوبي لبلاد فارس، لم تكن وسائل الشرطة الفارسية الخبيثة معروفة لي في تلك الفترة، ولهذا انتابني شعور بالخطر والخشية من أن أكون ضمن قائمة الأجانب الأبرياء الذين وقعوا فريسة لهم في الماضي. وبعد أن أدركت وبكل أسف أن المبدأ الأول والمؤكد في بلاد الشرق هو الشك

Twitter: @alqareah

وعدم الثقة، قبلت وبامتعاض شديد مصاحبتهم وتقدمهم معنا. فقد أصروا على وجود الخطر وأكدت لهم بأني لست بحاجة لحماية، وأخيراً وبمعاونة الرجل المؤمن «سيف» أقنعتهم بأني قادر على حماية نفسي حتى منهم، الأمر الذي جعلهم يختفون مُكرهين في الغسق.

وهكذا بدأ تقدمنا أخيراً حيث جمعت البغال التي كانت تتجول هائمة، وأعطيت حافزاً كي تبدأ رحلتنا المضنية في الصحراء ونتنقل في مسيرنا من بحر إلى بحر. وفي الضياء الباهت امتدت أمامنا الأرض المنبسطة الفسيحة إلى عالم المجهول الوعر حيث يغور في الحد الأسود للتلال الصخرية، وعندما حل الظلام من الشرق رانَ سكون مطبق، وبينما اتجه العالم كله للنوم اندفعت قافلتي الصغيرة نحو ظلام يكتنفه الغموض. فالفضاء المبهم الذي انطلقنا فيه لم يكن مجرد صحراء فحسب وإنما كان مهجوراً، إذ لا حياة ولا صوت والمكان كله يخيم عليه صمت كصمت القبور.

كان ثمة شيء مخيف في انطلاقنا وحيدين في صمت تلك الأرض الشرقية الغريبة. ففي الأعالي فوقنا بانت النجوم مشعة ضياءً أكثر بغضاً ووحشة من الظلام نفسه. جلست على فرسي لا أقودها ولكنها تقودني، ومشينا بتثاقل نتهادى على نغمة أجراس القافلة الرتيبة. وحولنا اختلطت الأصوات ببعضها بغير انتظام فلا تسمع سوى طقطقة أورنينا. لا أحد يتكلم، فالكلمات لا تخفف وطأة مسيرنا الطويل. الضوضاء الوحيدة هي الناجمة عن وقع الأقدام الخفية والأجراس غير المنظورة. تعمل الرتابة الشرقية على إراحة الحواس وإغراقها في نوم يقظ خفيف. لقد فكرت باستغراب «لا بد للخلود أن يكون مثل هذا»، وبينما كنت أفكر خطر ببالي عارض أبعد الخلود والنوم عني. فعلى يساري سُمع رنين بشع وعلى الفور تصاعدت ضجة لا يمكن وصفها. فقد سمعت أشياء برية تندفع خلال الظلام وتحولت النغمات الرتيبة للأجراس إلى أصوات خشنة غير متجانسة، حتى فرسي التي كانت عاجزة عن التقدم في مشيها وثبت

Twitter: @alqareah

بكل خفة إلى الأمام، أما «سيف» فقد سقط من على ظهر جواده بقوة وعلى الفور قدم اعتذاره لي، ولكن لماذا لم أتخيل ذلك؟

لقد كان سبب هذا الاهتياج بسيطاً وكنت قد أدركته منذ البداية. فكل هندي إنكليزي يعرف «علبة الحمام»، فالأمر برمته يتعلق بكون المواطن الهندي لا يستغني عن «تنكة الكيروسين» الفارغة، ومن أهم تطبيقاتها الواضحة استعمالها كوعاء لتسخين الماء لحمام سيده حيث تثقب من الأعلى حتى تصبح هذه الأداة مفيدة، ولا يوجد خادم وطني لا يأخذها معه أينما ذهب وحيثما حلّ (وقد استنتجت من ذلك بأنها ضرورية لراحته وراحة سيده على حد سواء). لقد كانت تنكة الكيروسين هذه مصدر تلك البلبلة، وحيث إن البغال الفارسية لا تعرف «علب الحمام» الهندية ولا تدرك مغزاها، فقد اهتاجت وماجت عندما وقعت علبة لم تربط جيداً على الأرض وأحدثت ضجة وجلبة بين أفراد القافلة، حيث انفصلت البغال عن بعضها واتجه كل واحد إلى أي مكان وإلى كل مكان، وصارت قافلتي الصغيرة التي كانت منتظمة قبل لحظات مبعثرة وهائمة هنا وهناك في الصحراء. خفق قلبي خفقاناً شديداً، فمثل هذه الكارثة تحدث مبكرة في النهار وأدت إلى أول توقف في هذه المسيرة الطويلة، فإذا كان هذا مثلاً لما سيحدث لاحقاً فمتى بحق السماء سنصل؟

هناك أمر يثير الأعصاب في الظلام، فعندما جلست على فرسي وحيداً واعداً سيف الذي كان مترجلاً والبغال الواهنة تئن هنا وهناك في الفراغ الساكن المعتم، شعرت بالعجز غير المألوف. ثم بدأ البحث. وكان أول شيء وجدناه بغلاً مغموماً يقف في الظلام وحمله يتدلى بانكسار أسفل بطنه، وأعتقد أن سبب حزنه ناجم عن عدم خبرته في التقيد بالمسيرة المنتظمة، ولهذا عندما تحرر من حمله انطلق على الفور كعهده السابق واختفى في جنح الظلام. إذ لم يكن بوسعك إحضار الحمولة إلى البغل فمن الضروري أن تحضر البغل إلى الحمولة، وإذا لم تستطع أن تجد البغل فلن تجد الحمولة، ولذلك انقضت ربع ساعة حتى تمكنا من إعادة هذا المجرم إلى جادة

Twitter: @alqareah

النظام. وفي الوقت ذاته تم جمع البغال الأخرى وأعيد ترتيب حمولتها، وكنا مرة أخرى على أهبة الاستعداد للانطلاق. وفي تلك اللحظة قام خادمي «كيشنا» بالتقاط التنكة ورفعها إلى الأعلى محدثاً قعقعة محذرة، فأخذتها منه بقوة وقذفتها على بعد خمسين ياردة في الصحراء. إذ من المستحيل أن نحافظ على هدوء تنكة الكيروسين، ويبدو أنها تمثل رفاهية كمالية في ظل ظروفنا الحالية (إذ عندما تعرفت على طريقة تفكير وعادات المواطن الهندي لم تتملكني الدهشة حين وجدت التنكة قد عادت إلى المعسكر في الصباح التالي). ساد صمت مشوب بهرج بدلاً من الأصوات الخشنة الصاخبة واللعنات والتي كانت تدوي في الظلام الدامس، واستأنفت قافلتي الصغيرة مسيرتها خلال الظلام.

لقد أدركت الحيوانات بأن فرسي تحمل على ظهرها قائد البعثة سواء بوساطة الحدس أو أن الحيوان نفسه كان زعيماً للبغال، هذا ما لم أكن أعرفه ولكن الحقيقة التي اكتشفتها والتي أزعجتني هي إنني تحملت بكل فخر مسؤولية توجيه البعثة بأسرها، إذ حيثما توجهت اتجه الجميع معي وفي بعض الأحيان يبلغ إخلاصهم لي حدّاً يجعلني أشق طريقي بينهم بصعوبة بالغة بسبب أكداس الصناديق والأجراس الحديدية الكثيرة والجباه المكسوة بالفراء، الأمر الذي يجعل من المستحيل التغلب على هذا الإخلاص الصادق وأن أحداً لن يحررني من هذه الحيوانات المتمردة. وبعد فترة من الزمن ألحق هذا ضرراً في ركبتي ومزاجي، وعبثاً حاولت أن أصد الأنوف الناعمة التي كانت تخرج من الظلام وتمسح أجسامها بي بعاطفة مثيرة ومتواصلة، وعبثاً توسلت إليها في البداية مما دفعني إلى استخدام لغة التهديد التي كنت أتقنها ولكنها لم تنصرف عني. وفجأة تذكرت مشهداً مضحكاً كنت قد شاهدته في أحد مسارح لندن، حيث يجد رجل بائس نفسه متورطاً بطائرة ورق والتي رغم كل الجهود التي بذلها لإزاحتها إلى الأعلى فإنها كانت تلتصق به بإصرار، حتى أنها في نهاية الأمر جعلته يفقد صوابه. لقد كان مشهداً مضحكاً إذ

Twitter: @alqareah

رغم الألم الحاد في ركبتي وتوتر أعصابي إلا أنني لم أتمالك نفسي من الضحك، ولكن هناك أمراً لابد من القيام به. يجب أن تختفي عاطفة البعثة تجاه زعيمها. لذلك قررت أن أقوم بتجربة، دعوت إلى توقف القافلة وأمرت بتوقف الجرس المزعج الذي كان معلقاً برقبة فرسي، وعندما واصلنا المسير كانت هناك قعقعة خافتة بدلاً من الأصوات الصارخة التي كانت تؤشر مكان وجودي. لقد نجحت التجربة نجاحاً باهراً. إذ عندما تم فصل الشرف الموسيقي، لم يعد باقي أعضاء البعثة يعرفون رئيسهم الأمر الذي جعله يتخذ له طريقاً أقل تشريفاً ولكنه أكثر راحة.

وفي الساعة العاشرة بدأ يظهر في الأفق الشمالي خطٌ أسودَ متقطع. كما غمر إشعاع كثيف السماء الشمالية حتى بدت قمم الحد تبرز حادة مقابل دائرة فضية ضخمة، والتي انتصبت جلية في السماء الأسود ـ إنه «قمر رمضان» يا له من منظر ساحر وفريد من نوعه ـ لقد شمخت أمامنا في عنان السماء سلسلة سوداء كالحة من الضباب الفضي، وامتدت حولنا سهول بيضاء شاسعة وكان الضياء باهتاً ومبهماً يكاد سناه يتلاشى على بعد مائة ياردة أو مائة ميل ليتحول إلى ظلام لا حدود له، وهنا وهناك كانت البغال تتمايل وينتصب أمامي بقامته السوداء «سيف» على حيوانه الذي كان يتهادى ببطء ويثير زوبعة ترابية خلفه.

وهكذا واصلنا سيرنا وقطعنا مسافات لا متناهية على دقات أجراس البغال الرتيبة حتى أنهكنا التعب، وأضنانا المسير الشاق فوجدنا ضالتنا لنعسكر لأول مرة على أرض «خوشاب»، وهي بقعة ملطخة بأشجار سوداء شبيهة بالقمة التي تحيط بنا.

من ذا الذي يتوقف ليلاً بقافلة لأول مرة وقد وصل عند منتصف الليل؟ من فَعَل هذا بوسعه أن يقدر عمليات التفريغ وإطعام البغال ورزم وتنظيم البضائع ويتدبر كل هذا، حتى وجدت نفسي أخيراً داخل خيمة بائسة اقضم قطعة من الخبز الجاف واللحم البارد. وسيعلم أيضا بأنني لم أعر اهتماماً لمظهر الخيمة مادامت تُغلق.

Twitter: @alqareah

كانت الساعة الواحدة والنصف من إحدى الأصباح الفارسية الباردة والصافية، وكان القمر يشع من مكانه في السماء ويضيء على مجموعتي الصغيرة من الرجال والحيوانات والصناديق، حيث تلاشت الأصوات تدريجياً ولم يعد الرجال يتحركون، حتى البغال كانت تقطع السكون بين آن وآخر بشخيرها الخافت.

وأخيراً، غرقت الواحة الصغيرة في سكون مطبق في جوف الصحراء، وقد منحها الليل الزائل نعمة كبيرة للنوم العميق.

Twitter: @alqareah

3

حياة التشرد

امنحني حياة أحبها ودعِ الطهر يلازمني، امنح
السماء المبتهجة فوقي واَجعل طريقي ميسراً...

ر. ل. ستيفنسون

إنه لأمر حسن أن تكون همجياً أحياناً. همجياً مثالياً، فالهمجي المثالي ليس فظاً غير متمدن وجاهلاً ولكنه رجل في غاية التمدن، وبوسعه أن يعود إلى الطبيعة ويعيش لفترة ما على مستوى من البساطة البدائية. وسيعيش حياة أرقى من الكثيرين على سطح الأرض لأنه يمتلك ما لا يمتلكون، التقدير. تقدير ما يمتلكه وما لا يمتلكه، تقدير الحرية، وابتعاده عن التفاهات الصغيرة، والحياة الواسعة والعريضة ومباهج الحياة العظيمة. وحيث إنه ليس جاهلاً لما ينقص الحياة فهو ليس كأقرانه من غير المتمدنين لا يكترث بما يمكن للحياة أن تقدم له. فالهمجي المثالي هو كائن مؤقت بالضرورة، مجرد زائر إلى أرض الهمج وإلا لن يكون هناك همجي مثالي. وكما ذكر السيد هـ. جي. ويلز ذلك الرجل الطبيعي، الضخم العاري، الفاضل الوردي اللون، الذي يشرب ماء الينابيع النقي ويأكل الفواكه الطازجة، ويعيش حتى التسعين في الهواء النقي هو مجرد خيال، لم يكن ولن يكون أبداً. إن الهمجي الحقيقي هو وكر للطفيليات داخله وخارجه، فهو يتنفس ويبلى ويموت جوعاً.

Twitter: @alqareah

أما الهمجي العادي فهو في الواقع بسيط كبساطة الجهل، ولكن الهمجي المثالي لابد أن يكون بسيطاً كبساطة المعرفة. فهو ليس قذراً لأنه يعرف أن بمقدوره أن يكون بسيطاً ومع ذلك نظيفاً وأنه من الأفضل أن يكون نظيفاً، وهو ليس فظاً وقاسياً لأنه يدرك أن من الضروري أن تكون لطيفاً ومتحضراً، وفي الوقت الذي يتبنى فيه سمات البساطة، يحتفظ بروح الحضارة. وعلاوة على ذلك فهو سيد الاستغناء عن الأشياء وأن الفن العظيم يكمن في إدراك كل الأمور، وقد يجلب المتاعب ولكنه يحقق أشياء مبهجة مرموقة، إنه يعلم الضروري وغير الضروري وما يستحق معرفته في الحياة. والعديد من الأغنياء لا يتعلمون هذا أبداً، والعدد الأكبر من الفقراء غير مؤهلين وليس بإمكانهم تعلمه، ولذلك فهم الأكثر تعاسة وحظهم أكثر تعثراً وسوءاً لأنهم قانعون بالنزر اليسير، وليس لديهم طموح للصعود والحصول على الأرقى والأجود. أما الأغنياء فهم يسعون جاهدين كي يرثى لحالهم، ففي حالة اختلاط الجيد والرديء يضيعون وقتهم فيما هو عديم القيمة كما ينفقون على ما يدر عليهم الربح والفائدة، وأحياناً يمنع الفقراء مثل أخوانهم على الطرف الآخر من الميزان من الحصول على المعرفة الحقيقية لما هو أفضل وأنفع، وقد تحول الظروف دون امتلاك طبقة ما على ميزات الثقافة وتعيق الطبقة الأخرى من اكتساب مباهج البساطة.

بوسعي أن أتصور الهمجي المثالي يخاطب إحدى المنتجات الإنسانية لأحدث شكل في الوجود العالمي وعلى النحو التالي: أنت يا سيدي تتمتع بمزايا عظيمة، فقد علّمك تعليمك كيف تقدّر ما أهّلك مركزك لامتلاكه، إذ قدم لك العالم أفخم اختيار من أجل متعتك، ولأرضاء كل حواسك بوسعك الحصول على كل شيء وتذوق كل ما لذّ وطاب. ويمكنك بدون أدنى شك وبصورة طبيعية أن تتخيل بأنك قد وصلت إلى أعلى درجة وأنك قد رضعت أفضل ما في الحياة، ومع ذلك فقد فقدت الكثير، فمن المحتمل أنك لم تُرهق بحيث تتحدر أطرافك وتتمسك بنعمة النوم، وربما لم يحالفك الحظ كي ترتدي

Twitter: @alqareah

ملابسك من أجل الرفاهية وليس من أجل المظهر وتعبيراً عن السعادة بالعالم الحر أمامك والروح الطليقة للتمتع بها. لا أتوقع بأنك كنت جائعاً في يوم من الأيام بحيث تستثمر وبلهفة كل لقمة خبز وقليلاً من الرز لإطعام كلبك، ومع ذلك فكل هذه الأمور جديرة بالتجربة. إذ بمقدورك أن تحقق فائدة عند زيارتك لحقل مجهول من حقول المعرفة. إنك تغفل جزءاً من الحياة.

نعم، ثمة بهجة حقيقية عند مقابلة الأشياء البدائية والخام والعظيمة الأهمية للوجود، الهواء النقي والغذاء البسيط، وعند النهوض بنشاط في الصباح الباكر وأنت مفعم بالقوة والحيوية. وهناك بهجة حتى لو كنت حقيراً سيئ السمعة ولكن ليس قذراً، فهذا أمر مختلف، ولكن أن تكون سيئ السمعة فقط أو حقيراً عند لبس قميص صوفي مفتوح عند الرقبة وسترة متدلية دافئة وسروال يشبه سراويل العمال الملطخة ببقع من المعجون، وحذاء يقيك غائلة الطقس فقط، إلا أن هناك الكثيرين الذين لا أعتقد أن بوسعهم أن يكونوا حقراء ومرفهين. عرفت رجلاً ذات مرة يصلح سيارة دون أن يجعد صدريته أو يتسخ قفازاه، أما بالنسبة لي، فقد كنت دائما أعربد وأصرخ بين الحين والآخر وأقذف بدلتي المألوفة المعبرة عن الحضارة المهذبة لأصبح مجرد همجي.

ولذلك اعتراني سرور غامر عندما نهضت مبكراً في الصباح المشرق على «كوشاب»، وأدركت بأني حر وسيد نفسي ورئيس قافلة صغيرة منطلقة نحو أرض غريبة.

وبعد أن ارتعشت أوصالي داخل ملابسي مثل إسفنجة غائرة، وهي ضريبة لابد أن يدفعها كل من يبغي أن يكون همجياً كي يفوز بالفضيلة التي تأتي بالمرتبة التالية للتقوى، جلست أتناول أول وجبة طعام حقيقية منذ ثلاثين ساعة. لم تكن دسمة إذ أعدها بالبهار الهندي خادمي الأصفر الذي كان يتعلم الطهي ويمارسه لي، ولكن إحدى المسرات للهمجية الحاذقة هي أنها تعلم أعظم درس يمكن تعلّمه: ليس الشيء ذاته ولكن أنت نفسك حيث تحتل المرتبة الأولى

Twitter: @alqareah

في الحياة. وهكذا فإن البهار أو كسرة من الخبز عندما تكون في أحسن حالاتك العقلية تعادل باقة ورد يرسلها حاكم المدينة في حالة مرض أو سوء هضم يصيبك. ومثلما قال ستيفنسون: إذا اغتسلت في أحد أنهار الله في الهواء الطلق فهو بمثابة وقار بهيج أو شبيه بممارسة وثنية في العادة، وحيث إن العبث بماء الصحون في غرفة النوم قد ينظف الجسم، فإن الخيال لا يساهم في عملية التنظيف أو التطهير. وهكذا فإن تناول وجبة طعام تحت السماء الصافية وبأبسط الوسائل يستدعي المزيد من الفضيلة. لم يكن الأمر مجرد إمتاع فقط ولكن بالنسبة للهمجي المثقف فهو يقدم نوعاً من الشُعيرة الدينية البدائية وتضحية ضئيلة على مذبح الطبيعة.

وفي جميع الأحوال، لقد تمتعت بفطوري تحت شجرة نخيل على الرمال وبعد فترة من الرزم والتحميل طالت بسبب قلة خبرتنا، انطلقت قافلتنا مرة أخرى في الصحراء اللاذعة. كان الجدار الجبلي دائماً إلى الأمام ولم يكن قريباً منا، وكان على أعيننا أن ترتفع تدريجياً إلى أعلى كي تتفحص رؤوس القمم وكان هذا هو الدليل الوحيد على اقترابنا من الوقت عندما يكون واجبنا مهاجمة الجوانب الكالحة. وهنا أيضاً استشعرنا راحة من المكان المقفر المحيط بنا على شكل رقعة صغيرة من أشجار النخيل الخضراء، ومع ذلك امتدت أمامنا وخلفنا وحولنا وفي حرارة منتصف النهار مساحات شاسعة ساكنة عديمة الرائحة وشديدة الحرارة من الرمال الجرداء.

ومن المفارقة المؤلمة للطبيعة، على أية حال، والمقدّرة على المرء، أن قلب المسافر عندما يزخر بالوحدة والأسى وعندما تتوق شفتاه إلى الرطوبة وأذناه إلى صوت الماء المنساب، يبرز أمام عينيه منظر سافر لمكان خيالي مثير للدهشة يشبه إلى حد كبير وليمة قفتالوس(*) حيث لا يمكن التمتع به أو بلوغه.

(*) قفتالوس: ملك تزعم الأسطورة الإغريقية أنه عوقب بأن غُمر إلى ذقنه في الماء، وقد تدلت الأغصان المثقلة بالفاكهة قرب شفتيه ولكن كلاً من الماء والفاكهة كانا يرتدان بعيداً عنه كلما حاول بلوغهما. م.

Twitter: @alqareah

عندما واصلنا المسير بتثاقل وصبر، ساعة بعد ساعة وعبر مسافات بعيدة في الصحراء، تلاشت الرتابة البغيضة للرمال والحجارة واستحالت إلى بحر زجاجي محبب إلى النفس، مغمور بجُزُر من النخيل متناثرة هنا وهناك، عَمَّ الاهتياج والمرح فالحقيقة التي لا تصدق ماثلة أمام أعيننا. وكان بوسعي أن أُقسم بأن ثمة بحيرة شاسعة على بعد ميلين من مكاني، وكانت الأشجار تنعكس على مياهها الراكدة وينتصب منها جزيرة صغيرة، وفي أعلى قمة فيها يرتفع معبد عجيب يرمز لروعة الطبيعة حيث ينعكس نظيره بكل صدق على صفحات الماء أسفله. وعندما اقتربت تراقص أمامي حتى وصلت فجأة إلى الجزيرة ـ قطعة صخرية جرداء ـ ورأيت بالقرب مني المعبد الخيالي ـ بقايا عظام بيضاء هزيلة لحيوان ميت منذ زمن بعيد.

لم تكن أرضاً ذهبية مثل تلك الأرض التي تخيلها الغزاة الإسبان عند غزوهم لأمريكا والتي يمكن للمتعلقين بالسراب أن يصلوا إليها بسهولة. ما هذا الجيش العرمرم؟ مَنْ هؤلاء الرجال الذين يسيرون بكتل لامعة ومتغيرة؟ مَنْ هذه المخلوقات العجيبة والطويلة الخارقة ذات الأطراف العشرة والرؤوس الضخمة؟ اقتربنا واقتربنا أكثر... وفجأة... يا للعجب... قافلة من عدد قليل من الجمال واثنان من الفرس يقودانها. هذا كل ما في الأمر.

وأخيراً لاح أمام عيني المتعبة وبكل ذهول قلعة خلف بعض أشجار النخيل، والتي لم تكن قد تلاشت من أمام أعيننا عندما اقتربنا منها كالعجائب الأخرى التي تراءت لنا في الساعات الأخيرة.

وفي بوراجون ـ وهذا هو اسم المدينة الصغيرة الواقعة قرب القلعة والتي أصبحت مكاناً ملائماً ومريحاً لالتقاء وراحة القوافل ـ وجدت أول بيت استراحة تتوافر فيه وسائل الاتصالات البرقية الأوروبية. فقد أقيمت هذه الاستراحات في البداية من أجل إقامة مديري الخطوط البرقية فيها وانتشرت بعد ذلك على طول الطريق الرئيسي للتجارة من بوشهر وحتى قزوين، وكان المسؤولون عنها

Twitter: @alqareah

في غاية الكرم لسماحهم للمسافرين باستخدامها والإقامة فيها خلال رحلاتهم. فهي أحياناً تشكل بنايات منفصلة عن بعضها وفي أحيان أخرى تكون جزءاً من المجمع العام للقوافل التجارية، ومع ذلك فهي ذات فائدة كبيرة عند الإقامة فيها بدلاً من تلك الغرف القذرة إذا ما توافرت. ولذلك سنحت لي فرصة أن أقدم امتناني لأولئك الذين منحوني الموافقة وبكل رقة للحصول على ميزات استخدام هذه الأماكن لتكون ملاذاً ومأمناً لنا. وهناك رجل تقع على عاتقه مهمة تنظيفها. فهي نظيفة ومرتبة ولها باب خارجي يمكن إغلاقه بإحكام وتتوافر فيها مغاسل كتلك الأماكن الراقية والمترفة. وتتردد حكايات عن وجود استراحة تتوافر فيها فرشاة أسنان معلقة على الحائط.

وبالرغم من المظهر الوحشي والقذر للسكان بسبب العداوات فيما بينهم وحملهم البنادق والمسدسات وحتى السكاكين، إلا إنني قضيت مساءً هادئاً في مدينة بوراجون. لقد أحضروا مجنوناً كي أعالجه ولكني أقنعتهم بعد جهد بأني لست طبيباً مما حدا بهم إلى الانصراف بحزن.

ولشدة دهشتي اكتشفت بعد نوم ليلة خالية من الأحلام بعد تعب جسمي شديد بأن الساعة كانت السادسة والنصف، وأن حاشيتي المرهقة مثلي كانت تغط في سبات عميق.

في مثل هذه الرحلة التي أقوم بها، ومن أجل تنظيم الأمور بعد الوصول إلى نهاية مسيرة طويلة ولكي تمنح وقتاً للاستعداد التام لتناول وجبات الطعام، فمن الضروري أن نبدأ مبكرين لذلك أصدرت أوامري بأن يتم التحميل عند طلوع الفجر ويجب أن يرزم كل شيء عدا الأمور المطلوبة والتي نحتاجها، وقد بدأت أشعر بأن ثمة صعوبات لم تخطر ببالنا يجب تذليلها. إذ من الضروري أن يتم التعامل ليس فقط مع الأشياء وفق قوانينها بشكل أو بآخر، وإنما مع الرجال أيضاً والذين يعتبرون قانوناً بحد ذاتهم.

ومن هذا المنطلق فإن أي تدريب عسكري لإفهام وإدارة بني

Twitter: @alqareah

البشر يصبح أكثر قيمة وفاعلية، فالضابط الحقيقي الذي لا ينظر إلى الرجال تحت إمرته على أنهم آلة وإنما على أنهم مجموعة من البشر يجب السيطرة عليهم بالبراعة والإفهام، بوسعه أن يكون على الدوام رحالة ممتازاً، فهو لديه البراعة (التي اكتسبها من خلال موقعه الذي شغله) لقيادة الرجال، وبالإضافة لذلك لديه الخبرة والمعرفة بالطبيعة الإنسانية والتي بوساطة التعامل بها يمكنه التقدم والعطاء. فهو قريب من الرجال، واسع الحيلة وبإمكانه أن يواجه الصعوبات ويتغلب عليها بكل لباقة ودهاء، ولديه إلمام بكل الألاعيب والحيل والتي سبق أن تدرب عليها أثناء تأدية واجباته العسكرية. ولكن على المرء أن لا يعتقد بأن السلطة هي كل شيء دوماً، وأن الرجل الذي يحفظ كتاباً عن ظهر قلب ويمتلك صوتاً مدوّياً وهيئة سلطوية سيجد نفسه، مع توافر هذه الصفات له، قادراً على تحقيق النجاح في مثل هذه المهمة لإدارة القافلة. فهو في حقيقة الأمر ليس ضابطاً ناجحاً، وبكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى فمن المحتمل أن يؤدي واجبه بشكل جيد عندما يتعلق الأمر بالعمل التلقائي، ولكن في مثل هذا الوضع الذي يتطلب قدرات أعلى من الضابط الحقيقي فإنه سيفشل في عمله. إذ ربما في رحلة كهذه عبر بلاد فارس سيجد نفسه في خضم صعوبات جمّة، فالفرس هم أكثر الناس حاجة إلى الصبر والحيلة إذا ما أردت إدارتهم والسيطرة عليهم، فهؤلاء الكسالى والماكرون والميالون إلى الاستقلال بإمكانهم أن يوصلوا المسافر إلى حالة من اليأس والإحباط لعمل أي شيء. أما إذا استطاع أن يكسب صداقتهم ويحظى باحترامهم فإن الأمور لن تكون مثبطة للعزيمة، وإذا كان بوسعه أن يطلق النار ويبدي معرفة بالرجال وشؤون الحياة واستعداداً للتغلب على الصعاب واكتساب المعرفة، ويتمتع بذكاء حاد يجعل من الصعب عليهم خداعه أو التحايل عليه، فإن الفرس سيقدمون له العون ويدفعون بالآخرين إلى حافة الجنون. كان على صديقنا أن يعلم شيئاً واحداً منذ البداية ـ وهو درس مفيد في بلاد أخرى غير بلاد فارس ـ وهو إذا ما رغب أن

Twitter: @alqareah

يحصل على شيء فعليه أن يقوم به بنفسه أولاً، وليس ثمة حاجة لأن يكون كفؤاً كي يقوم بهذا العمل بالسرعة المطلوبة من الآخرين أو يقوم بعمله بنفسه من الناحية الفعلية (أن تتعلم كيف تقوم بعمل شيء وتجعل الآخرين يقومون به هو أحد أسرار النجاح)، ولكن عليه أن يعرف على الأقل أسلوب وشكل تحقيقه. دعه، مثلا، يدرس علم تحميل البغل وأن يفعل ذلك بيديه ومن ثم ستكون أوامره معقولة ومقبولة ومحكمة عندما يطلب منهم إنجازاً متقناً لهم.

هل من الممكن أن يضع الناس خلال حياتهم هذه النظرية موضع التطبيق، وأن يدركوا بوساطة هذه الوسائل وأساليب أخرى وفي جميع الأحوال المهمات التي يلقونها على عاتق الآخرين، أنّ العالم في هذه الحالة سيتقدم بقليل من التصادم وبكفاءة أكثر.

وبعد أن قررت اتباع هذه الإرشادات، أخذت على عاتقي أن أقوم بمهمة تحميل البغال، فالفرص المتاحة كثيرة للقيام بذلك وخاصة عند الممرات والمنعطفات وقد أثبتت دراستي بأنها مفيدة، إذ لا يكفي لتعلم كيفية الرزم والتحميل بل لابد أن تدرك أيضا أين تضع كل سلعة في مكانها المناسب والخاص بها. وعندما كنت أقدم يد المساعدة عدة مرات وأبدي اهتماماً ساراً بمثل هذه الأمور، لم أكن قادراً فقط على السيطرة والانتقاد بل حققت صداقات أكثر مع سائقي البغال ووجدتهم على درجة عالية من الطيبة والأمانة، وكما تأمل وتتوقع من أقرانهم الفرس ومن طبقتهم نفسها.

لقد أصبحنا الآن بالقرب من أسفل السلسلة الجبلية، وكانت أرض الصحراء الرملية عبارة عن برية تتناثر عليها شجيرات شوكية تسمى «جوز»، وقد علمت بأن أوراقها تستخدم كصباغ للبدلات العسكرية. وعند وصولنا أيقنت بأن المسير المتواصل على ظهر بغل فارسي قد جعلني أدرك بأن الرجل الذي يمتلك رتلاً بدائياً، ويسير في ظروف غير عادية على أرض مفروشة بالحصى بين الساحل والصحراء، لا بُدَّ أن يشعر بالراحة التامة.

Twitter: @alqareah

وهكذا وبعد أن سرنا على الأقدام وتعثرنا على طول الطريق نظرت إلى حيواني الذي كان هو الآخر يتهادى ببطء ويتعثر في مشيته أيضاً، فلاحظت أن منخريه قد تشققا حيث علمت أن سبب ذلك يعود إلى جعل البغل يتنفس بحرية أكثر عند صعوده المرتفعات. ولكن الحقيقة هي اعتقادي بأن السبب يعزى إلى أن البغل حين يشرب الماء تدخل طفيليات صغيرة داخل منخريه، ولذلك يتشقق المنخران حتى تخرج هذه الطفيليات منهما.

إنّ الرجل الذي يسافر عبر بلد أجنبي كمُشاهد تستهويه صور المتاحف ويتمتع برؤية الطبيعة والإنسان وكأنها مجرد مشاهد وليست مشكلة حية، يفقد الكثير من متعة رحلته. فقد قررت منذ زمن طويل وحيثما حللت في أي بلد من بلدان العالم أن أسعى وبقدر الإمكان لاستيعاب ليس فقط المناظر الطبيعية وإنما لأسبر غور روح البلد أيضاً، ولا يتم تحقيق ذلك إلا بجهد مثابر ومتسم بالجدية أي عن طريق النضال الدؤوب والفهم والتغلب على الإجحاف والتحيز، والتحلي بالصبر تجاه التقاليد الأجنبية ومواصلة العمل لتعلم لغة أهل البلاد، وتحمل مشقة إقامة علاقات ودية حتى تلك العلاقات الطارئة وبذل المساعي للبدء بإقامة حوارات متفرقة وتعزيزها بسلوك يتسم بالصداقة والود، وكذلك اتباع الملاحظة الدقيقة والإدراك السريع والاهتمام الواسع بكل شيء. بهذه الأساليب وبها وحدها يمكن لهدف المسافر أن يتحقق فعلاً، وهكذا وبينما كنا نمشي الهوينا يساعدني صديقي «سيف» قمت بمجهودات أولية في حديث مع سائقي البغال، ومع عابر سبيل صادَف أن كان يسلك الطريق نفسه الذي نسلكه.

بدأت الآن معرفتي بالفُرْس تزداد أكثر، ففي البداية كانت أحاديثهم وأسلوب نقاشهم مزعجة للغريب، وكثيراً ما ينجم عنها سوء فهم، فالفرس الذين تقابلهم على قارعة الطريق يتحدثون بصوت صاخب وكأنهم مشتركون في جدل مثير. إذ يمد الفارسي رأسه حتى يصبح وجهه قريباً من وجهك، ثم يجأر بأعلى صوته

Twitter: @alqareah

وبشكل عدائي كلمات أو ملاحظات مسالمة غير مؤذية، وقد استنتجت بأنه في حالة سائقي البغال يجب أن يرتفع صوتك بدرجة أعلى من رنين الأجراس التي تشير إلى تقدم مسيرة القافلة لعدة أميال، أما نغمات الصوت العادي فلا تسمع إلا من مسافة قدم واحد فقط. ومهما كان السبب، فالنتيجة كانت مؤلمة في البداية، ولكني عندما بدأت أدرك وبسهولة فحوى ملاحظاتهم تكونت لدي صورة ذهنية بأن أولئك المتحدثين معي بودّ كانوا على الدوام يهينونني.

وثمة أمر آخر بدأت أكتشفه في ذلك الوقت وهو أن قول الحقيقة يعد خروجاً على آداب المعاشرة في بلاد فارس. فالمبالغة هي الأدب حتى لدى الدوائر العليا، وكما هو متوقع فقد أدى ذلك إلى الانحطاط وأن الكذب قد أصبح سمة وفخراً عندهم. وحتى في الأمور التي لا تحتاج إلى مراوغة لتحقيق ربح أو فائدة فإن الفارسي لن يتخلى عن المبدأ الوطني في قول الحقيقة المؤلمة والمخزية. لقد كان هذا الأمر مزعجاً في البداية ومثيراً للقلق والإحباط، ولكن بعد فترة من الزمن وبعد أن أدركنا مغزى المرادفات الفارسية أصبحت الأمور والأشياء أكثر يسراً وسهولة لنا.

ومنذ الآن كنت أتمعن في كل حادثة، وخلال محادثتي مع زميلي عابر السبيل الذي اكتشفت بأنه كان مسافراً إلى كازيرون ذكرت له فجأة بأني قد سمعت عن اكتشاف للنفط في المكان الذي كنا فيه في ذلك الوقت، وعلى الفور تملكته حالة من النشوة واندفع يدمدم ويثرثر مع «سيف» بصورة غير لائقة لي. وسألت: ماذا قال؟ أجاب سيف: يقول بأن رجلاً إنكليزياً عاش هنا منذ فترة ليست طويلة وأنه قد أحضر خمسمائة رجل للتنقيب عن النفط. ويقول عشرة آلاف رجل ولكنهم في الحقيقة خمسمائة.

لقد لطّف «سيف» المخلص من ملاحظة الرجل من ناحية اللغة والحقيقة، وبدون أي تعليق منه، وذلك بمساعدة المرادفات الفارسية.

Twitter: @alqareah

لم أكن ضليعاً بمعرفة تاريخ الديانة الفارسية ومن المؤلم أن أعترف بأني لم أكن قد سمعت شيئاً عن ذلك التاريخ حتى تطرقت أحاديثنا إليه وبأن الفرس ينتظرون عودة الإمام الثاني عشر. إنه آخر الأئمة وكان ذات مرة يعيش على الأرض ولكنهم ينتظرونه ليعود مرة أخرى ليحكم بلاد فارس بأسرها، ويقوم بأفعال خارقة وعندها سيستقيم كل شيء وستسير الأمور على ما يرام في العالم وسيكون العصر الألفي السعيد للفُرْس. ومن المحتمل أن هذه العقيدة الدينية تفسر نزوع الفرس لعمل لا شيء، إذ ما فائدة العمل إذا كان الإمام الثاني عشر سيعود وسيقوم بعمل كل شيء مهم؟ يبدو أنه تفسير مقنع. وحتى تلك اللحظة كنت مجبراً على التخيّل بأن الإطار الفارسي للتفكير كان مجرد تأكيد للعاطفة السائدة في الشرق حيث المبدأ الأساسي «كل شيء مقدر لك». وهكذا فإن كل شخص عليه أن ينتظر قدوم الأشياء إليه لا أن يذهب هو إليها.

وهكذا ركبنا حتى صار ضرورياً أن نمشي ومشينا حتى وجدنا من الأفضل أن نركب، وواصلنا المسير حتى اقتربنا من ظاهرة طبيعية غريبة أثارت انتباهنا من خلال رائحة كريهة زكمت أنوفنا، ولا يُعتقد أن رائحة كريهة أمر غريب في بلاد فارس، فهذه هي القاعدة وليس الاستثناء في الأجزاء المتحضرة. ولكنها كانت على درجة من الغرابة والنفاذ وكأنها انبعثت من مستودع فارسي عادي. إذ أن الهيدروجين المشبع بالكبريت والممزوج بالنفط سينجم عنه خاصية واضحة، وبعد أن غمرنا شعور بحب الاستطلاع والامتعاض انتظرنا تفسيراً لهذه الظاهرة الغامضة. وهكذا حصلنا على التفسير بعد لحظات، عندما وصلنا إلى جدول بهي أخضر تجري مياهه فوق أحجار وردية لزجة بين ضفتين متفتتين مائلتين إلى اللون الأبيض المشوب بالاصفرار. وعندما غمست يدي فيه وجدت الماء دافئاً، ورغم الرائحة المفزعة المنبعثة منه تتبعنا الجدول إلى منبعه حيث وجدنا بعض البحيرات ذات الماء الممزوج بالكبريت يتدفق من الطين الأخضر الممزوج بمادة رسوبية بلورية.

Twitter: @alqareah

ولم أستطع في تلك اللحظة أن أقاوم ميلاً عارماً انتابني كي التقط صورة، ولكن «سيف» وجد متعته فيه إذ نزع ملابسه واستحم بالماء الذي كان يغلي وقال إنه يشعر بالحيوية والانتعاش. وعندما عدنا أدراجنا فرحين لتناقص قوة الرائحة، لاحظت كتلاً من القار تتمايل أسفل التيار. هناك نفط بدون أدنى شك ولكن لم يتمكن أحد من محاولة اكتشافه.

وثمة جدول آخر ولكن رائحة الكبريت المنبعثة منه أقل ورائحة النفط أكثر، حيث كان يتدفق تحت الصخور إلى مسافة أبعد وهنا جرت محاولات في الماضي لتحديد مستودع النفط الموجود تحت الأرض. ففي يوم ما ربما يحالف الحظ رجلاً سعيداً فيكتشفه ليصبح ثرياً ولكنه عمل تأملي محفوف بالمخاطر، إذ على بعد بوصات قليلة من جهة اليمين أو اليسار قد يفتح القدر لك أبوابه فإما أن تكون فقيراً معدماً أو مليونيراً. وعلاوة على ذلك، من المحتمل أنّ النفط ممزوج بالينابيع الحارة المتدفقة من الصخور وفي مثل هذه الحالة ليس للإنسان قدرة على الاستفادة منها.

وعلى أية حال فقد تراءى للآخرين قبلي، مع أني لم أكن واثقاً من الفكرة، بأن الديانة القديمة للفرس والمتمثلة بعبادة النار ربما كان لها اتصال وثيق بمستودعات النفط الكائنة في أجزاء متباينة من منطقة الشرق الأدنى. وثمة أمور مختلفة تميل لتأكيد هذه النظرية. ففي مدينة باكو على بحر قزوين شاهدت ينابيع تقذف النفط في الهواء، ثم يجري هزيلاً رقيقاً أسودَ في الجداول. وتجدر الإشارة إلى إنني بينما كنت ذات مرة في كندا جالساً في النادي في «كالجاري» قريباً من الجبال الصخرية، سمعت قصة شبه مؤكدة من رجل فظ عن أحد الرواد الذي كان قد جاب تلك البلاد ذات الاحتمالات الغامضة والواقعة في أقصى الشمال الغربي من كندا، حيث قال بأنه قد سمع هديراً غريباً كهدير شلال بعيد من الماء، وعندما دنا أكثر ظهر بأنه ناجم عن نار وليس عن الماء. كان ينبوعاً من اللهب والدخان، عموداً من الغيوم في النهار وناراً في الليل تنطلق في

Twitter: @alqareah

الهواء مصحوبة بصوت رعدي يمكن سماعه على بعد عدة أميال. كيف بوسع المرء أن يدرك كنهه، ولكنه موجود ولعدة سنوات.

أليس بالإمكان وإلى حد ما أن مثل هذه الظاهرة قد تؤدي، وخاصة في الوقت الذي كان فيه الإنسان يتعجب أكثر ويعرف أقل، إلى سبب حدوث المعجزة الأولى للنار الأبدية ومن هذه البداية ظهرت وانتشرت عبادة إله اللهب الأبدي. ويبدو هذا أكثر قبولاً في تفسير ظاهرة المركز الأعلى لعبادة النار، والتي منه أخذت الأضرحة الأخرى قدسيتها.

يقول الدكتور فراير في صحيفته عن النار المقدسة: إذا أتيحت لهم الفرصة للسفر فعليهم أن يحجوا إلى «كارمانيا» حيث لا تنطفئ النار المقدسة أبداً. وكأنها دائرة الشر المستطير المتجددة دوماً، وكأنها منبعثة من الشمس منذ ساعة شروقها أو هي متعلقة بلهبها وأشعتها المترامية، ولكن الأشعة ليست ذات أهمية بحد ذاتها. ففي أحد الأيام وبينما كنت في «كيرمان» قررت أن أشاهد النار ولكنهم رفضوا السماح لي وأخافوني من هذه المخاطرة، ففي وقت من الأوقات وعندما تحدى خان كيرمان النار ولم ينفِّذ وعده لزوجته أحرقوه فيها، ولكن من يستجيب لقَسَمه بالنار ويفي بوعوده لها يستحيل إلى حمامة بيضاء لا تمسه بسوء.

من المحتمل أن نظريتي لا قيمة لها، ولكن ربما تكون ذات شأن لأولئك المتطلعين إلى المستقبل والطامحين بالثروة أن يلقوا نظرات فاحصة على تلك البقع المتناثرة هنا وهناك، والتي تقول التقاليد بأن عبدة اللهب المقدس للنار قد تواجدوا فيها.

وعلى كل حال لا تتوافر تفسيرات أكيدة عن عبادات النار البدائية، فالشمس هي بكل تأكيد المانحة للدفء والراحة، والقوة التي تجعل الأعشاب تنبعث من الأرض والأزهار تنطلق إلى براعم، وهي القوة التي تمثل كل ما هو بهيج ومفيد للعقل البدائي. ومن المؤكد أن الشمس هي أكثر الأشياء وضوحاً للعبادة للإنسان

Twitter: @alqareah

المتوحش الذي يعرف النزر اليسير من العلم والذي يستيقظ خياله من سباته.

إن التأمل في مثل هذه الأمور الدنيوية والفلسفية دفعني إلى الابتعاد عن تلك الخواطر الطبيعية الغريبة التي انغمست فيها في تلك المنطقة، واكتشفت أن فرسي لديها رغبة جامحة للخروج من تلك المنطقة ذات الرائحة المفزعة وأن لديها الاستعداد للحركة السريعة بدلاً من السير البطيء. وعندما وصلت الشمس أوجها في كبد السماء، اتجهنا إلى بساتين النخيل في «داليكي» حيث ازدادت خطوات الفرس وهي تخب إلى المكان.

تقع الواحة الصغيرة الخضراء على مقربة من أسفل الحائط الجبلي الكبير، وكانت الطبيعة تتسم بالوفرة والغزارة في هذا المكان الغريب، ويبدو أنها أخرجت صندوقاً من الألوان لتلون مشهداً فخماً ولتنشر ألوانها الزاهية هنا وهناك بين التلال وفوق السهول حيث تمتد الحواف الكبريتية الصفراء قبالة التلال الخضراء الباهتة، وخلفها يمتد منظر وردي يتميز بقمم بعيدة ومترامية، والأنهار الخضراء أو المصبوغة باللون الأبيض والأصفر تتناثر فيها أعشاب متسلقة تغطي كل الممرات مثل مظلة مزخرفة أو قبة زاهية في سماء الشرق الأزرق المظلم. هنا تشوش كامل في الألوان، إنها شيء آخر، إنها إعلان، لأن الطبيعة لا تلون بدون سبب وهناك الكثير كامن في هذا، وأكثر من كونه تأثيراً لونياً فارغاً. وكما يشير لوتي وهو يهبط لمرة واحدة من قمة الخيال البهيج إلى سهل الحقيقة الواقعي: كنت أسبح في بحر الخيال وأنا أتمتع بمباهج الدنيا المتداخلة، ثم صحوت من حلم جميل على واقع أليم.

إن المغامرة التي يمكن أن تتحدى المناخ وتتغلب على عدم رغبة الفرس في العمل هي بدون شك محاولة استخدام الموارد الطبيعية الغنية وبطريقة متميزة. ولكن ومع الأسف إن الذي يغامر لتطوير الإمكانيات غير المستثمرة لبلاد فارس سيواجه مصاعب جمّة. يحكى أنه في زمن عظمة الأمة كان الفرس نشيطين ومجدين.

Twitter: @alqareah

ولكن الحقيقة هي أن الأرض في ذلك الزمن كانت منتجة ووفيرة العطاء، وهي كافية لأن يكونوا كذلك، إلا أن الفارسي اليوم يفضل أن يرى الأرض تمحل وبلده يضمحل طالما أنه قادر على العيش وهو عاطل، ويتجنب مغبة الوقوع في مشاكل استثمار إمكانيات بلاده وبناء ثرواتها.

فهنا في مدينة داليكي مثال على ذلك ظاهر للعيان حيث يجري نهر أسفل الوادي وعليه تنحدر الشمس، توجهت إليه واغتسلت بمياهه الباردة كالثلج وفي أعماقه كانت تسبح أسماك كبيرة لا يعكر حركتها تطفل الصيادين. وكانت القناة التي ينساب فيها الماء برقة تخترق حقولاً غير محروثة وأرضاً جرداء، وعندما فكرت في سهول الهند الشاسعة والمغبرة والتي كانت الثيران العديدة والنشطة تجر إليها الماء بصبر وأناة وبكميات قليلة من تجاويف الأرض، وبموآزرة ورعاية ملايين الرجال الذين كانوا يحرصون على الاستفادة من كل قطرة ماء، شعرت بالامتعاض وانتابني إحساس بالمرارة ضد شعب كسول يهمل ثروات يتوق الآخرون لها. فثمة شعب يسوده فقر مدقع، وبلاد مهملة، والمياه الثمينة تتهادى وتنساب بتثاقل لا يستفيد منها أحد، إنه أمر محزن حقاً، فالمادة متوافرة، ولكن العقل كان نائماً. فهل يستيقظ العقل يوماً ما؟

وهناك خلف المدينة صوب التلال الشرقية، اكتشفت أثناء مطاردتي لحجل في تلك الأرجاء ينبوعاً كان يصب ماءه منذ أمد بعيد في جدول أكبر يخترق القرية إلى الوادي، حيث تستخدم موارده الدائمة لتشغيل طاحونة واحدة وريِ قطعة صغيرة من الأرض المزروعة حتى نصفها. ويستغرب المرء لأن جريان الماء بين الضفاف لا يحدث صوتاً وأن التربة المكسوة بالعشب والمحاذية لتلك الضفاف لا تستثير انتباه الفلاح الكسول العاطل عن العمل إلى هذه الثروة المهدورة، لقد كانت ضفافاً مكسوة بالعشب. فالمرء الذي يعيش في بلاد تتشقق أرضها ويستحيل عشبها إلى اللون الأصفر ويذبل ويموت، بوسعه أن يدرك الفرصة الغامرة لرؤيته

Twitter: @alqareah

مربعاً من أقدام قليلة لمرج إنكليزي أخضر وسماعه موسيقى انسياب المياه في الجدول. وقفت ساكناً ونظرت إليه ملياً ثم دست عليه برقة وكأنني أدوس على سجادة، حتى إنني انحنيت عليه وربّت عليه بيدي إذ لم أشاهد مرجاً منذ عدة أشهر، وبعد ذلك شربت من الجدول رغم إنني لم أكن في حقيقة الأمر عطشاناً، ولكن فرصة الشرب من الماء الجاري كانت مغرية ولا تعوض. يبدو هذا الأمر مضحكاً بالنسبة للأذن الإنكليزية ولكن يبدو الشيء ذو قيمة عندما نفتقده، كما ندرك تدريجياً أن كثيراً من الأشياء التي نقبلها بدون وعي وبدون امتنان كل يوم من حياتنا هي من الناحية العملية كنوز ثمينة مجهولة إلى العديد من الأموات التعساء.

لم أطلق النار على الحجل الذي اختفى بين الجبال وفي عتمة الغسق، ولكن مكافأتي تجلت في مشاهدة منظر السهل الفسيح كالبحر الممتد أمامي والتمتع ببهائه وروعته، والذي أخذ يتلاشى ببهوت ويذوب في البحر الحقيقي حيث غربت فيه أشعة الشمس الحمراء.

امتدت داليكي أسفلنا تكسوها حلة زرقاء، وفي ميدانها المعتم أسدل الخيط الفضي لنهري المحبوب.

Twitter: @alqareah

4

الممرات الجبلية (كوتاك)

«تسلقت حافة الجبل ورأيت من أعلى قمته العالم الممتد،
حقول الحنطة والغابة ؟ النهر يجري بين المراعي
مستقيماً كهدب في السماء، والبحر الهائج بأمواجه الرغوية
والسفن الكبيرة تمخر فيه. ثم لم أفكر ولكن قلبي اهتز
عندما لفحتني الريح فركضت وركضت، أحسست
بسيقاني تحتي وشعرت بالهواء يصدني ويضربني على
خدودي، أشرقت الشمس وانسل النحل بقربي محدثاً
طنيناً رقيقاً مما دفعني إلى الغناء أيضا ثم صرخت: أيها
العالم. أيها العالم إني قادم».

موريس هيوارت
بان (إله المراعي) والراعي الصغير

قضينا ليلتنا في القرية الصغيرة القريبة من الجبال وفي اليوم التالي لاحت الممرات الجبلية. نهضنا عند انبلاج الخطوط الأولى للفجر وبعد أن خفتت أضواء المصابيح وبعد أن ترددت أصوات هجينة مبهمة صاحبت تحميل البغال، هبطت من مكاني مبكراً وراقبت الصخب العام (أو ما كان قريباً من تسميته هرج ومرج أي ما يمكن تحريض الفارسي للقيام به). وبعد مسيرنا مسافة قصيرة

Twitter: @alqareah

استدرنا إلى الشمال الشرقي نحو التلال وصعدنا المرتفعات الشامخة الأولى التي تؤدي إلى السهول الواسعة المرتفعة لبلاد فارس الأصلية.

ليس الممر الجبلي شيئاً مستحباً يمكن مصادفته أو الموافقة على صعوده في رحلة، ولكن الهستيريا التي أثارها الكُتّاب المحدثون والقدماء حول هذه الممرات الجبلية، والفزع والرعب والأمور المرعبة التي وصفوها والمخاطر التي تعرضوا لها، مُبالغ فيها ولا أساساً واقعياً لها. ولكن مما لا شك فيه أن هذه الممرات التي لا يمكن وصفها، والتي تشكل عند ارتفاعها حوافاً جرفية من الصعب الوصول إليها أو تسلقها مما جعلها مدعاة للذم والقدح. تخيل قناة مائية جافة وعرة مملوءة بالنفايات والأحجار ذات أشكال وأحجام مختلفة تصعد بشكل متعرج حواف منحدر عمودي، ففي بعض الأحيان تشق هذه القناة المائية طريقها وسط البرية وتكّون حدوداً ضخمة ثم ترتفع وتتعرج بصورة غامضة وغير محددة وفق توجيه قوى الطبيعة لها. وبعد ذلك، يمتد الطريق تحت جرف شاهق الارتفاع، وفي الأسفل على اليمين ثمة منحدر شديد الانحدار يؤدي إلى هوة سحيقة يقابله من الطرف الآخر جرف حاد آخر تشقه خطوط دائرية وفيه إلتواء كبير من فعل عناصر طبيعية عظمى. لايوجد نبات ولا شيء أخضر على الإطلاق ولا حياة من أي نوع، ويبدو المكان وكأنه في بداية التكوين وأن الممر هو نتاج الطبيعة وليس الإنسان.

وفي خضم هذه البرية الجرداء المروعة تجولنا وهِمْنَا على وجوهنا تظللنا القمم الخشنة، ونتقدم ببطء وتثاقل فوق الجروف الوعرة، حتى الحيوانات التي كنا نمتطيها ونشكل عبئاً ثقيلاً عليها كانت تتقدم بتمايل وغثيان فوق الممرات الصخرية. وكانت الحيوانات البائسة الأخرى تترنح تحت الرزم المكدسة فوق ظهورها، والتي كثيراً ما تثير الشفقة حينما تصطدم بحواف

Twitter: @alqareah

الممر، وبين حين وآخر يسقط واحد منها خائراً لاهثاً حتى يأتيه سائق البغال ليرفعه على رجليه مرة أخرى.

يبدو أن الفُرس ينظرون إلى الحيوانات على أنها مجرد وسيلة للراحة قدّر الله حسن استعمالها أو إساءة استعمالها من قِبل الإنسان. لا أعتقد بأن هذه الخاصية يمكن اعتبارها رذيلة، فهم لا يدركون بأن ثمة وجهة نظر أخرى، يقولون بأن الحيوان هو وسيلة للنقل وأداة للسحب ولذلك فهم يعاملونه على أساس أنه وسيلة نقل وأداة سحب فقط. فإذا ما تعطل المحرك البخاري، لا نشفق عليه ولكننا وبكل بساطة نتضايق، وهذا بالضبط ما يحدث للفارسي مع حيوانه الأبكم.

المطلوب هو إحداث تغيير في الإحساس الأخلاقي للشعب.

ففي بلاد فارس، على أية حال، وكما في بلاد أخرى، يتسم الفرد مع الأسف الشديد بالعجز تجاه الإحساس بالأمة، ومهما استاء أو احتجَ وما دامت الإنسانية ثابتة في موقفها العام فإنه يُعد مجذوباً يتعرض للسخرية الناجمة عن الاهتمام أو العاطفة تجاه تلك الأمور.

إنه لأمر مفزع ومحزن أن يكون هذا الاستخفاف بالرحمة بالحيوان الأبكم، حتى أن المسافرين القساة القلوب يرتجفون من هول ما يشاهدونه.

لقد دونت بعض الملاحظات عن الوسائل الخشنة التي يستخدمها سائقو البغال حتى يصلوا بقوافلهم إلى نهاياتها، إنه على العموم عمل وحشي.

هناك العديد من الوسائل التي تجعل البغل العنيد يجر أطرافه والحمل الثقيل بشكل أسرع سواء في الممرات الجبلية أو عبر الصحراء، وهي عموماً تشكيلة من العصي والركلات والوخز بآلات حادة، ولكن الوسيلة الأكثر شيوعاً وتأثيراً هي: يربط سائق البغل إبرة الترزيم الحادة بحبل متين حتى لا يفقدها أثناء الطريق،

Twitter: @alqareah

ويبحث عن مكان حساس على نحو موجع في جسم الحيوان، وهذا الأمر ليس صعباً اكتشافه. وإذا ما تمكن الحيوان المسكين من التخلص من هذا أو أن مثل هذا المكان الموجع لا يوجد في جسمه ففي هذه الحالة يقوم السائق بإحداث بقعة مؤلمة ويدخل الإبرة بحدة فيها، حيث يمثل ذلك تأثيراً مضاعفاً يدفع الحيوان كي يغذ السير، وفي الوقت ذاته يحافظ على البقعة الحساسة كي يستعملها مرات أخرى. وإذا ما انهار البغل وخرّ على الأرض من ثقل الحمولة على ظهره أثناء صعوده الممر الجبلي المغطى بالثلوج، فإنَّ سائق البغل سيمتشق سكيناً كبيراً ويطعن الحيوان طعنات حادة ومؤلمة في ذراعه، وإذا ما أخفق في ذلك، فإنه سيفرغ الحمولة ويعيد الكرة عدة مرات، وإذا ما باءت هذه المحاولة بالفشل أيضا فإن الحيوان الخائر سيُترك حتى يموت وتوزع حمولته على رفاقه المحظوظين أو التعساء.

ليس من التقاليد قتل الحيوان عديم النفع والفائدة، ولكنه يُترك كي يُلاقي مصيره المحتوم، وقد يقوم سائقه ومن باب الشفقة بوضع قليل من التبن أمامه حتى يموت مرتاحاً حسب ما يتخيله السائق.

لا يكترث الفارسي لمعاناة الحيوان الأبكم، وعلى المسافر أن يدع عاطفته جانباً عند رؤيته حيواناً بائساً يموت من الجوع على قارعة الطريق، إذ من المحتمل أن يظهر رجل فجأة من مكان ما في الجوار ليؤكد بأنه مالك الحيوان. ومن الصعب أن يُدحض ادعاؤه إذا ما واصل شكواه بأنك قد قضيت على جزء ثمين من أملاكه، ويطالبك بإلحاح بتقديم التعويض له، وبالتالي فإن عليك والأمر كذلك أن تدفع له التعويض المناسب. وفي بعض الحالات، على أية حال، يكون الفعل مساوياً للثمن.

وكما قلت، ما يقدمه الفرد للإنسانية لا يكاد يُذكر، والمسافر الذي يحتج سيُتهم بالجنون ولن تُخدم بغاله بصورة جيدة. ولكن إذا ما قرّر المسافر أن يبذل جهداً ضئيلاً لإظهار امتعاضه والاشمئزاز الذي يشعر به، ويجعل الفارسي يدرك بأن الأجناس البشرية البيضاء

Twitter: @alqareah

تكُن الاحترام ولديها مبدأ أخلاقي يعتبر القسوة غير جديرة بالإنسان، فإنه بمرور الوقت يمكن تحقيق شيئ تجاه وضع أفضل للأمور والأحوال العامة.

الممرات الجبلية أربعة أنواع: كوتالي مالو أي الممر الملعون، كوتالي كومارج وكوتالي دو ختر أي ممر الابنة، وكوتالي بيريزان أي ممر المرأة العجوز. لا أحد يختلف على الاسم الأول كما أن ممر المرأة العجوز يُعد تسمية ملائمة، وكما لاحظ اللورد كورزون «بالنسبة لمكان موحش ممقوت أكل الدهر عليه وشرب». أمَّا كومارج فهو اسم مكان وقد سُمِّي الممر باسمه، ولكن عندما نأتي إلى ممر «الابنة» وهو أسوأ الممرات كلها نجد اعتراضاً واحتجاجاً عليه. فالتفسير لهذا العنوان غير السديد وغير الملائم يتضح من أن المرأة الشابة الخجولة لا يمكنها الامتعاض من التقدم بثبات إلا في هذا الممر البغيض.

يتمكن المسافر من الصعود في هذه الممرات خلال أيام مختلفة ولكن إعطاء وصف شامل لكل واحد منها يُعد أمراً مملاً، ويكفي أن نقول بأنها جميعاً تتشابه فيما بينها بخصوص المصاعب البغيضة، ولكن الممر الأخير أكثرها رداءة ومقتاً مهما كان السبيل الذي قد يسلكه المسافر.

عودة أخرى إلى قافلتي الصغيرة التي بدأت مسيرها من خلال الممر الأول «الممر الملعون»، وكان أول صعودنا إلى منحدر غير مؤذٍ يبلغ ارتفاعُه 30 درجة حيث سقط فيه فرسي مرة واحدة ثم نهض وأخذ يتمايل فوق الصخور والأحجار بين سلاسل خشنة حادة كأنها سكاكين ضخمة، حتى وصلنا فجأة مرة أخرى إلى صديقي «نهر داليكي». يا للأسف، لم يكن لدينا مزيد من الوقت حتى نشبع رغبتنا في الاستحمام في تلك المنطقة الخلابة، ولكن رشفة ماء منه ـ وكما قال بيير لوتي الرومانسي ـ تكفي لشفاء العليل ثم تابعنا مسيرنا.

لقد أصبح الممر الآن فوقنا وبكل ما يكتنزه من لعنات، وبالرغم

Twitter: @alqareah

من عدم خبرتي العقلية إلا أنه يستحق المزيد من القدح وكل النعوت الذميمة. وكان الممر فوقنا والذي تسلقته البغال قد أدَّى إلى اتساع جروحها بين الصخور، مما أدى إلى اهتزاز وانفلات الرزم وحدوث لغط واهتياج من الجميع.

وبعد برهة برز أمام أعيننا طريق متعرج من البناء الحجري يحاذي في ارتفاعه الحافة الجرفية المميزة ـ لقد كان في الواقع يشبه طريقاً من صنع الإنسان ـ ولكن من خصائص الأشياء الفارسية أنّ هذا الصرح الرائع كان مجرد مظهر خادع، لأن الطبيعة في هذا الطريق تمنع وتعيق المرور فيه، فهو مكون من حجارة كبيرة زَلِقة وتصل أطوال حوافها إلى ثلاثة أقدام. ولذلك لابد لأي مجهود يُبذل في أي عمل هندسي يائس أن ينتهي بكارثة بالنسبة للبغال إذا ما واصلت تخبطها العشوائي في هذا الطريق المروع والمؤلم، ولذلك قمت أنا وسيف بالصعود بصورة انفرادية.

وأخيراً وبعد جهد جهيد وصلنا إلى القمة وأشرفنا على سهل مستوٍ فسيح يقع في منتصف الطريق المؤدي إلى مركز استراحة القوافل في قرية «خونار تخته». توقفنا على القمة والعرق يتصبب من أجسامنا وأخذنا نسرح بأبصارنا نحو العالم الممتد تحتنا، وتجمعت قافلتنا الصغيرة لالتقاط الأنفاس لفترة وجيزة. كان هناك مستودع لماء المطر وكأنه قبو يُخزن فيه الماء البارد، وحينما كنت أنا والأفغاني نشرب ونشكر الله على وصولنا إلى الأرض المنبسطة ويغمرنا حماس لا يدركه أو يحس به إلا أولئك الذين تملكهم الإحساس نفسه عند صعودهم ممراً جبلياً آنذاك عمّ السرور أفراد القافلة، وأخذوا يهبطون الدرجات للتمتع بمنظر الماء تحت السقف المقوس، وكانت فرصتهم كبيرة وساد الاهتياج الجميع وهم يقذفون الماء هنا وهناك وفي كل الاتجاهات الخيالية.

لقد كان السهل الصغير الذي وطئته أقدامنا الجزء المنبسط من المرحلة الأولى المؤدية إلى بلاد فارس الحقيقية. فالبلاد هنا جرداء كالعادة، والأكاذيب الملفّقة لا تنسب إلى الطبيعة بل إلى الإنسان، لأن

Twitter: @alqareah

هناك جدولاً يخترق القرية وينساب بدون هدف ودون الاستفادة منه كما لا ينفع الإنسان.

القرية نفسها رائعة المنظر وهي لا تتعدى كونها مكاناً صغيراً قذراً تقع وسط بساتين من شجر النخيل، ويبرز منها قبر شاخص للعيان وهو لأحد أشقاء الإمام الرضا أو ما يسمون بالملالي والذين تنسب أسرهم إلى الأئمة والذين يحظون بتقدير متميز، ويتوجب دفنهم في عدة أماكن متفرقة وفق ما تسمح به السذاجة الفارسية.

وفي اليوم التالي واجهنا ممر جبلي آخر وهو ممر «كومارج»، وعندما اقتربنا من هذه العقبة الثانية ظهر لنا على جانب الطريق أكوام لا حصر لها من الحجارة كتلك التي يشاهدها الإنكليز في حالة إصلاح أو ترميم الطرق. والآن حتى الذي يمتلك أدنى معرفة ببلاد فارس لا يمكنه تصور أن السكان يقومون بعمليات إصلاح أو ترميم أو حتى إنشاء طريق، وعلاوة على ذلك لقد كان حجم الأحجار كبيراً لدرجة لا يمكن لأحد أن يصدق إمكانية استخدامها لهذا الغرض. ولذلك استفسرت من «مشهدي كامبا» الرجل الضخم الجثة الذي كان مساعداً لسائق البغل عن معنى وجود هذه الأكداس من الحجارة. اكتشفت بأنها ركام من حجارة تنصب للذكرى أقامه الحجاج الذين يسافرون إلى الأضرحة المقدسة المختلفة، وهي الزيارة التي تمثل الخطوة الأولى إلى السلم المؤدي إلى إله المسلمين وتمنح الحاج فرصة أن يسبق اسمه بلقب مشهدي - حاج ...إلخ. كما جرت العادة عندهم حيث كان كل رجل يساهم بوضع حجر في كوم من الحجارة ووفق ما يدفعه خياله، وهكذا انتصبت على طول طريق الحجاج تلك النصب التذكارية لتُمثل أولئك المارة المجهولين.

لقد كان منظر صعود ممر كومارج رائعاً إذ على أحد جانبي الهوّة الكبيرة يتلوى الممر بصورة متعرجة إلى الأعلى أما الجانب الآخر فقد كان جرفاً حاداً شكلته الطبيعة على شكل قواطع عمودية مستقيمة أسفل سطح الصخرة، وإلى الخلف برز جبل في طور

Twitter: @alqareah

النشوء وهو فخم في عزلته الكئيبة، وعند منتصف المسافة إلى الأعلى انشق ينبوع صغير يضخ الماء بخفة من جدار الصخور تكفي لإرواء ظمأ المسافرين بجرعات من الماء البارد جداً.

بعد أن تسلقنا بحيوية متجددة إلى القمة وصلنا إلى «بيت الحارس» لجبل «كاشجاي» حيث خرج إلينا رجال سُمر البشرة يحملون بنادقهم وقدموا لنا أقداحاً من الشاي. فالفارسي عادة يشرب الشاي بدون حليب، ولكنه يعوضه بزيادة كمية السكر في الكوب والذي يجعل منه أشبه بشراب ذي مذاق خاص وليس كالشراب الذي نعرفه في إنكلترا.

وفي مثل هذه المناسبة وكما أشرت، عندما يقابل المسافر فارسياً مؤدباً يقدم له كوباً من الشاي، ستعتريه الدهشة ويغمره العرفان بالجميل لهذا الاهتمام المقصود. ولكن عليه أن يدرك بأن الفارسي لا يبغي من وراء ذلك الشكر والعرفان ولكنه يتطلع إلى النقود. فهذا الأدب الجم هو في الحقيقة عمل مؤكد وعليه أن يدرك ذلك منذ البداية وإلا فإنه وفي ظل ظروف استثنائية سيقع تحت طائلة المبدأ القائل: قدم لا شيء من أجل لا شيء، ومن العدل أن نشير إلى أن هذا الأدب يمثل في الواقع فضيلة فارسية وعندما لا تكلف المانح شيئاً لا يتوقع شيئاً في المقابل.

وإذا ما نجم عنها، على أية حال، تضحية مادية فإن تعويضاً مادياً يصبح ضرورياً، وحيث إن الفارسي على درجة عالية من الذكاء تؤهله لمعرفة أن كوباً من الشاي يقدمه بامتعاض وهمي في عملية مقايضة خسيسة يساوي اثنين وفق المبادئ التجارية. لقد تعلم الدرس بأنه إذا ما قذفت خبزك في الماء فإنه على الأغلب سيعود إليك ثانية محشواً باللحم، وهو في الواقع يتوقع ذلك. وتجدر الإشارة إلى أن المجاملة تعتبر سلعة تجارية في بلاد فارس، وفي أحيان كثيرة تمثل ضريبة فوق الثمن العادي للأشياء. ومن خلال التجربة، على كل حال، يمكن أن تدفع للفارسي بالعملة نفسها التي

Twitter: @alqareah

يتعامل بها. فهو يفضل النقود، ولكن إذا أبديت له مجاملة مقابل مجاملة فإنه لن يتذمر. وهكذا فإن كوباً من الشاي إضافة إلى رغبة صادقة بأن الله سيرعاك ويحفظك بصحة جيدة سيحصل من جرائها على ثمن كوبين من الشاي أو ثمن كوب واحد مع كلام رقيق وتمنيات بالخير إلى مقدم الشاي. وإذا ما قدمت إليك برتقالة فجة غير قابلة للأكل، وكما هي العادة الفارسية، مقرونة ببعض الملاحظات والتعبيرات حول نبل أخلاقك وسمو شخصيتك فمن الممكن أن تشتريها ببنس على أكثر تقدير، وما دمت لم تكلف مقدمها شيئاً فإنه قد يكتفي بالحصول على دعاء إلى الله أن يحفظ زارع البرتقال ويصونه. ومن الأفضل لعابر السبيل غير الماهر أن يكون حذراً في جميع الأحوال حتى يتعلم السبل المتنوعة التي ينظر من خلالها إلى العرفان والأدب لمثل هذه الفضائل في بلاد فارس والقيمة الحقيقية والمؤكدة التي يتحلون بها، وإلا سيجد نفسه يشرب الشاي ويأكل البرتقال المر حتى تعتل صحته ويوزع هبات لا داعي لها. الأمر الذي سيجعله يبدد ثروته إضافة إلى خطورة الأمر بالنسبة له، وإفساد السوق لمن سيأتي بعده. إذن عليه ألا يرتعب أو يخاف، فلن يحس الفارسي بالإهانة عند رفضه الرقة المجانية. فهذه الرقة المجانية هي مجرد مضاربة ولن يتخلى عنها وهذا كل ما في الأمر.

ولذلك ابتسمت بأدب عند تقديم كوب الشاي لي وقلت: إنّ كرمك عظيم، ومن ثم بادلني الجندي الذي قدم لي الشاي ابتسامة أخرى «الله يحميك (خودا حافظ)».

ثمة أمر مؤكد، مهما احتال الفارسي الماكر على المسافر فعليه أن يبتهج لمجاملته وحسن معاشرته إذ أن عملية التمويه تخفف الكثير من بذاءتها إذا ما جرت بشكل مرح.

على قمة ممر كومارج لاح لنا من خلف جرف شديد الانحدار كتلةٌ متراصة من أكواخ طينية وبنايتان من الحجر وعدد ضئيل من

Twitter: @alqareah

أشجار النخيل. هنا يوجد «المسرح» العادي ولكني صممت على المضي بقدر ما أستطيع لأني قررت في الغد أن أزور «شاهبور»، وهي الأثر الأول من الماضي والتي أُتيحت لي الفرصة لمشاهدتها خلال رحلاتي.

لقد نصح اللورد كورزون عند عودته من الخليج، المسافر الذي يرغب قضاء يوم بين هذه الآثار أن يرتاح ليلا في كومارج وأن يبدأ من هناك في ساعة مبكرة من الصباح حتى يقضي النهار بأكمله في شاهبور، حيث لا تتوافر وسائل المبيت والراحة ولكي يصل إلى كازيرون عند حلول الليل. بالنسبة لي سيكون النهار وقتاً ضيقاً لمشاهدة الآثار، وسينجم عن ذلك تأخر وصولنا إلى كازيرون وأن العمل برمته لن يكون مرضياً. وعندما كنت في المنطقة سجلت ملاحظة عن كيفية تنظيم زيارة إلى المدينة الأثرية القديمة، وسأذكر هنا ما كتبته حينئذ: «ننطلق من كومارج ونشق طريقنا عبر السهل الطويل مخترقين الممر الحجري (تانكي توركان)، ونهبط المنحدر المكسو بالصخور والجلمود والبلّور الصخري وكل العوائق الجيولوجية إلى سهل كازيرون. وهناك حيث الطريق تتجه إلى الشرق، سترى أسفل منك، وبمجرد أن تمر بجوار قلعة مستديرة خربة، نهراً يجري عبر الوادي تحتها، وخلف التل الذي اجتزته توجد قرية صغيرة جذابة ـ لم يكن لدينا بيض ـ وإذا ما هبطت باستقامة إلى النهر في الأسفل وعسكرت بالقرب منه فلن تكون بحاجة إلى الماء، وبالإضافة إلى ذلك ستكون على مقربة من القرية الصغيرة للحصول بسهولة على كل اللوازم والاحتياجات وسنكون في ذات الوقت بعيدين وفي منأى عن مضايقات السكان المحليين». لذا نصبت خيمتي بالقرب من النهر وقمت بكتابة هذه الكلمات، ومن ثم بدأت مبكراً واقترحت أن نقوم في اليوم التالي بزيارة الآثار والتي تقع على بعد ستة أميال. سأرسل أمتعتي مباشرة إلى كازيرون الواقعة على بعد اثني عشر ميلاً حيث أتطلع إلى إراحة وإمتاع قافلتي عند حلول الليل.

Twitter: @alqareah

إذا لم تكن لدى المسافر وسائل لإقامة المعسكر، فإنه بالتأكيد سيحصل على كل ما يؤمن راحته وإقامته في القرية الصغيرة القريبة من مكان معسكرنا.

جرت عادتي أن أحسب الوقت منذ وصولي بعد فترة المسير (أحيانا في وقت متأخر من الليل) لإعداد وجبة الطعام بشكل شهي والقيام بتسجيل ما مر بنا من أحداث في مذكراتي الخاصة أو كتابة رسالة أملاً بإرسالها في يوم ما. فالطريقة الوحيدة لحفظ كل شيء عن الرحلة الطويلة هي أن تدون كل صغيرة وكبيرة ثم تقوم بترتيبها بعد ذلك حسب أهميتها وتسلسل حدوثها، بحيث لا تغفل شاردة أو واردة منها حتى أمور الطهي، وكما وردت في المقتطف الآتي: «أثناء الرحلة ثمة وسيلة جيدة لالتهام الرز والبهارات وذلك بعمل كعك الرز. بوسعك استعمال كمية كافية من الرز (المغلي طبعاً) لصنع كعكتين، ثم خذ بيضة واخفقها جيداً وامزجها بالرز وحركها بخفة، وإذا لم يتماسك الرز أضف بيضة أخرى حتى يتم تماسكه، ثم ادهن المقلاة بالدهن واسكب الرز فيه على شكل دائرتين ولا تفرغهما في القالب. ثم دعه يُقلى جيداً بحيث يُمكن قلب الكعك بالسكين ويُترك حتى يصبح لونه رمادياً ومذاقه لذيذاً. أخشى ألا تكون طريقة الطهي مماثلة لتلك المستخدمة في صحيفة التدبير المنزلي (هاوس هولد) ومع ذلك فهي على درجة من الوضوح تكفي لصنع كعك الرز الذي هو موضوعنا».

إن عملية تدبير منزلي هي أمر موزع بين الجميع، كل فرد يقدم اقتراحاته ومساهماته حتى «ستمبس» الذي كان يقوم بتنظيف الصحون.

أتمنى أن يكون الدجاج قد تم طبخه وأصبح جاهزاً ومُعداً لتناوله ـ أود أن أركن إلى فراشي حتى أشعر بالدفء ـ آه هاأنذا في فراشي.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

5

زيارة إلى الماضي

«هذه صورة عابد أورمزد ـ الإله شاهبور ملك الملوك الآري واللا آري ـ من فصيلة الآلهة وابن عابد أورمزد ـ الإله أردشير ـ ملك الملوك الآري من جنس الآلهة المنحدر من سلالة الإله بابك».

لقد كان الملك الذي لقّبَ المدينة القديمة باسمه والتي سأقوم بزيارتها رجلاً قوياً. ففي عهده كان أكثر من ذلك. كان إلهاً عظيماً إذ أن تمثاله الذي يقع الآن أمام الكهف الكبير منتصبا إلى الأعلى فوق تلة خلف المدينة الخربة، كان الشعب الفارسي في إحدى الحقب الزمنية يعبده. فالنقوش التي كشفت صوراً بارزة مرسومة على قطع صخرية تظهر بأنه لم يكن رجلاً وإنما إلهاً. وفي الواقع، هناك أكثر من تبرير للإيمان بألوهية الملوك في تلك العصور الاستبدادية الطويلة الأمد وليس بالحكومات التمثيلية وفترة الملوك قصيرة الأمد، وعلى العموم، كانت خطوة قصيرة نحو الانحدار من آلهة أولمبيا الإغريقية القديمة إلى الآلهة شاهبور، إذ أن التشابه ضئيل بينهم؛ في قوتهم الهائلة وعواطفهم الإنسانية وأعمالهم المثيرة للرعب.

كان شاهبور هذا في الواقع خصماً غير جدير لإله قديم،

Twitter: @alqareah

وعندما كشفت أعماله من الملائم أن نتبينه وهو يحكم جنباً إلى جنب وبدرجة متساوية مع جوبيتر (كبير آلهة الرومان) من خلال رسومه على الصور الصخرية فوق التلال التي تشرف على المدينة التي أسسها. وتبجح بنفسه بلغة الإله في النقوش المدونة بالحوادث التي تمثلها تلك الصور الصخرية، وشاهبور الذي يعد الثاني من سلالة الملوك الساسانيين العظام، ظهر في منتصف القرن الثالث بعد الميلاد وهي فترة نافست في عظمتها عصر الملوك الأخمينيين الأقوياء قبل ثمانية قرون. كان حاسماً، واسع الحيلة، محارباً ورجل دولة لا يقبل معارضة ولا يدع الريبة أو التردد أن تحول بينه وبين تحقيق أهدافه، فهو لم يوسّع ويطوّر إمبراطوريته عن طريق الفتوحات وحسب، وإنما أقامها على أسس قوية بوساطة الإصلاحات الداخلية. وقد حالفه الحظ كي يرى جيشاً رومانياً وإمبراطوراً رومانياً يستسلمان لقواته، كما غمرته قناعة بثقته بكل أعماله ومبادراته التي زادت من رفاهية بلاده وسمعتها الواسعة.

وليس غريباً أن مثل هذا الملك كان يرغب أن يترك وراءه سجلاً أبدياً لأعماله من أجل الأجيال القادمة. فقد ترك هنا وهناك في أرجاء بلاده آثاراً صمدت طويلاً وستصمد أمام تقلبات الزمن. لقد أسس مدناً فخمة ولكنها الآن مهدمة ومع ذلك فهي أكثر روعة مما كانت عليه في عزها وجلالها. واختار أيضاً أن يصور مناظر فتوحاته وما تزال الصور شاخصة أمام أعيننا كي نشاهدها. فهو لم يثق بالورق أو الأصباغ كي يعرّف أخلافه بأفعاله العظيمة فقد اختار وسيلته الصخر الحي النابعة من إلهامه الرفيع. ففي «ناكشي رستم» وفي «شاهبور» مدينته، ما تزال هذه الصور تحكي قصة ملك فارسي انتصر على إمبراطور روماني، فالمدن الخربة ليست أقل إنارة من تلك الآثار القديمة، ولكن تلك الشواخص البديعة للماضي السحيق هي التي تمثل صفحة تاريخية تؤثر بصدق على الأحاسيس والتوجهات وتستثير الخيال والعواطف.

فالصور الغريبة لروعة الطبيعة والفن الإنساني الفريد من نوعه

Twitter: @alqareah

سرعان ما تجذب الانتباه عند الاقتراب من مدينة شاهبور، فعند الوصول إلى مداخل الممرات المائية الضيقة التي تظللها أشجار كثيفة يندفع تيار مائي جميل يلمع في ضوء الشمس. وهناك على حافة الجدول المائي تنتصب في الصباح المشرق الصور الصخرية القديمة، حيث تتناثر تحت أقدام الملك الفارسي نباتات زهرية قرنفلية اللون، وصور الأسرى وعلامات الخنوع والتوسل على وجوههم تظهر على الصخور المتآكلة، كما يبدو فوقهم الإله أورمزد ونارسيس وهما يمدان أيديهما وشفاههما مطبقة، كل هذه الصور موجودة تحت صخور شاهقة في غاية الروعة.

ماذا بقي من المدينة القديمة ذاتها؟ أحجار، أحجار بيضاء، أكوام فوق أكوام من الحجارة مرصوفة بشكل غير منتظم. ليس هناك سوى الحجارة ذات الأشكال والأحجام المتباينة. هذا كل ما يمكن أن نشاهده على أرض هذه المدينة الأثرية. المدينة الملكية ـ مدينة إله الملوك. الماعز تتسلق الأنقاض والنباتات البرية ترتفع بين الأحجار وبقايا الجدران التي كانت صالات وأروقة يتناول فيها حاشية الملك أشهى وجباتهم، وعلى يمين ويسار مدخل المدينة يرتفع حصنان من الأنقاض الحجرية يمثلان قلعتين للحراسة. قلعة الإبن وقلعة البنت. وفي الأسفل، تنتصب ملامح حجرية صلبة لأولئك الملوك العظام وأسراهم وهم يحدقون في الجدول المتوهج حيث تتدفق المياه أمام أنظار الأمراء وعلية القوم.

ومع ذلك إنه لأمر محزن أن ما بقي من تلك العهود الزاهرة بارزاً خلال أزمنة العزلة والانحطاط ما يزال يطل على شعب متخلف ومدينة خربة وأمة واهية مُقدر لها أن تتطلع بلهفة إلى ما يخبئه لها المستقبل. والمفارقة هي كم هو مثير للحزن والشفقة أن ملكاً متغطرساً يركع تحت أقدامه العالم الروماني العظيم، يراقب بصمت أبكم أنقاض مجده الغابر يزداد انحلالاً وأبناء شعبه العظيم يزدادون انحطاطاً وأبهته وعظمته ونفوذه تبتعد عنه وتتجرد منه بشكل دائم.

تقع المدينة على سهل كازيرون بالقرب من أسفل سلسلة جبلية

Twitter: @alqareah

تحدها من الشمال الشرقي. وخلفها مباشرة يخترق التلال وادٍ كبير يمد نهر شاهبور بالمياه وعلى جدرانه نقشت ست صور صخرية، وتمتد المدينة على مساحة ميل مربع من الأرض، وكان يحيط بها خنادق مائية من الجنوب الغربي والجنوب الشرقي، وتقترب المنطقة الشمالية الشرقية من الجبل الذي ينتصب على قمته «قلعة الابنة» (كيلاهي دو ختر)، أما الجهة الشمالية الغربية فيحدها النهر وبشكل غير منتظم.

أما الوادي الواقع خلفها والذي يؤدي إلى سهل صغير يشبه إلى حد كبير بحيرة خالية من الماء فيحيط به سلسلة جبلية شاهقة. وعلى جانب أحد هذه الجبال تظهر جلياً نقطة سوداء تمثل مدخل كهف شاهبور، وتعد مقدمة يسجد عليها تمثال الملك.

كانت الساعة التاسعة عندما وصلت إلى الآثار، بعد ساعة ونصف من مسيرنا خلال السهل الذي يقع بينها وبين المعسكر. لم نتمكن من الحصول على مرشد ولربما كانت الرحلة قصيرة جداً. وبعد أن عبرنا مدخل القلعة حيث كانت تظهر منه أربع صور شمالية، وصلنا فجأة إلى الصورتين الجنوبيتين تلك التي تمثل شاهبور منتصراً على فاليريان والأخرى لشاهبور وفاليريان وسيرياديس مع الحارس الشخصي له.

لقد أسهم عامل الزمن بمساعدة يد الإنسان المتمثلة بالغزاة المسلمين القساة الذين اجتاحوا البلاد في القرن الثامن الميلادي في تشويه الأعمال الفنية الفارسية التي بقيت منذ العصور القديمة. ورغم القسوة التي استُخدمت لتحطيم التماثيل القديمة، لم يستطع الزمن وحتى المسلمون تجريد صور شاهبور من جلالها وبهائها وجمالها، وفي بعض الحالات من إثارتها للعواطف والرثاء.

ففي الصورة التي يبدو فيها الملك الفارسي شاهبور منتصراً على الإمبراطور الروماني فاليريان يظهر الروماني المستسلم وهو يركع أمام حصان الفارسي المنتصر وذراعه ممدودة طالباً العفو

Twitter: @alqareah

والرحمة. وفوقها على الجانب الآخر من الجدول يبدو الأسرى ودلائل الخضوع والذل بادية عليهم رغم المعاملة الوحشية التي عوملوا بها قرب القناة المائية التي تظهر في منتصف الصورة. كما أن مراسيم تنصيب سيرياديس أنتيوش تجسد الأبهة والقوة، حيث تمثل نارسيس عند استلامها الشعار الملكي من أورمزد إله الفرس القدماء، وكل هذه الملامح القوية والشفاه المطبقة تعد دليلاً على العظمة المقدسة. وحتى اللوحة الأخيرة المغطاة بشجرة خضراء داكنة ما تزال تعبر عن فكرة حية تمثل جمهور النبلاء الفرس، وفوقهم يشخص الملك كوسوروس وحاشيته.

لم أستغرق وقتاً طويلاً كي أتخذ قراراً يتيح استغلال الساعات القليلة المتاحة لي في شاهبور. لذلك قررت العودة من كازيرون ونصب المعسكر بين الآثار لمدة يومين أو ثلاثة. واليوم بدأت الخوض في الجدول الذي يُقسم إلى قناتين تجريان حول جزيرة مقابلة تماماً للتماثيل على الحائط الشمالي للجدار. وتشكل هذه الجزيرة أفضل مكان لالتقاط الصور للوحات الصخرية. وقضيت بعض الوقت في التقاط صور شخصية لي. في أسفل كل جانب من مدخل القلعة تنبثق قناة مائية قديمة من بين الصخور، وقد تكونت هذه القنوات المائية في وقت لاحق للصور الصخرية مما حدا بها إلى أن تطمس أحد التماثيل. وهذه القنوات على درجة من الاتساع بحيث يتمكن الرجل من الزحف بوساطتها بين الصخور، وهكذا اتخذتُ طريقي زاحفاً على يدي وركبتي حتى تجاوزت اللوحات ووصلت إلى الفضاء الفسيح مرة أخرى وقابلتُ أحد رجال القبائل الذي أخبرني أن بوسعه أن يدلني على مكان الكهف العظيم. لم يكن لدي متسع من الوقت هذا اليوم ولذلك أخبرته أن يعود إلي بعد يومين.

ثم تسلقت الجدار الشمالي لقلعة كيلاهي دو ختر وزحفت على المنحدر الحاد وحوافه السميكة حتى وصلت إلى القمة حيث المنظر البديع.

وعند الظهر لم يكن لدينا متسع من الوقت، وهكذا انطلقنا نحو

Twitter: @alqareah

كازيرون على بُعد خمسة عشر ميلاً إلى الجنوب الغربي. كانت الشمس قد غربت وحل الليل ونحن في طريقنا إلى دار الاستراحة ذات الاتصالات البرقية. وهكذا غادرنا في ذلك الوقت الوادي الكئيب وحوافه الجرداء المتداخلة مع الغسق، ودخلنا المدينة الصغيرة المنتصبة وسط جزر صغيرة من قمم البيوت وأشجار النخيل والتي يلفها ضباب قاتم ينبعث من البحر الأزرق اللون مثل صور خيالية باهتة متراقصة أمامنا. وبعد يومين وجدت نفسي عائداً إلى شاهبور، وأقمت معسكري قرب بناية مهدمة عند مدخل القلعة وداخل الوادي الذي يشبه البحيرة. وكان هذا اليوم هو موعد زيارتي لكهف شاهبور في منطقة الجبال. وبالطبع لم يكن مرشدي موجوداً ولو كان هناك فإن ذلك ضد المبادئ الفارسية، وعلى كل حال، لم يمنعني ذلك من التخلي عن مشروعي، وفي الساعة التاسعة انطلقت مع «سيف» وفرسي وبعض اللوازم الضرورية على ظهره.

اتجهنا صوب الجنوب الغربي عبر الوادي حتى وصلنا بعد ميلٍ فوهة مظلمة، على ارتفاع أمامنا وعلى يسارنا أسفل الجبل كانت ثمة خيام لبعض رجال «إلياتس»، حيث توجهنا إليها على أمل أن نجد المرشد الذي سيصاحبنا في مهمتنا. ولكنه لم يكن هناك، وقد عرفوه. وبينما كان الآخرون ينظرون قدوم المرشد ذهبت مع «سيف» نصطاد الإوز البري.

عندما نظرنا إلى واجهة الجبل من الأسفل، شاهدنا ما يشبه لوحة صخرية، تبدو وكأنها صورة صخرية، ولم يسعفنا منظار الميدان لمعرفة كنهها ولذلك قررنا الصعود للتأكد منها بأنفسنا. وبعد سبعمائة قدم من التسلق إلى الأعلى عانينا جهداً خلال ذلك، قمنا بمسح العرق المتصبب على جباهنا متظاهرين بأنَّ المكافأة التي حصلنا عليها من تسلقنا المضني هي مشاهدة منظر رائع فقط.

وإلى الأسفل وأمامنا مباشرة كان ينساب النهر، وفيما بعد ذلك امتد سهل منبسط تكتنفه الكثبان من جميع الجهات وتتناثر عليه أشجار صغيرة حتى تصل إلى سفوح التلال المحيطة به. وإلى

Twitter: @alqareah

الجنوب الشرقي مقابل نهاية المدخل الذي نعسكر قربه، كان ثمة ثغرة تمكنًا خلالها من رؤية سهل ووراءها ينساب فيه النهر ذاته. وفيما وراء ذلك انتصبت المزيد من التلال الصخرية الكبيرة تتوسطها قمة عالية تغطيها الثلوج البراقة، وفوقنا مباشرة انتصبت قمم جبلية شاهقة تتخللها الكهوف المرعبة وينساب من بين شقوقها العميقة والمنحدرة بحدة مجارٍ وقنوات مائية تمتد في جريانها حتى تصل إلى مدخل القلعة لتشكل تياراً متدفقاً، كأنة معلق فوق فتحة المدخل.

في بلاد فارس هناك مثل يقول إذا رغبت أن تكمل أي عمل عليك أن تبدأ مبكراً، والآن وقتنا ثمين لذلك حالما التقطنا أنفاسنا توجب علينا المغادرة فوراً. كان علينا أن نختار إما الرجوع زاحفين على الطريق نفسه الذي جئنا منه والمشي في الوادي وصعود التلال إلى الكهف، أو أن نتخذ لنا طريقاً مضنياً وشاقاً عبر حافة الجبل إلى الفتحة الصغيرة المظلمة والتي كانت هدفاً لنا. لقد اخترنا الطريق الثاني وبوسعي أن أقول بأننا قد لمنا ووبخنا أنفسنا لاختيار هذا الطريق المتعب والمرعب. لقد كان أمامنا خياران وقد اخترنا الأسوأ حيث لم يكن أمامنا بديل لأننا لم نكن نعرف النتائج، لذلك لا بُدّ من الاستمرار رغم الحالة السيئة للأمور ورغم الاختيار غير الموفق.

وعلى العموم إذا كان المقياس هو الأمور السيئة فإنّ الفائدة التي تمكنا من الحصول عليها كانت الخبرة المثيرة أثناء تسلقنا. فالطريق الذي اخترناه وسلكناه يمر تحت جروف صخرية عالية، وبينما كنا نعبر ركاماً من الحجارة المتكسرة الناجمة عن مجرى مائي جاف سمعنا فجأة أزيزا صاخباً مدوياً متلاحقاً، وحين توقف سقط بيننا حجر ضخم أدى تلاطمه بالحجارة المتكسرة إلى حدوث صوت مفزع وتناثر بعضها نحو المنحدر تحتنا. وعندما التفت لأتبين الأمر، سقط حجر آخر ضخم ومدور على الصخور خلفنا. لم أنتظر لأتبين حقيقة الأمر. وإنما انطلقت بأقصى سرعة على تلك الأرض الوعرة يصحبني سيف إلى مكان تحيط به تلال صخرية كي

Twitter: @alqareah

نحمي أنفسنا من أي خطر محدق. وعندما اتجهنا مسرعين إلى هناك انهالت علينا الصخور حتى ردد الوادي صداها المدوي كالرعد، وحين شعرنا بالأمان تطلعت لأتحقق جلية الأمر ولأعرف سبب ذلك، لم يكن بوسعنا رؤية أي شيء، ولكن «سيف» عندما استعاد أنفاسه تنهد وقال: «هذا يا سيدي، هو زلزال الطبيعة المرعبة» (لم يستخدم سيف كلمة قصيرة إذ ما كان بوسعه إيجاد كلمة طويلة بديلة، وقد كانت عبقريته متقدة وجاهزة للإنقاذ وقت الحاجة حتى لو خانته ذاكرته. أذكر أنني شاهدته ذات مرة يضع بطانية على ظهر حصاني في وقت لم يكن ذلك ضرورياً أبداً. فقلت له: «يا سيف لماذا تضع البطانية على الحصان؟». قال بوقار: «ياسيدي، حصانك يتصبب منه العرق بكثافة». لقد أدخلت الكلمة ضمن قاموسي).

لم يكن «زلزال» سيف تبريراً مناسباً لما حدث، والذي ما يزال يحدث، مما دفعني إلى أن أستلّ مسدسي الذي حرصت دوماً على حمله وأطلقت طلقة على قمة الجرف الصخري الذي انطلقت منه الحجارة. كنت على حق، وبرغم اعتراض سيف وتأكيده بأن ليس بإمكان أي رجل القيام بقذف مثل هذه الحجارة الضخمة والمفزعة، إلا أن القوة البشرية قد مكنتهم من ذلك من خلال أحداثها وتطوراتها، ولذلك توقف «الزلزال» بعد التحذير البسيط الذي وجهته.

وعلى العموم تعد أخطار بلاد فارس أمراً متعلقاً بالخيال وبالماضي حيث كانت البلاد في تلك الأزمنة عرضة لغزوات القبائل البربرية وخالية من الحيوانات الخطرة، ولكن القبائل الهمجية في الوقت الحاضر قد قلصت أعمالها لتشمل سرقات وقتية فقط، أو القيام بعمليات قطع الطرق بين الحين والآخر حيث يجأر الرياضي بالشكوى من قلة وليس من كثرة الألعاب الكبيرة. وحتى في عهد تافيرنير كانت المنطقة خالية من هذه الأخطار حيث يقول: «بعض الأجزاء من بلاد فارس تكثُر فيها الحيوانات المتوحشة كالأسود والدببة والنمور، ولكن نادراً ما سمعنا عن قيامها بهجمات متوحشة

Twitter: @alqareah

أو مؤذية». أما الآن فإن الأسد أصبح جزءاً من الماضي وكذلك الحال بالنسبة للدب والنمر. إلا إذا كان محصوراً في زاوية داخل قفص ولا يقوى على مهاجمة أو إزعاج الإنسان، وهناك قصص تتحدث عن قيام أسد في وقت من الأوقات باختطاف النساء من القوافل، ولكني أعتقد بأن المرأة إذا ما اختطفت فإن الخيال الفارسي سيكون متبايناً في تبرير سبب اختفائها، ومع أن الأسد ما يزال على قيد الحياة وأنه قد فعل ذلك بالتأكيد وفق تكهنات العقل الفارسي، فإنها حقيقة واهية ومشكوك بها لأن أحداً لم ير جثث أولئك النسوة.

أما بخصوص الأخطار الناجمة عن المصادر الإنسانية فإني لم ألاحظ مطلقاً أي نزوع من الفرس للقيام بأعمال عدائية تجاه الأجانب. فهم لا يحبون الإنكليزي، وينظرون إليه على أنه متطفل عدواني وأنهم لن يجنوا أية فائدة من وجوده، ولكن وكما سبق أن قلت، إنهم يحترمون قوته العقلية والجسمانية. فهم، على أية حال، يشبهون الأوروبيين أكثر من الشعوب الشرقية الأخرى، كالهنود مثلاً إذ أن استقلاليتهم الثابتة وروحهم الرياضية تجعلان منهم رجالاً يتصفون إما بالصداقة الحميمة أو العداوة البغيضة. فالغريزة الرياضية على خلاف الغريزة الإنكليزية متأصلة فيهم، فهي صفة تتسم بها الشخصية الفارسية وكثيراً ما تسبب لهم مصاعب جمة. فالرجل الذي يحمل بندقية تشكل خطوط الهاتف أو الأسلاك البرقية البيضاء أهدافاً مغرية له، وقد بات الفارسي ومنذ زمن طويل عاجزاً عن مقاومة إغراء اختبار مهارته في إصابة تلك الأهداف. ولكن هذه الرياضة ليست في صالح الأسلاك البرقية إذ من الضروري إعادة ربطها وإصلاحها، ومن المستحيل في هذه الحالة اتخاذ إجراءات رادعة ضد كل فرد فارسي يهيم معزولاً في الصحراء يمارس هواية التهديف. ولذلك كانت الوسيلة الوحيدة للحد من هذه الظاهرة أن يتحمل المسؤولون ورؤساء القبائل المسؤولية عن تلك الأعمال، فهذه هي الطريقة الوحيدة لمخاطبة الإحساس الفارسي لسلطة

Twitter: @alqareah

القانون والنظام، لذا وبعد فترة وجيزة تركت العوازل البيضاء بسلام.

إنها النزعة الرياضية وليس البغض الفعلي للمسافر التي تدفع الراعي الهائم على وجهه في الصحراء، والمدفوع بغريزته نحو الخيمة الصغيرة البيضاء على مسافة منه، إلى إطلاق طلقة في ذلك المكان حين كنت داخلها. حقاً، لقد كان الرجل الفارسي المتصابي رفيقاً طيباً إذا ما أحسنت معاملته وهناك حالات قليلة يمكن أن تسبب ضرراً جسيماً للمسافر. ولابد على أية حال وتحسباً لكل الاحتمالات أن يكون المسافر مسلحاً. فالأسلحة الفارسية لا تضاهي الأسلحة الحديثة، لذلك فإن منظر السلاح الحديث يؤدي إلى مزيد من الاحترام والهيبة لمالكه.

إذا كان الفارسي كثير الشكوك حول الأشخاص، فإنه لن يحترم الأمور الأخرى، فآراؤه بخصوص الملكية ستحظى بالرفض الصريح في هذه البلاد إذ أن شعاره «إن الله يساعد أولئك الذين يساعدون أنفسهم»، وهذا يعني أن عليه مساعدة نفسه بوضع يده على أي شيء يمكنه الحصول عليه أو الوصول إليه.

لقد خبرنا شيئاً من ذلك في مدينة شاهبور، ففي أحد الأيام جاءني خادمي «كيشنا» مرعوباً وعلامات الندم على محياه، ويعني هذا وفق التقاليد الهندية بأنه قد ارتكب خطأ. قال «يا صاحبي، لقد حدثت سرقة» عندئذ سرح فكري إلى احتمال سرقة بعض البنادق من مخزني أو أن نقوداً قد سرقت، ولكن الأمر لم يكن كذلك. كان اللص قد دخل خيمة الخدم أثناء نومهم وأخذ كل ما وجده فيها، وقد اكتشفنا بأن الأشياء المسروقة من الخيمة تضمنت أدوات المطبخ، وبعض البيض وعلبتين من المعجون. إذن لم تكن السرقة على درجة عالية من الأهمية ولكنها أدت إلى مشكلة كبيرة في المطبخ، وعلى أية حال كان السارق رجلاً نبيلاً إذ لم يكن لديه أدوات مطبخ، ولذلك عندما اكتشفها في الخيمة وعرف حقيقة استعمالها استولى عليها وخبأها قرب النهر حيث تم اكتشافها في اليوم التالي.

Twitter: @alqareah

في بداية هذا الحديث تركت نفسي وسيف ننضح عرقاً تحت جرف قرب كهف شاهبور. واصلنا المسير، وبعد مسافة ليست قصيرة وجدنا أنفسنا تحت الكهف حيث جلبنا انتباه سائقي البغال والحراس الذين كانوا في الأسفل مثل هياكل ضئيلة جداً. وبعد ساعة انضموا إلينا وكنا على أهبة الاستعداد لصعود آخر جرف يؤدي إلى الكهف. وقد تطلب هذا الصعود تسلق منحدر شاهق وحاد يبلغ ارتفاعه خمسة وعشرين قدماً من قمة جبل صخري، وبقليل من الخفة أصبح من السهل علينا أن نزحف إلى القمة بوساطة شقوق بين الصخور. وحالما وصلنا هناك كانت فتحة مدخل الكهف أمامنا تماماً. تسلقت منحدراً خشناً وهناك على بُعد خمسين ياردة أسفل المنحدر الذي يهبط إلى عتمة الكهوف الهائلة، انتصب أمامي حيوان ضخم غريب الشكل وقد تآكل من طول بقائه واقفاً وبقي منه القدمان المنتعلان، أما جسم الملك شاهبور فقد كان ممدداً بشكل محزن ومذل ووجهه الخالي من الأنف يتجه إلى الأعلى، ورأسه غائر في التراب الناعم ولفائف من شعره المجعّد مدفونة وجسمه مائل وساقاه أكثر ارتفاعاً من رأسه وهما تستقران على عرشه القديم. وكان الجسم البالغ طوله عشرين قدماً مكسواً بنوع من الرداء الكهنوتي يخترقه نطاقان أحدهما على الجهة اليسرى حيث يتدلى منه سيف الملك، واليد اليمنى الخالية من السلاح تستقر على فخذه الأيمن وفي الأعلى يمتد ذراعه المخيف، وكانت ذراعه اليسرى قد كسرت فوق الرسغ حيث كانت يده ذات مرة تستقر على مقبض السيف.

وهكذا استقرّ تمثال شاهبور بملامح مشوهة وأطراف مفتتة. إنه عابد أورمزد ـ الإله شاهبور ملك الملوك الآري واللاآري ـ من فصيلة الآلهة وابن عابد أورمزد ـ الإله أردشير ملك الملوك .

يعتري الإنسان حزن ورثاء مؤثر على هذه الصورة الفاتنة التي كانت في يوم من الأيام يركع أمامها الناس وتُعبد كإله، واليوم

Twitter: @alqareah

تتمدد حقيرة في كهف منعزل فوق أنقاض مدينة ميتة. ويكمن وقارها الزائل وحظها العاثر فيما حولها. لقد كانت الصورة في وسط باحة المنحدر العالي الذي يكوّن مدخل الكهف ومن فتحة أمامها مباشرة تشرق الشمس في السماء الزرقاء، وخلفها تتثاءب أماكن مظلمة كئيبة، فيما حولها من جميع الجهات تتراكم أنقاض وبقايا حضارة زائلة. لقد كان منظراً يستحق المشاهدة عند حلول الغسق والملك العظيم ينظر إلى الأعماق الداكنة، كأنه عملاق أبيض والسماء يتضاءل لونها القرمزي ليتحول إلى معتم. ومن ثم لم يكن صعباً أن يتخيل المرء ويستذكر الأموات من مكان هذه المدينة القديمة الهامدة وهم يتسللون من أركان عفنة مبتذلة ليقدموا فروض الطاعة والولاء إلى شاهبور. فالسكان المحليون يخشون هذا المكان ولا يذهبون إليه فرادى ويحجمون عن دخول المواضع المنعزلة في الكهف. وليس من الصعب أيضاً إدراك مشاعرهم وأحاسيسهم، إذ ربما تكون هذه الفجوة ذات الجدران المهدمة والباحات الضخمة الكئيبة مثل القبور، والممرات الموحشة المنبعث منها رائحة الشر، مسكناً للأشباح كما يدل على ذلك وجود الخفافيش وطيور البوم الغريبة. لقد كان الرجال الذين يرافقونني من الشرطة والحراس مذعورين من الكهف والظلام وكل شيء آخر في المكان. «توجد أشباح» قالوا بتذمر وعندما لم أُبدِ اهتماماً بفكرة الأشباح بدؤوا يقصون حكايات عن وجود نمور كي يثنوني عن تحقيق هدفي في اكتشاف المكان. كانت فكرة النمور أكثر احتمالا من الأشباح ولكن أيّاً من الفكرتين لن تمنعني من الاستمرار في مهمتي، ولذلك ضحكت من هواجسهم وواصلت تقدمي. وبعد قليل من الهمس وافقوا على متابعتي، وعندما أصبحنا في منتصف الباحة الخفية التي عثرت عليها في الداخل، وأطلقت ومضة ساطعة كي ألتقط صورة، استعادوا وعيهم وحيويتهم إلى حد كبير، ولكنهم شعروا بالفرحة والابتهاج عند خروجهم.

Twitter: @alqareah

لقد أشار اللورد كورزون بأن الهدف لم يُكتشف تماماً، وبوسعي أن أؤكد حقيقة ولوجي إلى كل زاوية مما يحتم عليّ تقديم وصف شامل له وكما دوّنته في ذلك الوقت.

بعد أن اجتزنا التمثال وعلى بعد مائة ياردة من المدخل توجد منطقة منخفضة يقع على طرفها البعيد بركة ماء، على مسافة خمسين ياردة، منها حفرة كبيرة تتفرع منها ممرات عديدة مظلمة. والممر الكائن على الجهة اليسرى يؤدي مباشرة إلى ساحة دائرية لم يطأها الإنسان ويبلغ قطرُها خمسين ياردة، وثمة ممر آخر يليه أكثر اتساعاً، يحتوي على بقايا حوض آخر أصفر وخلفه توجد تفرعات تتوحد ثانية بعد عدة ياردات لتؤدي في النهاية إلى باحة صغيرة يقع في نهايتها البعيدة ممران ضيقان يمتدان إلى جبل صخري حيث ينقطع أثرهما وجريانهما بعد ذلك. وعلى طول الطريق الموازي للجانب الأيمن من الحفرة الكبيرة، تتفرع ممرات تؤدي إلى باحة ضخمة شاهقة تنحدر بحدة إلى أسفل نحو منطقة واطئة، لابد أنها كانت في سالف الزمن بحيرة تحت الأرض. وبعد انحدار هذه الباحة أسفل الجرف مسافة خمسين ياردة ترتفع ثانية بحدة وتستمر لمسافة أخرى ثم تنتهي بتفرعات عديدة قصيرة. ومن أجل اكتشاف هذا الجزء لابد من الزحف على أرض لزجة ويتطلب ذلك العديد من حالات السقوط والتعثر والوقوع على الأرض، ومن المؤكد أن طول الباحة يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة ياردة ويبلغ ارتفاعها حوالى مائة قدم. أما الممر الأخير الواقع على الجهة اليمنى من الحفرة والقريب من المدخل فلا يقود إلى الباحة، ولكنه يصعد إلى الأعلى مسافة مائة ياردة وينتهي إلى حجرة سوداء من الدخان أو من تأثير كيميائي وفي وسطها حجر غير منتظم الشكل. وفي أرجاء الكهف تكثر رواسب كلسية مدلاة من السقف، كما ينتصب على المنحدر البعيد من الكهف الكبير عمودان من تكوين الطبيعة.

أما التربة فتتميز بنعومتها وتفتتها رغم رطوبتها وعدم قدرتها على تكوين الوحل. إنه تشكيل فريد في مكان غريب في ظلام

Twitter: @alqareah

دامس، بحيث يصاب العقل بالحيرة والذهول ومن المستحيل إيجاد حلول للمشاكل البسيطة بكل ما في الكلمة من معنى. واصلت تخبطي بارتباك وتعثرت بين الركام والحواف الصغيرة حتى شعرت أخيراً وبشيء من الاضطراب والقنوط بأنني قد ضللت الطريق على بعد ميل واحد من محل إقامتي. كانت الظلمة على درجة عالية من القسوة والصلابة حتى أنني شعرت بأن طول الطريق أمامي قدم واحد، وأخيرا سقطت في النهر. لقد أفرحني ذلك كثيراً، إذ يتوجب علي في هذه الحالة أن أتبع النهر حتى أصل إلى المعسكر. بذلت جهدي كي أبقى قريباً من الجدول ولكن التلال الصخرية حالت دون ذلك، كما صادفتني فجأة أشجار كثيفة متشابكة بحيث أصبح تقدمي إلى الأمام مستحيلاً. تتمتع مدينة شاهبور بسمعة لا تحسد عليها في عدد لصوصها، لذلك لم أصرخ أو أطلب النجدة لأنني لم أكن واثقاً من نوع الشخص الذي سيجلبه صراخي. ولكن بات الآن مستحيلاً علي أن أعود إلى محل إقامتي بدون مرشد، ولهذا صرخت يحدوني الأمل بأن الناس الذين سيهبّون لنجدتي لن يكونوا على شاكلة الرجلين المتشردين اللذين قابلتهما قبل حلول الظلام وحاولا منعي من المرور، وقد غمرني في تلك اللحظة اعتقاد خاطئ وهادئ. كان من الممكن أن أقرر بسهولة إذا لم يستجب أحد لنداءاتي، ثم جلست وفكرت. لقد بقيت على مسافة معقولة من النهر فإذا ذهبت في الاتجاه نفسه فمن المؤكد بأنني سأصل إلى المعسكر، وهكذا زحفت فوق المنحدر على يميني حتى وجدت قطعة منبسطة من الأرض مما أثار ارتياحي، وعلى الفور زلت قدمي. وعندما بدأت أفكر فيما إذا كنت ذاهباً في الاتجاه الصحيح خلف التلة السوداء (الأكثر سواداً من الليل نفسه) برزت أمامي فجأة ومضة صغيرة من النار أضاءت عقلي المرتبك كأنها شعاع من الشمس. وأصبح الأمر كله عدم فقدان هذا الضوء، لذلك قمت بعمل طريق كطريق النمل عند اعتراضنا أية عقبة حتى وصلناه أخيرا بعد نصف ساعة، ثم اكتشفت أن الآخرين قد ضلوا طريقهم ولكنهم زحفوا كذلك بيأس. وبعد برهة وجيزة كنا

Twitter: @alqareah

جاهزين لنتناول وجبة طعام خفيفة أعدها لنا بتمعن وروية الرجل الطيب «كيشنا».

خلال الليل، كانت هناك أصوات غريبة مختلفة تُسمع في الظلام، وفي الصباح وبينما كنت مع سيف في طريقنا لاكتشاف المزيد من خبايا «قلعة الابنة العظيمة» التي كانت تحدق فينا بغيظ من الأعلى، وجدنا جثة الحمار المتروكة وكما هي العادة الفارسية على بعد مسافة قصيرة وقد أكلتها النمور. وبكل أسف لم تُجهز الحيوانات على الجثة بكاملها، ولهذا انطلقنا في مهمتنا الشاقة لتسلق الآثار القديمة.

تقع القلعة في نهاية الجدار الصخري للفتحة من جهة الجنوب الشرقي، وهي مرحلة متقدمة من التآكل والخراب. هناك القليل جداً من الجدران وبقايا غرف كما بقيت دعامتان أو ثلاث، أمّا ما بقي منها فهو مجرد أكثر من الحجارة التي تتناثر أسفل المنحدرات الحادة. وعندما صعدنا من جهة الشمال الغربي بين البقايا المتهدمة للجدران وجدنا قطعاً عديدة من الأواني المزخرفة سواء الجرار أو الأنابيب الفخارية. كان العمل بديعاً والألوان ما تزال زاهية وتتراوح بين اللون الأزرق الداكن إلى الأخضر المعتم ومن الأخضر الممزوج بالأزرق إلى الأخضر الخفيف. وكانت هناك قطع بيضاء صافية وعيّنات قليلة مقلمة وكان زُخرف بعضها شفافاً. ولكن مع الأسف لم تكن هذه القطع ذات حجم يُذكر لذلك جمعت بعضاً منها في جراب المؤونة وبشكل ما تمكنت من ألتقاط ما يستحق منها.

من المحتمل أن غرف سيدات البلاط الملكي كانت هنا، ويقع الجزء الخاص بتأدية الأعمال في القلعة في الجنوب الشرقي حيث توجد دعامتان كبيرتان وبقايا جدار متين وكتلة من البناء، مما يوحي بوجود غرف وأبواب قد سدّتها وحالت دون الوصول إليها أنقاض الجدران الأخرى.

وأسفل التل الصخري صوب الشمال الغربي تمتد أسوار واقية

Twitter: @alqareah

تنتهي عند قلاع مهدمة، وفي جهة الجنوب الشرقي كانت قد رتبت مدرجات التحصين التي ما تزال أنقاضها تختلط ببقايا الغرف المهدمة وتغطي منحدرات ذلك الجانب بكامله.

في محاولاتنا الاستكشافية وصلنا أخيراً إلى الجدار والدعائم، وكتلة البناء التي سبق ذكرها. وهذا أفضل ما بقي من القلعة، ومع أن الأنقاض في بعض الأماكن يصل ارتفاعها إلى ثلاثين قدماً، لم نتمكن من الوصول إلى الغرف التي لابد أن تكون في الداخل. إن الانخفاض الضئيل في الجزء الأعلى المنبسط والمغطى بالحشائش من البنايات يدل على انخساف سقوف بعض الغرف في الأسفل، ولكن كل الجهود المبذولة لاختراقها باءت بالفشل.

أما العمودان الكائنان في أقصى الجنوب حيث تنفصل عنهما كتلة ضخمة تنحدر على زاوية حادة فيثيران الاستغراب والدهشة بسبب سمكهما الشديد، وعدم وجود نوافذ لأي شيء في الداخل. وهناك بقايا لما يشبه فتحات مستطيلة ضيقة تميّزت بها القلاع المبنية في عهود القوس والسهم ولكنها لا تؤدي إلى أي مكان، ويبدو أنها بقايا لمبانٍ اختفت واندثرت بسبب عوامل الطبيعة والزمن.

وعند محاولاتنا اكتشاف قاعدة هذا الجزء من القلعة واجهنا مشاكل مستعصية الحل.

أولاً، على حافة الصخرة تماماً، كان ثمة حجر غريب لمذبح الكنيسة وقد انخسفت قمته المنبسطة، كما يشبه الحمّام الذي يتسع وكما اكتشفت بالتجربة، إلى حجم رجل عادي. وعلى ارتفاع أربعة أقدام وطول ثمانية أقدام انفصل كل ذلك وبقي مرتكزاً على حافة الجرف كرمز دائم ومثير لنصب تذكاري لتقليد ما أو احتفال في الماضي.

أما الأنقاض الثقيلة الجافة الأخرى فأعتقد جازماً بأن لها ارتباطاً وثيقاً بالمذبح المنعزل. ففي أعلى الصخرة من جهة الشمال

Twitter: @alqareah

الشرقي كانت هناك قبور أو «حمامات»، ولكنها لا تضاهي المذبح في علوها إذ أنها مجرد تجاويف في الصخرة الجرداء. وفي بعض الحالات وجدت فتحة صغيرة في زاوية تؤدي إلى شق في الحجر الذي ربما كان يستخدم لحمل سائل من نوع ما. وعلاوة على ذلك كانت هناك مناضد مرتفعة قليلاً ومشكَلة من الصخر ذاته وتشبه إلى حد ما لوحات تذكارية.

ما هذه الأعمال؟ ولأي طقوس أو تقاليد كانت تستعمل؟ بالنسبة لي شخصياً، أعتقد أن هذه الأمكنة كانت تستخدم بطريقة ما لمراسيم دفن الموتى. ولسوء الحظ أن معلوماتي بعلم الآثار ليست كافية كي أقدم رأياً قاطعاً حول الموضوع. بوسعي أن أعرض حقائق وأقدم اقتراحات أملاً بأنّ آخرين ممن لديهم معرفة أكثر وخبرة أشمل سيكونون أقدَر على استخدامها والاستفادة منها.

أما النقطة الأهم والتي يبدو إنها تؤثر على مجمل الموضوع فهي: كيف كان هؤلاء الناس القدماء يتخلصون من موتاهم؟ فمن الواضح أنه لا يوجد حول شاهبور ما يشير إلى وجود قبور أو مقابر، ومن غير المحتمل أن كل جثث الموتى من القدماء قد دُفنت دون تمييز ودون دليل أو مؤشر على مكان دفنهم. ويدل هذا على أنّ الجثث لم تدفن على الإطلاق. ويبقى احتمالان: الترك في العراء أو إحراق الجثث. فالقبور الغريبة المفتوحة والمناضد الحجرية المنبسطة المفصلة من الصخر يبدو تطابقهما مع طريقتي التخلص من الجثث الوارد ذكرهما آنفاً حيث أن ديانة الفرس القدماء هي عبادة النار، وفي عهد شاهبور تطورت هذه الديانة إلى الزرادشتية. إذن فالاحتمال الممكن بالنسبة لي هو أنّ الفرس الساسانيين كانوا يحرقون موتاهم، وأن تلك القبور الغريبة واللوحات كانت تستخدم في الطقوس الاحتفالية. ومن الجائز أن الكهف نفسه كان يُستخدم كمعبد ديني ومكان لحرق الجثث، ومن المحتمل أيضاً أن المسطحات الصخرية تمثِّل حمّامات مقدسة. وربما كانت هناك أماكن تطهير أو منظفات من مختلف الأنواع وفق طقوس دينية

Twitter: @alqareah

تؤدى أمام جثة الميت قبل حرقه، وفي مثل هذه الحالة فإن الحمّامات الحجرية والغرف القريبة من معبد «الابنة» كانت تستخدم لهذا الغرض، بينما كانت المناضد تستعمل كمواقد للنار التي توقد بعد ذلك.

وأثناء حديثي عن طريقة التخلص من الموتى، لا يسعني إلا أن أتلو قصة قصيرة سمعتها مراراً من مرشدي الفارسي خلال رحلتي إلى الكهف. في الطريق القصير المؤدي إلى الوادي يوجد تجويف منعزل أملس داخل صخرة كبيرة. وفي العصور الغابرة قال الفارسي مشيراً إلى هذا التجويف «كان الرجال يعيشون إلى الأبد» (ولماذا لا يكونون أحياء حتى الآن، قالها بازدراء وباستخفاف فارسي أكيد حتى لا يخوض في التفاصيل). ومن الواضح أنه في ظل ظروف عادية فإن حياتهم لا تنتهي، ومن المحتمل أن تميت الناس بالقوة أو بالجوع. إذ عندما يصبح الرجل أو المرأة في سن الشيخوخة أو في حالة عجز تام ـ واصَلَ صديقي حكايته ـ يصبحون عبئاً ثقيلا على عوائلهم. فيقوم أحد أولادهم، وبعد أن تصبح حياة الأب أو الأم مملة ومزعجة، بأخذهما بعيداً ويضع الأب أو الأم في هذا التجويف المنعزل داخل الصخرة. ففي أحد الأيام كان أحد الفتيان يحمل أباه في سلة حتى يتخلص منه بهذه الوسيلة. وبعد أن وضعه بكل هدوء في ركن داخل التجويف واستعد لمغادرة المكان، وأثناء خروجه سمع صوتاً خافتاً ضعيفاً من أبيه يدعوه للوقوف «حسناً» قال الشاب الفارسي بعد أن أدار رأسه نحو الزاوية «ما الأمر؟»، «ألا تريد أن تأخذ السلة؟» قال الأب العجوز. «لا» أجاب الفتى: «إنها سلة قديمة ولا أحتاجها». «من يعرف؟» أجاب الأب «ربما ستكون مفيدة لك في يوم ما». يقولون بأنّ هذه الملاحظة أثّرت كثيراً في الشاب بحيث تناول السلة وحملها مع أبيه إلى البيت ثانية وقد أُبطلت هذه العادة بعد ذلك. وعلى العموم يمكن للشفقة أن تستثار وتنعكس على النفس في ظروف أقل سوءاً وهذا شائع في بلاد فارس وغيرها من البلدان الأخرى.

Twitter: @alqareah

من قلعة الابنة يمتد أمام البصر منظر بديع لوادي كازيرون، إنه مثل خارطة تخطه ممرات متعرجة ومجارٍ مائية تنساب فيه وتغطي أرضه الجميلة، وأسفل الجدار الكبير تمتد بعيداً بقايا مدينة شاهبور على شكل أكداس هائلة من الأنقاض البيضاء وتظهر فيها فتحات سوداء لآبار عميقة.

هناك أثران يأسران العين ويشدان النظر إليهما من كل الأنقاض والمواد الخربة الممتدة على مسافة ميل مربع. أحدهما في جهة الجنوب، ويبدو أنه بقايا قلعة قديمة والآخر بقايا حمام أو غرفة. وهذا الأخير والذي نزلت فيه فيما بعد مبني من الكتل الصخرية، والجدار الكائن في الشمال الغربي ما يزال متكاملاً. ولم أتمكن من اكتشاف الجزء الذي ذكره كورزون حول وجود شبّاك مقوس وبقايا بعض الأعمدة ذات رؤوس الثيران، ومما لا شك فيه أن تقليد تلك الأعمدة في بيرسي بولس قد أسهم في فن العمارة والسقوف على وجه التحديد. وفي الواقع، هناك على قمة الجدار الضخم ثلاثة نتوءات لا شكل لها ولكن يمكن للخيال أن يمتد ليتعرف على كونها أعمدة ذات رؤوس ثيران، وهي دليل على عدم وجود نوافذ وإنما الاحتمال الأكثر تصديقاً أنها كانت ذات مرة حمّامات أو غرف للإقامة في الصيف، حيث لا يوجد أدنى شك بوجود حائط آخر كذلك المتبقي في جهة الجنوب الشرقي، ومن المحتمل أيضاً أن هناك درجات تنزل إلى مستوى أرض الغرفة ويبلغ ارتفاع الحائط الحقيقي أربعين قدما، ويشهق فوق البلاط الذي تغطيه الآن نباتات خضراء داكنة وقد اتسم بالعظمة المثيرة للكآبة والرثاء.

تكثر الآبار في هذه المدينة الخربة وتتناثر في كل مكان مثل أقراص العسل، كما تشتهر بكثرة القنوات والممرات المائية التي تُسمى «كناة» حيث يبلغ عمق الواحدة أربعين قدماً. ألقيت غليون التدخين في إحدى الآبار كي أقيسه، ولكن طلب المعرفة كلفني كثيراً من الجهد والوقت.

خلف الحمام المدمر ثمة فضاء فسيح تتكدس في منتصفه

Twitter: @alqareah

أكوام من الأنقاض. إنه شبيه بغيره من الأمكنة التي تتكدس فيها مثل هذه الأنقاض، ومن المحتمل أن كل واحدة منها تمثل بقايا بيت وغرفه الداخلية الجرداء. والآن، على أية حال، لا مجال لدخولها ما دامت الأنقاض تغلقها وتمنع الوصول إليها كما هو الحال في كيلاهي دو ختر، ولكن عند الوقوف على قمة أحد الأكداس المتراكمة كان بوسعي أن أتتبع التخوم المربعة للجدران القديمة والبالغ سمكها عشرة أقدام والتي تنحدر الأنقاض خارجها نحو الأرض في انحدار تغطيه الحشائش.

إنّ قلعة كيلاهي ـ الابنة وكل الأشياء المحيطة بها أخذتْ منا نهاراً بكامله حتى نتفحصها. واليوم التالي وهو الأخير، كُرس إلى الجانب المقابل لمدخل القلعة (الشمال الغربي) والذي ما عدا صوره الأربع لا يحتوي على شيء مثير يجلب الانتباه. هناك على بُعد مقابل القلعة الشقيقة تقف أبواب المدخل ـ أو بالأحرى كانت تقف ولا وجود لها الآن ـ لقلعة الابن «كيلاهي بيسار» الذي يشهق منتصباً أعلى من قلعة الابنة ولكن يا للحسرة! إنه على درجة متقدمة من التآكل والاضمحلال، ولم يبق منه سوى خطوط قليلة من الجدار وبرجين مهدمين.

وبعد أن تسلقنا الوجه الصخري الخشن وعبرنا لوحة منعزلة ناتئة من الصخرة وصلنا في الحال إلى أنقاض الخط الأول من الجدران، الذي كان عبارة عن أكوام من الحجارة وأجزاء من أوانٍ منزلية استطعت أن أميز بعضاً من تصاميمها وأشكالها.

ومن قمة دعامة القلعة الواقع على جرف عال انتصب برجان يطلان على واد من جهة، حيث ينحدران ويهبطان بعيداً عنهما بينما كان الممر المرتفع الذي وصلنا إليه تحرسه خطوط إثر خطوط من الجدران المهدمة، وعندما نظرنا إلى الأسفل كان المنظر رائعاً: أولاً، هناك مدخل القلعة وجدولها المائي البراق، ثم بعد ذلك الآثار الداكنة لقلعة الابنة. وما وراء ذلك، السهل الفسيح الممتد على مدى

Twitter: @alqareah

البصر، والذي تنساب فيه العديد من القنوات المائية المتجهة نحو التلال الضبابية الغامضة.

بعد القيام بزيارة إلى مكان فوق المنحدر الذي كان سكانه القدماء قد حصلوا على تلك الألواح الهائلة من حجارة البناء المربعة والمستطيلة الأشكال بصورة متناسقة من صخور ضخمة، هبطت إلى الأسفل وعدت أدراجي عبر الوادي إلى المعسكر.

يبدو لي بأني وجهت اهتماماً متبايناً وغير مناسب إلى هذه المدينة القديمة «شاهبور»، ولكن لابد أن أقر بأن ثمة أماكن قليلة جداً في بلاد فارس أثارت اهتمامي وألهبت خيالي كهذه المدينة. ويمكن أن أضيف، في دفاعي، بأن هذه المدينة قد أُهملت وبشكل غريب من قبل المسافرين كما أن عدداً قليلاً من الكتّاب ذكروها في كتاباتهم، حيث أن إغراءات المدينة المنافسة لها «بيرسي بولس» قد صرفت الأنظار عنها أو الاهتمام بها. وأنا على يقين بأن المدينة وما يحيط بها ستَحظى باكتشافات دقيقة وستتمتع بما تستحقه من الاهتمام.

ومما لا شك فيه أن هناك الكثير يحتاج إلى الاكتشاف في مدينة الأموات هذه، وحتى الوقت الراهن لم يُبذل أي جهد للحفر والتنقيب، ومع أن الآلاف من الأرواح عاشت وتوفيت فيها فلابد من عمل كبير وفي شتى المجالات حتى يوازي ما سبق أن قام به سكانها. أما الأجزاء التي أعتقد بأنّ اهتماماً كبيراً يجب أن يُوجّه إليها فهي قلعة كيلاهي دو ختر والمواقع البارزة للبيوت القديمة في المدينة المهدمة وأرض الكهف حول التمثال، وهناك أيضاً الآبار والقنوات الفرعية والتي من الضروري اكتشافها ومعرفة المزيد عنها، بالإضافة إلى العديد من الكهوف الأخرى إلى جانب الكهف الكبير والتي تستحق التنقيب والبحث.

أما قلعة كيلاهي بيسار فلا أهمية لها ولكن البرج على قمتها تستحق الاهتمام والتقصي، ولا شك أن قاع النهر يحتوي على أمور

Twitter: @alqareah

في غاية الأهمية. ويقول سكان قرية «نور الله» القريبة من شاهبور بأنهم وجدوا قطعاً نقدية في العديد من الأماكن داخل النهر مع أن كلامهم هذا في حاجة إلى التمحيص والتحقق منه، إذ ربما جاء قولهم عن وجود نقود في بعض الأجزاء أو ببقع من النهر نتيجة افتراضات أو أوهام خيالية لا تستند على واقع أكيد. ومع ذلك، ومما لاشك فيه أن ثمة قطعاً ذهبية وفضية وقد شاهدتها بنفسي.

على أية حال سيجد عالم الآثار هنا مجالاً بِكراً لم يطأه أحد ويحتوي على كنوز تستحق الاكتشاف.

لقد كانت الأيام الأربعة التي قضيتها في شاهبور في غاية الأهمية، وقد غادرتها ومشاعر النهم وعدم الرضا تغمرني والأسف يعتريني. وفي يوم المغادرة اختفت الشمس على مضض خلف بعض الغيوم، حيث تساقط منها مطر بارد جعل اللوحات القديمة أكثر وضوحاً وتمييزاً. لقد كان منظراً مؤلماً حزيناً يعكس بطريقة أو بأخرى قصة وتاريخ المكان، قصة الاضمحلال والانعزال. خَيَّم الظلام على كل شيء، وعندما مررت عند الصورة الفخمة المنقوشة على اللوحة الأولى وتراءت لي صورة الروماني الخانع الراكع على ركبتيه طلبا للرحمة تساقطت قطرة ماء على خده، وإذا ما سرح الخيال قليلاً ستتحول إلى دمعة حزينة تذرفها العين.

Twitter: @alqareah

6

ركود الحاضر

أيرام اختفى مع كل جواهره وكأس جامشيد يدق
سبع نبرات لا يعرفها أحد، لكن ياقوتة ما تزال
تشع في الكرمة وتنمو الحدائق الغنّاء بالماء
الوفير.

فيتزجيرالد: عمر المختار

هل ثمة ما يدعو إلى المزيد من الاشمئزاز المشوب بالكآبة من أن تستيقظ في خضم الظلام في صباح أيام الشتاء في واد بارد يغمره الثلج، ويدوي صوت المطر الغزير يلفحه الريح الثلجي نحو الخيمة التي تتمدد داخلها، وتتوقع بين لحظة وأخرى سقوط سقفها الهش وسحقك؟ هكذا كان وضعي في الساعات الأولى لليوم الذي قررت فيه مغادرة شاهبور.

تراءت لي أوهام عن اقتلاع أوتاد الخيمة وتكسر أعمدتها وانهيار أشرعتها. في مثل هذه الحالة المرتبكة والوضع القلق في تلك اللحظات الحرجة، فكّرت ملياً فيما إذا كان بالإمكان الاستسلام لمثل هذه المخاوف ونزع ملابسي لأخرج مسرعاً خارج الخيمة في الظلام لأضمن سلامتي، ثم أعود مرتجفا أجفف فراشي مرة أخرى (وهذا مفضل دائماً على ارتداء ملابس مبللة أكثر في مهمة

Twitter: @alqareah

الاستكشاف)، أو أن أتمدد مستكيناً واضعاً ثقتي بالعناية الإلهية. وأخيراً استسلمت للاختيار الثاني حيث أوقفت العناية الإلهية المطر حتى طلوع النهار. ثم اختلست النظر إلى الخارج فوجدت أن العديد من أوتاد الخيمة قد قلعت وأطراف الخيمة قد تهدلت على الأرض وأن الصرح كله في حالة يرثى لها. ورغم الجهود التي بُذلت لإعادة الأمور إلى نصابها، وبينما كنت أتناول وجبة سريعة من الثريد البارد مثل رجل نرويجي عجوز، حدث شرخ مشؤوم أدى إلى سقوط الخيمة برمتها علي. صرخت على كيشنا وكاليجار وعلى أي شخص آخر، وقد تمكنت من المحافظة على الأشياء حتى وصلوا. مرة أخرى أعيد تسوية الأمور وابتدأت عملية الرزم بسرعة، ولكن مع الأسف حدث تهشم أثناء العمل حيث كُسر عمود الخيمة إلى قسمين، وقد أمسكته بيدي عند سقوطه حتى تخدرت أصابعي من شدة البرد والرطوبة. وفي الوقت ذاته تم التخلص من كل الأشياء وإلقاؤها على الأرض المشبعة بالماء ووضع قطعة نسيج مقاوم للماء على الأشياء الثمينة. وبعد ذلك تَمَّ تحميل البغال في عملية متعبة وباردة، وأخيراً كانت قافلتي على أهبة الاستعداد للانطلاق حيث باشرنا المسير وسط الأمطار لمسافة خمسة عشر ميلاً.

لقد كان سهل كازيرون الذي أخترقه الآن للمرة الثالثة من أروع وأبهى المناظر الطبيعية وهو ما كنت قد عرفت بلاد فارس من خلاله، وعلاوة على ذلك تشكل الجاذبية للمناطق الأثرية وإغراءاتها تناقضاً ممتعاً مع الصحارى والمناطق الجرداء المنعزلة في أقصى الجنوب.

فالقنوات المائية تحدها حواف مغطاة بنبات البردي، وتزين السهل الفسيح حقول زراعية وحدائق غنّاء، وليست هذه الأماكن الجذابة وحدها في السهل، فهو غني بوسائل الصيد حيث يجد الرياضي فيه طائر الشنقب والبط والإوز والزقزاق وكلها تثير بهجة وتوفر له طعامه.

ومن مفارقات القدر، أنني حالما وصلت إلى هذه الجنة النسبية

Twitter: @alqareah

لم تنطلق بندقيتي صوب هذا الكم من الطيور، إذ لم يبق بحوزتي سوى مخزنين ينتهيان بقطعتين خشنتين من الخشب. ويبدو أن تلك الحقيقة قد أدركتها الحيوانات في الحال، فقد أصبحت لعبة المكان مصابة بعدوى الأشرار الحاقدين. حيث صعد طائر الشنقب على قدمي وأخذ يشق طريقه بهدوء وتثاقل نحوي، وصار البط يطير على مسافة أقدام قليلة من رأسي ويسبح في بحيرة قريبة مني، وكان طائر الزقزاق يجلس على قارعة الطريق يتفحصني دون خشية أو فزع من مروري قريباً منه.

انقضى يوم ثم تمكنت من أخذ بندقيتي إلى السوق في كازيرون حتى يكون لدي ما يكفي من الذخيرة عند عودتي إلى شاهبور. أخذت أفكر بينما طائر الشنقب يقفز حتى يصل إلى أنفي والبط يطير فوق رأسي والزقزاق جالس ينظر إلي. ولكن وللأسف الشديد، كنت قد أغفلت المصاعب والاعتبارات المهمة كما أغفلت أساليب الصناع الفارسيين. وعندما اتجهت نحو الرياضة عزلت نفسي عن قافلتي ومشيت منتظراً الفرصة لأطلق طلقة من بندقيتي المرتكزة بتثاقل على كتفي. وبقيت مستقرة كذلك حتى اقتربت من ذلك الجزء من السهل الذي أهانتني فيه الطيور الآنفة الذكر. وبدون إنذار مسبق سقطت مخازن البندقية على الأرض خلفي، وبقيت أواصل سيري كالأبله ممسكاً صديقي القديم تلك القطعة المكسورة من أخمص البندقية.

عندما فكرت ملياً في الأمر لم أُدهش لما حدث، لأنني اكتشفت أن القطعتين قد ثبتتا بطريقة ذكية بوساطة الصمغ فقط، وهي نموذج للعمل الفارسي المعتاد.

وبطبيعة الحال أصبحت اللعبة أكثر اشمئزازاً وبُعداً عن الموضوع الأساس من ذي قبل، وزادت نفسي كآبة عندما تصرف طائر الشنقب كحارس متقدم لمسيري، يطير أمامي مسافة عشرين ياردة ثم يقف ويعود ليكرر العملية عندما تضيق المسافة بيني وبينه. الأمر الذي جعلني لا أتحمل ذلك وقد فكرت بيني وبين نفسي كيف يمكنني أن أوقفه عند حده وهكذا حشوت طلقتين في مخزن

Twitter: @alqareah

بندقيتي المكسور، وحال نهوضه صوّبت نحوه ولكني أخطأته. لكنه على أية حال لم يعد يسخر من مشاعري. بقيت طلقة واحدة في المخزن، وفي الوقت الذي طار سرب من البط النهري فوق رأسي قمتُ بالإطلاق عليه حيث أسقطت اثنين من السرب كتعويض عن الألم الذي لحق بيدي وبهذا ضمنت وجبة عشاء الليلة وأخرى لليلة القادمة.

وعند عودتي من رحلتي أثناء المطر كان الطقس وحالة بندقيتي قد منعاني من التفكير في رياضة الصيد ما عدا يوم واحد اقترضت بندقية للاصطياد فيه، وكان علي أن أحجم عن ذلك حتى وجدت أخيرا في شيراز عاملاً تمكن من استبدال الأخمص بواحد جديد.

أحاطت الحدائق بكازيرون من كل جانب وهو أول منظر نشاهده خلال رحلاتنا. لقد كنت أتطلع إلى معرفة الأماكن التي تكثر فيها الورود وطائر العندليب، والتي تغنَّى بها عمر الخيام وفيتزجيرالد بقصائد وأغنيات مألوفة للقلوب والعقول. من إذن قد لا يكوّن صورةً للشاعر الفارسي وهو يتشمَّس بنشوة في مكان منعزل حيث يجلب النسيم البارد عطر الورود له وكأس الخمر بين يديه، وربما شيء أكثر من رغيف الخبز قد يكون من المؤكد «صاحبٌ» له في خلوته البهيجة. وهنا تتدفق الأفكار التي تأسر القلوب وتأخذ بألباب الأجيال؛ ولكني لم أقم بزيارة هذه الأماكن في الشهر الذي تتفتح فيه الزهور. ولكن حتى في فصل الشتاء لم يغب السحر والفتنة عن الحدائق الفارسية ولم تتخلَ يوماً عن بهائها.

اعتقد لو طُلِب مني أن أرسم منظراً فارسياً تقليدياً، فسيكون سيمفونية ناعمة تمتزج فيها الألوان السمراء والداكنة مع الخضراء وتحيط بها التلال الوردية الضبابية والسماء الزرقاء. وعلى اليمين سيكون هناك بستان من أشجار التنوب أو ربما من أشجار النخيل وفي وسط الصورة تنتصب حديقة فارسية. وسترتفع الجدران السمراء العالية المغطاة بنبات العسلوج المتسلق إلى الأعلى

Twitter: @alqareah

والمحاطة بأشجار السرو الفارسية المتألقة من مقبرة إسلامية مكشوفة تحتوي على قبور مهدمة وأكواخ صغيرة للموتى حيث يشكل مقدمة الصورة. وعلى اليسار سترى أثراً متعرجاً يخترق سهلاً ترابياً ويختفي عند خط بعيد من التلال الوردية اللون.

دعنا نتمعَّن في الصورة ونلتقط ممراً بين القبور الصغيرة ونتخذ طريقنا صوب المدخل العريض لبيت البوابة الخارجية المربع الشكل، والذي يمثل الثغرة الوحيدة في رتابة الجدار الأسمر. ربما هناك حارس لمدخل حديقتنا ـ رجل فارسي وقور نصف نائم في إحدى زوايا الغرفة الصغيرة المظلمة. فإذا كان موجوداً، فمن المؤكد سيخرج وينحني باحترام وأدب جم أمامنا، يرحب بنا ثم يعود ثانية.

يسود الهدوء داخل الجدران المربعة ولكن يمكنك أن تفعل ما تشاء خارجها. ممالك تنهض وتهوي، رجال يعيشون ويقاتلون ويعشقون ويموتون، ولكن داخل الحديقة الفارسية هناك الشمس وأشجار البرتقال والورود. إنه مكان شرقي المحتوى. هذا المحتوى لا يتأثر بالزمن والأحداث ولكنه يعيش ويعمّر حتى يخر صريعاً أو طريحاً في النهاية ويتلاشى. فهذه الجدران الشاهقة تبعد الضوضاء وأي نشاط صاخب للعالم الخارجي، والأصوات الوحيدة التي تخترق السكون المطبق هي طنين النحل وأغنيات طيور العندليب.

في مثل هذا المكان، تتخذ حضارة الشرق معنى جديداً، ولا غرابة أن الرجال في هذه البلاد العجيبة راضون بالعيش بسلام وقانعون بترك بقية العالم يقاتل بعضه البعض من أجل لا شيء يُذكر يمكنهم تحقيقه.

كان عمر الخيام على صواب عندما قال:

لا يقلقك الإنسان أو السماء.
غداً تكتسح الرياح دواعي النزاع

Twitter: @alqareah

وتفقد أصابعك في ضفائر
أشجار السرو الرقيقة لسيدة النبيذ.
فإذا ما انتهى النبيذ الذي تشربه
والشفاه التي تلعقه،
من حيث يبدأ وينتهي كل شيء،
فكِّر إذن أنك اليوم كالأمس
ولن تكون أحسن حالاً غداً.

ليست حدائقنا أنيقة ومنسقة كالحدائق الإنكليزية ذات الممرات المنظمة والمروج المخضرة. إنها ممرات غير منسقة تحيط بها أشجار البرتقال وشجيرات أخرى، فهي مجرد برية منعزلة للاستجمام والراحة. حتى في الفصول الجافة تجد البرتقال يتدلى من الأغصان ليكون متعة للناظرين، ولكن في فصل الربيع اللطيف والمنعش يعبق الجو برائحة الورود.

أما فصل الصيف الملتهب بحرارته المرتفعة فتكون الحدائق خالية من الحركة عدا بعض الزوايا حيث برك الماء تستهوي النظر وتجلب الانتعاش، إذ بإمكان المرء أن يتمدد أو يغفو من عناء يوم قارص. أما في المساء وعندما تغيب الشمس ويطل القمر الشرقي فوق التلال السوداء ليغمر الحديقة بأكملها بفيض فضي من الضوء ويلقي بظلاله المورقة على الممرات البيضاء، وعندما ينفث الهواء ما به من حرارة ويداعب الوجه بنعومة دافئة، من إذن لا يتمدد ويستكين في حدائقنا ويحلم بهذا العالم وما بعده!

تذكرت أول زيارة لي إلى الحديقة الفارسية، لا أزهار، ولا طيور العندليب، كان هناك البرتقال فقط والممرات الصغيرة والشجيرات النامية وأشجار السرو، وكانت الشمس تتسلل خلال الأغصان لتلمّع الفواكه بين الأوراق الخضراء في ضوء الشمس. ياإلهي كان الجو حاراً وكنت ظمآناً ومع ذلك لم تكن حديقتي ولم أكن

Twitter: @alqareah

أعرف التقاليد الفارسية، حيث وقفت مثل قفتالوس تماماً أُحَدِّق إلى الوليمة فوق رأسي. وأخيراً اقترح مضيفي الفارسي فجأة بأن أتذوق طعم برتقالة. في البداية كانت نكتة حقيقية فقد قدم لي والابتسامة تعلو وجهه شيئاً صغيراً زكي الرائحة والشكل والذي ما إن قضمت جزءاً منه حتى اكتشفت بأنه يناقض مظهره. ولكن انتظرْ لحظة. إذ بينما كنت أقدِّم التهاني له بدأتُ أشعر بالمرارة في فمي بل أشد مرارة من الدواء أو أي شيء آخر. وقد أغفلت التهاني بهذا الفيض الغزير من المرارة في فمي وعلى شفتي بسبب هول المفاجأة وليس قلة من أدب. هذا الرعب الذي انتابني أسرَّ مضيفي الذي ضحك بصوت هادر لنجاح حيلته وقام على الفور بتقديم برتقالة ذات مذاق شهي مما دفعني إلى مكافأة شهيتي وتعويض عبثه معي بأكل ثلاث برتقالات أخرى.

وبعد فترة وجيزة من ذلك النهار جاء دور الرمان. بالنسبة لي يُعَدُّ الرمان منافساً للفراولة حيث إن الله في الواقع ربما كان قد خلق فاكهة أفضل منهما ولكنه لم يفعل. ولا يجوز للمرء أن يكوِّن فكرة عن الرمان من عينات بائسة يصادفها في بلاده. ومن العدل أن نحكم على سمك السردين من خلال سمكة السلمون المملحة والمدخَّنة.

إن تناول رمانة في موطنها الأصلي وفي يوم حار أمر يظل المرء يتذكره. كما إنه أمر يفعله المرء بصورة خاصة. هناك قول بأن السفرجل الهندي يجب أن يُؤكل في الحمّام. فلا شيء أكثر ملاءمة من الرمان. حقاً، إن بعض الناس يقومون بتقشيره وتناول حبه الأحمر أو الوردي بالملعقة وهم بهذا يضحون بطعمه ونكهته من أجل المحافظة على الأدب الجم. فالحقيقة كما أرى هي أن الرمان يجب أكله سِرّاً. فهناك وسيلة واحدة مرضية وهي الوسيلة التي هيأتها لنا الطبيعة بكل وضوح ولا تحتاج إلى أي تطبيق للوسائل الحضارية. خذ الرمانة بين يديك واستعمل أداة حادة لإحداث فجوة فيها، ثم تعامل معها كما يتعامل الطفل مع البرتقالة وذلك بامتصاص عصير الفاكهة بالفم. ففي هذه الطريقة لن تفسد

Twitter: @alqareah

النكهة باستعمال أداة معدنية، كما أنك تتجنب مغبة مضغ بذور الرمان وتلطيخ أجزاء من الوجه ببقع حمراء. هذه هي أفضل طريقة لأكل الرمان.

تمتعت في كازيرون بأول وجبة عشاء فاخرة لم أتناول مثلها منذ وصولي قبل عدة أيام، كانت في الحقيقة حفلة أقيمت على شرف الرجل الكريم المسؤول عن الشؤون البرقية هنا. لم أكن الضيف الوحيد وإنما كان هناك رئيس الأساقفة الأرمني وحاشيته الذين كانوا يقومون برحلة إلى منطقة الخليج ومنها إلى الهند، وكانت هذه الشخصيات قد تشرَّفت بحضور الاحتفال معي حيث جلس على الطاولة نفسها إلى جانبي رئيس الأساقفة نفسه ومساعده الأب يعقوب وقس آخر ومضيفنا.

كان رئيس الأساقفة رجلاً نبيلاً لطيفاً كبير السن وينتمي إلى جماعة البطريركية وله لحية سمراء. لم يكن بوسعه التحدث بالإنكليزية ولذلك كانت كل أحاديثه واتصالاته تتم عن طريق الأب يعقوب الذي كان ينوب عنه في الحديث أثناء تناول العشاء. كما تحدث مضيفنا قليلاً بينما انغمس القس الآخر في الإصغاء وتناول الطعام.

كان تقدير الأوضاع الصعبة التي تطرَّقنا إليها أثناء حديثنا وخاصة تلك المتعلقة بالآثار ممتعاً ومسهباً. إنّ أية محاولة للتعليق كانت عملية معقدة فرئيس الأساقفة ينظر إليَّ كما أنظر إليه ولا أفهم من كلامه شيئاً، ثم نستدير معا صوب الأب يعقوب الذي يقوم بعملية الترجمة بمساعدة مضيفنا. وبعد أن أكوّن فكرة عن ملاحظة رئيس الأساقفة أقوم بالتفكير بالإجابة عنها ثم ننظر إلى بعضنا البعض، وبعد أن أقول الجواب نلتفت معاً نحو الأب يعقوب وننتظر الترجمة والتفسير منه. كان عملاً وقوراً إلى حد ما، ومن الصعوبة بمكان عدم الإحساس بتفاهة الملاحظة التي تُسمع حول المائدة وتُقال مقنعة بعدة لغات.

Twitter: @alqareah

كان العشاء وكما أسلفت حضارياً مع أنه لم يكن أوروبياً. وفي الحقيقة كان عشاءً فارسياً على درجة عالية من الجودة والذوق الرفيع. ففي البداية أحضروا لنا طَبقاً من «الفسنجون» ـ ديك مُسمّن مشوي ومحشوّ بعصير الرمان والجوز. كان هذا أهم وألذ عنصر في المائدة ويمكنني أن أتذكر الخبز الفارسي الذي يتميز بطعم خاص ولونه الأسمر ودفئه ونعومته.

بعد العشاء دّخن رئيس الأساقفة النارجيلة. وتعد النارجيلة ميزة هامة في الحياة الفارسية، لذلك سأخصص الفصل القادم للحديث عنها.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

7

النارجيلة

التبغ العالي الجودة ينعش
العمل شرقا وغرباً. ويبهج
التركماني ويقسم وقته في
الدولة العثمانية الإسلامية
حيث ينافس الأفيون وزوجاته.
رائع في استنبول ولكنه أقل
فخامة وأكثر حباً على الشواطئ،
غاية في الروعة في النارجيلة
بهي في الغليون، خاصة عندما
يمتزج بالعنبر المعتق الغني
مثل الفاتنات الأخريات.
مثير للحواس، ملهب للعواطف
به تكتمل أبهتك ويتهافت
عليك العشاق والمغرمون
بجمالك المجرد،
أعطني سيجاراً!

«بايرون، الجزيرة ـ الجزء 19»

Twitter: @alqareah

يبدو أنَّه أمر غريب بالنسبة للإنسان سليم العقل أن يبحث الرجال عن البهجة والمتعة من خلال حشو أفواههم والرئتين بالدخان الناجم عن حرق ورق جاف عندما يتفضل الشخص الرئيسي بتقديمه، يستعمله الفلاسفة، ويتغنى به الشعراء. فمن إذن ينتقد هذه العادة؟ من المؤكد أن لا أحد في بلاد فارس يجرؤ أن يتهم من يتعاطونه بانتهاك التقاليد أو الحرمات المقدسة. فمنذ العصور الغابرة استسلم الفارسي لسلطان التبغ وبهذا يشهد تافيرنير «كان الفرس رجالاً ونساءً على حد سواء مدمنين على تعاطي التبغ وإذا ما حاول أحد منعهم فكأنه يأخذ أرواحهم منهم. فإذا ما حاول الملك أن يمنع التبغ في وقت من الأوقات عنهم فإنه سيفقد جزءاً كبيراً من حاشيته ومريديه. على أية حال عندما مَنَع «الشاه سيفي» ذات مرة تعاطى التبغ في أي جزء من الأرض الواقعة تحت سلطته، اكتشف جواسيسه المنبثون في كل مدينة أن تاجرين في الفندق الهندي كانا يدخنان فألقوا القبض عليهما واقتادوهما إلى الملك الذي أمر بمحاكمتهما علناً في الميدان العام حيث صُبَّ الرصاص المذاب في حنجرتيهما حتى فارقا الحياة. وهكذا كان للتبغ شهداؤه أيضاً».

ويضيف الرحالة: «يمارسون الجنس وهم يدخنون التبغ من خلال قارورة مملوءة بالماء حيث يصعد بارداً إلى أفواههم ومع ذلك فهم لا يستطيعون تعاطيه طوال النهار، ولكنهم مغرمون به ويتبادلون الأحاديث السمجة ويرددونها بكل خفة وابتهاج. ويدمنه الرجال والنساء على حد سواء حتى أن الرجل الذي يبلغ دخله خمسة بنسات مثلاً يصرف ثلاثاً منها على التبغ، ويعتقد الكثيرون منهم أن التبغ مضر بالصحة ولكنهم معتادون عليه ولا يمكنهم الإقلاع عنه».

أثناء رحلتي القصيرة حاولت جاهداً أن ألاحظ وأُبينّ تفاصيل هذا القدر المهم من الحياة الفارسية. تُمثِّل النارجيلة أنبوباً فارسياً وطنياً وتعاطيها يعكس عادة مستحكمة. لقد اشتريت واحدة عندما

Twitter: @alqareah

كنت في بلاد فارس وجلبتها إلى وطني حيث استعملها العديد من الناس وبتأثيرات متباينة، إذ أن معظم المدخنين وبعد نفخات قليلة أصابهم الذهول وفق تبريرات واهية. إذ لابد من التأقلم قبل التمتع بتدخين النارجيلة، وعندما يتم إدراك خصائصها ويعتاد المدخن على فن ممارستها فهي بدون شك وسيلة منعشة وباردة لاستخدام وتعاطي التبغ.

تشبه النارجيلة في شكلها الخارجي مُركباً متكوّناً من جرة وعصا المشي، ويعلو هذا المُركب مجمرة مصغرة مملوءة بالتبغ والفحم. كانت النارجيلة التي يُدخن منها رئيس الأساقفة كبيرة من النحاس والخشب ويبلغ طولها ثلاثة أقدام وفي قعرها إناء فضي يشبه القارورة يحتوي على الماء، وتخترقه سدادة تتصل بأنبوب خشبي يمتد إلى الماء ويرتفع إلى الأعلى تزينه من الخارج نقوش متنوعة، حتى ينتهي برأس فضي مجوف يحتوي على قطعة واحدة من الفحم الموضوع عبر الفتحة المؤدية إلى الأنبوب نفسه، ثم يُملأ بعناية بكومة من التبغ، وأخيراً يشعل الفحم الكائن في الإناء الفضي الدائري، ومن هذا الإناء الفضي يبرز مِبسم يبلغ طوله قدمان وهو الذي يوضع في الفم.

من أجل الاستمتاع بالتدخين في بلاد فارس، وحالما تكون النارجيلة جاهزة (وهي تحتاج إلى إعداد جيد ومحكم)، يضع المدخن إناءً فضياً على مسند للقدمين حتى يكون مِبسم النارجيلة على ارتفاع مناسب من فم المدخن كي يستنفذ الهواء في رئتيه ويستخدم فمه بطريقة مريحة. ثم يسحب نَفَسه بكل قوة وتسمع فقاعات الماء، وبعد ثلاث أو أربع استنشاقات قوية يشعر بالارتياح والرضا حين يملأ فمه ورئتيه بالدخان (ومن الجدير بالذكر أن لا أمل في تدخين النارجيلة بدون الشهيق). ومن الطبيعي أن ينزل الهواء خلال الفحم والتبغ إلى المدخنة الرئيسية ثم إلى الماء، محدثاً فقاعات تأخذ طريقها إلى فم المدخن.

إن تجهيز النارجيلة يعد عملاً فنياً. وغالباً ما يلجأ كبار السن

Twitter: @alqareah

من الفرس إلى البحث عن خبير ـ رجل أو فتى ـ تنحصر مهمته في تجهيز وإعداد النارجيلة لهم، وهذا المختص بالنارجيلة غالباً ما يكون وضيعاً أو لا أهمية له في العائلة. هناك توجيهات لابد من اتباعها وهي تحتاج إلى فنان كي يطبقها بنجاح تام.

عادة ما يكون التبغ شيرازياً محلياً وهو من نوعية خفيفة داكن اللون، جاف وغير حاد. يوضع المسحوق بعناية في صحن صغير ثم رطبه حتى يتماسك. وبعد ذلك، املأ الإناء الشبيه بالقارورة في قعر النارجيلة بالماء حتى تتصاعد الفقاعات منه وتتأكد من كمية الماء فيه وصلاحيتها لعملية الاستنشاق المريحة. فإذا ما كانت القارورة مملوءة بالماء فإنه سينساب من الأنبوبة في حال النفخ فيها ويتساقط على الأجزاء الخشبية، كما إن السدادة المكونة من القماش المضغوط المحيطة بقاعدة الأنبوب التي تلتصق بفم الخزان يجب ترطيبها كي تسد الفتحة سدّاً محكماً. ثم املأ وعاء التبغ وهنا تكمن المهارة في الاستعمال. عليك أن تختار قطعة صغيرة من الفحم البارد بحيث تكفي لإلقائها في المدخل الضيق وتثبيتها حتى لا يسقط الفحم على الأنبوب الرئيسي، ثم اسكب التبغ الرطب بالتساوي في الوعاء. يجب أن يكوّن كتلة ترتفع حوالى بوصة عن الحافة، ثم اضغط التبغ بخفة إلى الأسفل بوساطة أصابع اليد تاركاً قدراً منه في الوسط غير مضغوط. وبعد الانتهاء لابد من وجود مستوى مرتفع حوالى نصف بوصة من فوق الحواف ونتوء صغير في الوسط، ثم ضع قطعاً صغيرة من الفحم داخل الوعاء فوق النتوء المكون من التبغ.

الآن بوسعك أن تسحب نفسك وبعد دقيقتين تقريباً ستستهلك كمية كبيرة من التنفس دون جدوى، وأخيراً ستحصل على ملء فمك من الدخان البارد. إن نارجيلتك مشتعلة تماماً. وبطبيعة الحال فإن التبغ الذي في الوسط يتم استهلاكه ويمكن للكمية الموجودة على الأطراف أن تستخدم مرة أخرى ولكن ليس دائماً، لأن ذلك سيؤدي

Twitter: @alqareah

إلى إتلاف النارجيلة كما أن عدم تنظيفها باستمرار سينجم عنه عطلها.

ليست النارجيلة وسيلة تدخين شخصية مثل الغليون، إذ بعد حفلة عشاء يمكن استخدام نارجيلة واحدة من قِبل مجموعة كاملة. فهي تقدم من ضيف إلى آخر ويقوم المضيف عادة بمهمة إعدادها وإشعالها حتى تكون جاهزة للاستعمال، وعند الانتهاء من استعمالها جرت العادة أن يقوم المدخن بمسح طرف الأنبوب وسحب الهواء عدة مرات حتى يتأكد من دخول الهواء النقي إلى داخل القارورة السفلى.

هذه هي طبيعة وطريقة وعادة الغليون الفارسي.

بالنسبة لي شخصياً أؤيد بايرون وأقول: «أعطني سيجاراً».

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

8

على قارعة الطريق

«امتدت الأرض يميناً وشمالاً
صورة حية تنبض كل أجزائها
وتصدح الموسيقى حين تريدها
وتتوقف عندما لا ترغبها.
إنه صوت الطريق العام البهيج
والعاطفة الحالمة المنعشة للطريق».

والت وايتمان

بعد أن غادرنا كازيرون وصلنا إلى ممر «الابنة» البارد والبغيض. كان بارداً عندما زرته لأنه كان مكسواً بالثلج والصقيع.

وبعد أن عبرنا طريقاً معبّداً مرتفعاً ومررنا على صورة غير مكتملة كئيبة ـ وهي تقليد لأعمال الساسانيين البديعة ـ شرعنا في الصعود. لقد كان الطريق عملاً فنياً يمتد عبر جروف صخرية، ثم يتعرج باستدارة إثر استدارة حتى يندفع أخيراً عند قمته نحو قطعة أرض متموجة، حيث نشاهد منها منظراً يعوضنا عن التسلق المضني والمؤلم.

Twitter: @alqareah

وبعد أن أنجزنا مهمة السير في ممر «الابنة» بقي علينا تجاوز الممر الأخير «ممر المرأة العجوز»، وبين المرأة العجوز والمرأة الشابة هناك واد صغير تكسوه بكثافة أشجار البلوط والتي تشكل راحة نفسية للرجل المتعب والحيوانات قبل الشروع بالصعود الثاني. لم يكن ذلك المرتفع منحدراً بشكل حاد مثل المرتفعات التي سبق أن واجهنا ولكنه يستعيض عن ذلك بالرداءة والخشونة الكاملة للطريق. ففي منتصف الطريق أعلى الممر يوجد خان «ميان كوتال» الصغير، وعندما وصلناه في نهاية يومنا الشاق غابت الشمس بجلالها الفضي وغلالتها الخضراء والزرقاء، وكان الهلال الذي طال انتظار بزوغه متعلقاً بالسماء الأرجوانية ليبيِّنَ انتهاء شهر رمضان، وكان وميض الثلج فوق التلال المحيطة ينذر بليلة قارصة البرد.

هنا حيث لم أتمكن من استخدام تلغراف دار الاستراحة، كان عليّ أن أستفيد من كرم الضيافة التي يقدمها «الخان» الفارسي إلى المسافرين.

بالنسبة للمسافر الأوروبي، ثمة شيء غريب ملفت للنظر بالنسبة لفكرة فتح دار الاستراحة العامة أبوابها لكل عابري السبيل بدون استثناء، فالأمير، والمتسول وابن البلد والأجنبي، لرحلاتهم النهاية نفسها ويتمتعون بوسائل الراحة ذاتها عند استقبالهم، ولا عجب أن العقل الفارسي قد شبّه الحياة بالرحلة، والموت بالخان الذي سيصل إليه الجميع عاجلاً أم آجلاً. حيث يتساوى الجميع من كل الطبقات وفي مختلف الظروف والأحوال.

تَخيّل ساحة مربعة تكسوها القمامة وتتجمع فيها مختلف أنواع الحيوانات ورزم من الأشكال والأحجام كافة، وحول الجدران الأربعة تمتد سلسلة من القناطر الصغيرة لحماية العتبات الهزيلة المرتفعة قليلاً فوق مستوى الساحة التي تقود أبوابها الضيقة إلى الغرف الصغيرة المظلمة عديمة التهوية وذات الرائحة العفنة. أما الجدران فهي من الطين ووسائل التهوية والإضاءة لا وجود لها.

Twitter: @alqareah

وفي بعض الأحيان يُستخدم صف آخر من تلك المنازل الصغيرة، وإذا كان الأمر كذلك فإنها بطبيعة الحال صالحة للسكنى ما دام الفارسي يبحث عن الراحة وليس عن المشقة، ويُفضل أن ينام بسهولة في غرفة قذرة رطبة في الطابق السفلي كي لا يتحمل مشقة البحث عن الهواء النقي والنظافة في الطوابق العليا. يمتد الطريق في الساحة خلال بوابة محددة يحيط بها من الجانبين برجان. وبطبيعة الحال لا يوجد تنظيم لأي شيء سوى المبيت فقط، فالخلايا الصغيرة خالية من أي شيء عدا القذارة والعفونة، وكما عَبّر عنها «فراير» بلغة ترن في الأذنين والتي ليست مؤثرة وقوية للظروف الحالية في بلاد فارس.

«إن القدوم إلى خاناتنا لا يستدعي أي وسائل للترحيب، فنحن لا نقدِّم أثاثاً، كل ما نقدمه جدراناً جرداء وغرفاً فارغة ولا وسائل تسلية. لا مناضد ولا خدم يقومون على راحتك وعوضاً عن ذلك، هناك غرفة يعلوها التراب وتملؤها القذارة وطنين الحشرات المنتشرة في أرجائها تلسعك وأنت مستيقظ وتحرمك من النوم وتعدمك الراحة والهدوء، وبذلك لن تتحقق لك الراحة مادام الذباب والنمل وشتى الحشرات المنتشرة والقاذورات تفرش الأرض وبدلاً من الحصول على وقت ترتاح فيه بعد رحلة مضنية ستزداد تعباً وقلقاً وإزعاجاً.

ربما كانت جدران الغرف أكثر إشراقاً ومنفعة من أي جزء في الخان.

منذ أن تعلم ساكن الكهف في مرحلة قبل التاريخ حفر صور غير لائقة للحيوانات على جوانب مسكنه كانت عادة ترك بعض النقوش لتشير إلى وجوده سائدة في تلك المرحلة، وأصبحت عاطفة للإنسان (وعندما اكتشفت جنة عدن كان اسم آدم منقوشاً على مكان بارز فيها). وفق تلك العادة المؤكدة للإنسان القديم فإن المنافسين الفُرْس الآريين حفروا الأرض ونقشوا عليها ليبينوا لمن سيأتي

Twitter: @alqareah

بعدهم بأن أسلافهم كانوا موجودين هنا، وبهذا يُثبت صديقي الفارسي تفوق جنسه الآري في مكان النقش ومادته. وبدلاً من تدنيس كل الأشياء بدون تمييز اعتباراً من الأوتاد الخشبية لقطعة الأرض المسيجة حتى التمثال الذي يحمل القلم، فالفارسي قد بذل جهده لجدران المبنى أو لأي مكان بسيط آخر بدلاً من تدنيس المكان وتشويهه بنقش اسمه غير المهمّ أو بعض العبارات السمجة، حيث سجل بعض الأبيات الشعرية لشاعر كبير أو قام بنفسه بتأليف بعض الأبيات المستوحاة من محيطه مراعياً في أغلب الأحيان عدم ذكر اسمه تحتها. وهكذا، كانت جدران الخان كالكتاب من أي مكان تدور حولها تجد شيئاً تقرأه، ويمكن للإنسان أن يفعل أي شيء إلا أن يؤلف مجموعة من المقاطع الشعرية المؤلفة من بيتين، أو أكثر أو حتى جُملاً مختارة قصيرة عن تلك الأماكن والظروف الطبيعية.

من بين الأسطر المكتوبة بالحروف العربية المدوَّنة التي كانت منقوشة فوق رأسي أعلى فراشي البسيط في خان «ميان كوتال»، استرعى انتباهي مقطع شعري من بيتين، ومع أنني لم أستطع ترجمته إلا أنه أثار اهتمامي وفضولي، ولذلك دعوت «سيف» لترجمته وتفسيره لي بكامل معناه. لم يكن هناك اسم وتاريخ. وأُقدِّم هنا ترجمة للكلمات وتفسيراً لها وفق الأوزان الشعرية لعمر الخيام:

«حيثما حللت وفي أي دار سكنت
سأكتب بدمع عيني: جفاني محبوبي
ومهما ابتعدت أو رحلت وحيداً
سأنزل في مسكن وأكتب
بدمع عيني: هنا أسكن أنا
وأنت يا محبوبي».

هذه القصة تستحق الإصغاء إليها، وعلى أية حال استغربت وأنا في حالة نعاس شديد من العاشق الفارسي المهجور من حبيبته. أين هم الآن هذان العاشقان؟ هل كانت جميلة؟ هل انتهت قصة

Twitter: @alqareah

حبهما؟ هل تُوفيا منذ زمن بعيد أو ما يزالان يعيشان في إحدى المدن الفارسية يتبادلان العناق والغرام بين عاشق وعشيقته؟ وهكذا غفوت وأنا سارح الفكر فيهما وأتخيل ما جرى بينهما.

عندما يتحرر العقل كعادته من آلية العمل اليومي وينطلق غير مقيد متأملاً أرض الأحلام العجيبة، يعود ثانية ليصحو على صوت أو حركة مفاجئة وتكون النتيجة السريعة إحساساً كئيباً بعدم التهيؤ والكسل المفزع. وحتى عندما تجاوزت الصدمة الأولى وعاد العقل إلى تماسكه وتركيزه فإن الإحساس بوجود أمور وأحداث مشؤومة وغير مألوفة قد بقي يلازمني كما أصبح الوضع أكثر سوءاً. هناك أشياء غريبة تحيط بنا ورجال يتحدثون بلغات هجينة لا نعرفها، ونرى من خلال الضوء الباهت أشكالاً كئيبة ويعكس ظلالاً غير إنسانية غامضة، لذلك جلست في مكان مخصص للجلوس، وبصوت لم يكن مستعداً للكلام استفسرت عن الأمر.

تجمعت المجموعة حول سريري وتوقفت عن الثرثرة تاركة الشرح «لسيف» الذي قال: «يا سيدي، إن (خان خانا) سائق البغل سقط عن بغله بينما كان يسقي الحيوانات وهو في حالة سيئة. هل يمكنك القدوم لرؤيته وإعطاءه بعض الدواء؟ لبست حذائي ووضعت معطفي على كتفي وقادني سيف عبر الباحة القذرة إلى الغرفة الصغيرة، حيث كان أفراد حاشيتي يحسمون الأمر بأنفسهم، انحنيت تحت مدخل الغرفة ودخلت. كان الرجل المريض قابعاً في زاوية متكئاً على كيس من القش ويئن بصوت عال ومتواصل. هناك شعور غريب ومفزع بحدوث شلل رعاش قد يصيب المرء عديم المعرفة الطبية بأجزاء الجسم وأقسامه الغامضة في حالة الإصابة بحدث طارئ. إنه أمر مُبالغ فيه حول الجهل المطبق الذي يتسم به السائق المبتدئ عندما يرى السيارة تتوقف ويرفض الكشف عنها بعد ذلك بكل إصرار. فهو يعلم أن ثمة خللاً فيها ولكن أين؟ الله أعلم. سيربِّت بيده ويسحب شيئاً ويبحث بغير هدى ولكن العمل فوق طاقته. وهكذا كان حالي. هناك رجل مصاب بجرح خطير ولكن أين. لم يكن

Twitter: @alqareah

بوسعي أن أُقرِّر. ركعت على ركبتي وسألته عن مكان الألم، ومن خلال تأوهاته أشار إلى خاصرته اليمنى. لم أشأ أن أجرّه كثيراً ولكني حاولت بلطف أن أضغط بأصابعي لأحدد مكان الألم والذي تم تشخيصه بعد التأوهات المتواصلة للمريض حين اقتربت منه. وبعد برهة وجيزة توصلت إلى استنتاج باحتمال عدم وجود جرح داخلي وإنما من المحتمل أن عظمة الفخذ قد كُسرت أو خُدشت بحدة. وفي هذه الحالة كنت عاجزاً من الناحية العملية ولكني شجعته وقدّمت له بعض المرهم وقرصاً أو قرصين من السلفا لجعله ينام والإسهام في معالجته وتخفيف ألمه، إذ يعتقد الفارسي بالدواء أكثر من إيمانه بالأطباء. ثم حمدت الله أنّ الأمور لم تتطور إلى الأسوأ وعدت إلى فراشي وقد زال عني طيف الكابوس المزعج.

وفي اليوم التالي ساءت حالة (خان خانا) وكان لابد من نقله أثناء المسير في النهار، وكانت كل حركة تسبب له المزيد من المعاناة والتأوهات والأنين. لقد تقاسمت مع سيف ركب الفرس حتى يستطيع الركوب طوال الطريق، ولكن قَطْع مسافة عشرين ميلاً في طريق غير معبّد وغير منتظم على السرج وبعظمة الفخذ المكسورة يعد تجربة مريرة ومروعة. وعندما وصل الفتى أخيراً إلى داشتي أرزن كان في حالة إعياء شديد بسبب المرض والتعب والحركة.

في هذا اليوم الذي بزغ فجره صحواً، كان عليّ الوصول إلى أعلى قمة مخترقاً جبال إلبورز حتى بحر قزوين. كنا قد تسلقنا بكل ثبات وأناة وصعدنا المدرجات الضخمة حتى أصبحنا على بعد عدة آلاف من الأقدام فوق البحر. وكان كل ما حولنا كتلاً لزجة من الثلج والطين المجمّد حيث يغور الثلج عميقاً في الممر مما أدى إلى تعثر البغال وسقوطها عدة مرات، الأمر الذي دفعنا إلى تفريغ حمولتها وإعادة وقوفها على أرجلها وكانت الرحلة بطيئة ومضنية بشكل لا يمكن وصفه. وأخيراً وصلنا القمة ونظرنا إلى سهل فسيح يكسوه الثلج وعلى جانبه الأيمن بحيرة منعزلة متجمدة تماماً. وعلى امتداد البصر أمامنا، وخلال الصحراء البيضاء المترامية الأطراف، لاح لنا

Twitter: @alqareah

خط أسود لممرنا الصغير حتى تلاشى كلية وانعدمت رؤيته بسبب المسافة الشاسعة. وإلى الأسفل صوب هذا السهل اتخذنا طريقنا حيث إن عملية نزول الممر أكثر يسراً وسهولة من صعوده. كانت حواف التلال تكسوها الشجيرات النامية ذات الأوراق المختلفة وترتفع أغصانها الجرداء الكئيبة نحو السماء الداكنة. لقد كان المنظر في حقيقة الأمر بغيضاً، وكانت قلوبنا فرحة وغمرتنا البهجة عندما مررنا بمقبرة تزينها أُسود حجرية غريبة الأشكال والنقوش، ليست بعيدة عن قاع المرتفعات الصخرية عند نهاية السهل، حيث استبشرنا خيراً برؤية النار المتقدة والمنبعثة من مكتب التلغراف في «داشتي أرزن».

نظراً لرقة وحفاوة الموظف الذي يقيم عادة في هذا المكان الصغير، والذي لم يكن موجوداً حينئذ والذي كنت قد قابلته في مرحلة مبكرة من رحلتي، فقد حصلت على ميزة الإقامة في هذا الجزء الخاص من مبنى التلغراف، وكان قد منحني سر القفل الخاص بغرفته كما أخبرني بأني سأجد بندقية تحمل اثنتي عشرة طلقة ما دامت بندقيتي الخاصة لا تعمل، وبإمكاني أن أستمتع ببعض الصيد في البحيرة المتجمّدة. وهكذا كان، والحق يقال بأنني وجدت بعض الكتب ومنها المجلد الثالث لدزرائيلي «عجائب الأدب». وهكذا التهمت دزرائيلي والعشاء معاً.

كانت البحيرة المتجمدة مكاناً رائعاً للصيد فقد كان فيها البط والشنقب والإوز، وحيثما استدرت يميناً أو شمالاً نحو الجبال كنت في غاية الاستمتاع بملاحقتها ومطاردة الوعل الفارسي أو حيوان الموفلون، وحيثما أُتيحت لي الفرصة لمطاردة النمر أو الدب. وعلى كل حال لقد جربت البحيرة، وفي الصباح التالي لوصولنا قمت برحلة قصيرة يصحبني اثنان من الفرس المرافقين لي.

أشرقت الشمس بضوئها الخافت على الثلوج الناصعة الجذابة، وبعد مسيرنا لفترة في الهواء الندي فوق الثلوج المتألقة وصلنا إلى أرض الصيد، الأمر الذي أثار البط وأفزعها وجعل طيور الشنقب

Twitter: @alqareah

المائية تختفي بين نبات البردي داخل المستنقعات التي تغطيها نباتات القصب، مما غمرنا بأحاسيس دافقة من الدهشة والذهول. أردت فقط أن أستمتع بصيد طير الشنقب، ولكن رغم كل الجهود التي بذلتها فقد اقتادني المرشدون بعيداً عَمَّا كنت أعتقد بأنه أفضل مكان لصيد الشنقب، إلى أمكنة يتوافر فيها البط والإوز كصيد وحيد متوافر بكثرة وسهولة. وبعد فترة أصبح الشك الذي اعتراني يقيناً. إذ كانوا يعتبرون الرجل مجنوناً إذا ما حاول اصطياد طيور الشنقب البائسة وغيرها من الطيور الصغيرة تاركاً طيوراً أكثر أهمية وأكبر حجماً مثل البط والإوز. وبهذا وكما هو حال كثير من الأمور الأخرى في بلاد فارس، فإن المظهر الخارجي هو كل شيء وبدون أدنى اعتبار للمهارة، فالقيمة تقاس بالحجم.

ثمة مقيمون آخرون في هذا المكان إلى جانب الطيور، حيث ألقيت نظرة خاطفة أثناء تجوالي على أجسام سوداء متحركة، والتي ظهر وكما تخيلت بأنها خنزير بري، والذي ما إن اقتربنا منه حتى قفز قفزات سريعة واختفى وسط الهور الكبير.

عندما بدأ النهار ينحسر أخذ البرد يهبط كغمامة من التلال ويغمر الأرض الواطئة والمياه. إن اختلاط الثلج والجليد والطين معاً حيث كنت أدوس طوال النهار أصاب جسمي بقشعريرة مريرة، وبعد أن وصلت إلى محل إقامتي بعد مسيرة شاقة شعرت حالما جلست قرب النار براحة لا حدود لها غمرتني بعد عمل مرهق ومردود جيد. لقد كانت المكافأة كما توقعتها، إذ بعد أن أحصيت ما في حقيبتي وجدت المجموع الكلي ثلاثين طيراً، أربع عشرة بطة وستة عشر شنقباً والتي ستهيئ لي ولأتباعي وجبات غذائية شهية لعدة أيام قادمة، والتي تكلفنا متاعب جسيمة لو قمنا بشرائها. وحالما آويت إلى فراشي لأخلد للنوم شعرت بآلام حادة في قدمي.

لقد كانت المرحلة التالية غير ممتعة وبغيضة وسط البرية والتلال الجرداء ثم حل وقت المسير إلى شيراز. فالريف هنا وفي كل الأحوال والأوقات ليس مصدراً للنجاح بأي حال من الأحوال.

Twitter: @alqareah

فهو إخفاق حتمي كمنظر وصفي إذ يمثل حلقات متتابعة من التلال الصخرية الجرداء تمتد حتى تصل إلى تلال تكسوها الثلوج، وبالنسبة للسفر والتنقل المريح على المسافر أن يقرر مسبقاً إمكانية تنقله وتعثره على طريق متعرج لمدة خمس ساعات في الوقت الذي يمكن تعبيده إذا ما تم نفض غبار الكسل والإهمال واللامبالاة. واستخدام المدحلة البخارية لتعبيدها.

لقد تغير كل هذا لمجرد النظر إلى وادي شيراز، حيث برزت أمامنا فجأة زاوية ومن أمامها وتحتها امتد لمسافة طويلة سهل فسيح طويل ضبابي تزينه قطع سوداء من الحدائق الباهرة والحقول الخضراء.

بعد يومين كاملين من المشي المتواصل إلى الأسفل، وصلنا إلى آخر مرحلة هبوط، وأخيراً إلى «خان شينار» حيث وصلت القافلة إلى مشهد من خلال مجاز ضيق تحده الأشجار إلى مسافة بعيدة ثم يندمج بالحدائق المشجرة إلى الأمام. وعلى جانبي هذا الطريق الذي كنا نسير فيه كان ينتشر في تلك اللحظة رتل من الجيش الفارسي في طريقه إلى بوشهر. واستمر مرورنا بهذا الموكب العسكري لعدة أميال، ولكن ذلك الأمر لا يعني بأنه جيش تكون من حجم غير اعتيادي. إذ ليس العدد وإنما سلطة القوات هي التي تؤدي إلى احتلال هذه المساحة الكبيرة. كانوا حوالى أربعمائة جندي فارسي، وبكل أسف لم يكن بمقدوري أن أحدد أنماطاً خاصة لتشكيلة القوة إذ لا يوجد مثل ذلك بالنسبة للعين الخارجية. فهناك مجاميع صغيرة من اثنين أو ثلاث تتجول في فترات غير منتظمة وتتسم أحيانا بالكآبة والعصبية وأحيانا بالمرح أو القنوط والترهل، ومنهم من يغني بأصوات خشنة أغنيات شرقية بائدة. كما أن أية محاولة لتحديد الزي الرسمي للجندي الفارسي قد باءت بالفشل إذ لا يوجد اثنان يلبسان الزي نفسه. على أية حال، من خلال عدة حالات للأزياء المختلفة وفق النظام المتبع، توصلت إلى الصورة التالية لما يرتديه ظاهرياً الجندي الفارسي. فالفرد (ذو

Twitter: @alqareah

اللون الأسمر يعلو فمه شارب وتغطي وجهه لحية ومتوسط القامة) يلبس على رأسه قبعة من صوف الغنم على شكل صحن بدون مقبض، وفي مقدمته يوجد شعار الأسد والشمس ويختلف في لمعانه حسب المدة التي لم ينظف فيها. أما الرداء الطويل الذي يشد بحزام حول الخصر فهو من القماش القطني الأزرق الخشن وأحيانا منقط بالأحمر، وغالباً ما يُفتح عند الملبس ليظهر وجود أو عدم وجود قميص تحته. أما البنطال الذي يبدو لبسه مسألة ذوق فردية وبدائله متعددة ليس بوسعي ذكرها، فهو من المادة نفسها ومخطط بشريط أحمر عريض. وإذا ما نزلنا إلى الأسفل تبدو العادة أن يلبس جوارب وحسب ذوق المرتدي ثم يأتي في النهاية الحذاء الرسمي. وهؤلاء الجنود المهيئون للقتال يحملون بنادق من طراز قديم على أكتافهم، أما الآخرون فيتجولون فرادى أو اثنين أو ثلاثة ويتبادلون أطراف الحديث مع بعضهم البعض بمودة وألفة. فالحقيقة العسكرية الوحيدة التي بمقدوري أن أبينها بكل تأكيد هي أنه لا توجد فرقة موسيقية، فالشكل الموسيقي الوحيد الذي صادفناه كان رجلاً يقوم بإطلاق ضوضاء صاخبة تتراوح بين نبرتين أو ثلاث، وقد مر بجانبنا راجلاً مؤدياً موسيقاه غير مدرك لوجودنا، واستمر على هذا المنوال متعثراً تارة فوق الأحجار المتناثرة معبّراً عن روحيته وخفته بإطلاق العنان لصوته وألحانه غير المتناسقة.

لقد أعطى الموضوع بكامله انطباعاً بأن تذهب في نزهة واسعة مثلما تريد وكيفما ترغب. وبعد أن قام الجيش بتجواله مدة طويلة، قابلنا الضابط القائد وهو الضابط الوحيد للمجموعة كلها. كان يستعد لركوب حصان عربي أصيل وكان أنيقاً في بدلته العسكرية مقارنة بجنوده، وفي الواقع كان شخصاً شديد التأنق. وعندما وصلنا إليه كان يقبل شخصاً آخر قبلة الوداع، وبعدها وثب صديقنا العسكري إلى السرج وانحنى ليمسك شعر عنق الحصان كما هي العادة الفارسية، ثم تراخى قليلاً بعد إعطائه الأوامر بالانطلاق.

ما ذكرناه آنفاً يجب ألا يؤخذ على أنه وصف دقيق للجندية

Twitter: @alqareah

الفارسية في ظل كل الظروف والأحوال، لأني شاهدتهم في مراسيم احتفالية حيث أظهر سلوكهم وهيئتهم تطوراً كبيراً. فالجيش إذن متشابه بشكل أو بآخر في زيه ويسير بانتظام في طوابير فردية مما يشير إلى اتباعه وبدون تردد أوامر قائده. ففي طهران كان يمشي في طوابير من أربعة جنود ولمسافة طويلة وكان منظره مثيراً للانتباه، ولكننا سنسمع الكثير عن هذا عندما نصل إلى تلك المدينة.

ليس بالإمكان تخيُّل أن الفارسي نفسه يشكل مادة سيئة للجندي. فالقبائل الجبلية ذات الاستقلالية والشجاعة النادرة إذا ما دُرِّبت تدريباً جيداً ستكون عناصر كفوءة وصلبة في القوات المسلَّحة، بينما الرجل الفارسي كنموذج إنساني يمكن أن يكون بعد العناية التامة به جندياً مفيداً. فالروح مطلوبة في الحقيقة، أما الجسم فهو قوي وإذا ما سادت الروح القوية فإن الجسم وبدون شك سيستجيب لندائها.

خيّم الظلام عندما مررنا بين الجدران المرتفعة لحدائق شيراز الغَنّاء، وحالما اقتربنا من نهاية الجزء الأول من رحلتنا كان الحدس المدعوم بقدر من الإثارة قد أدَّى تأثيره الفاعل والمذهل علينا، حيث اندفع سيف واثباً إلى الأمام وتجاذب سائقو البغال الأحاديث بحماس حتى أنهم أخذوا يغنون أغنية بأصواتهم غير المتناسقة. حتى المسكين خان خانا، الذي كان ما يزال يعاني من آلامه، ابتهج آملا الحصول على عدة ساعات من الراحة في بيت حيث لا يتحرك في الصباح التالي.

كنت قد قررت أن أقضي بعض الوقت في هذه المدينة الفارسية الحقيقية، وكنت على أهبة الاستعداد لاستئجار بيت صغير أُقيم فيه خلال مكوثي في المدينة. ولكن وبينما كنت متجهاً إلى غرفة استراحة التلغراف حيث كنت أقيم، حدثت أمور أدت إلى تغيير خططي. فالقدر الذي أدين له دوماً بالعرفان والثناء قد جلب لي صديقاً جديداً والذي أدين له ليس فقط بالخبرة الممتعة والذكريات

Twitter: @alqareah

السارة عن مدينة شيراز، وإنما للصداقة التي لن يمحوها الزمن أو المسافات.

وهكذا تغيّر مساري في الليلة الأولى لوصولنا، حيث تمتعنا بحفاوة لا يمكن وصفها إلا بكونها فريدة من نوعها حيث اتّسمت بالبذخ. سجاجيد فاخرة، شراشف أنيقة، مزهريات، أثاث، وسرير مزين بأقراص نحاسية وبهذا قضيت ليلتي في مدينة الزهور وطيور العندليب وسط تلك الأجواء الحالمة.

Twitter: @alqareah

9

مدينة الورد وطيور العندليب

«العالم كله وطن لي
حيثما أحصل على المعرفة
ومن خلال مناخات متباينة
أحب أن أهيم لأنوّع مشاعري
من كل العقول التي تمدني
بشتى ضروب الفلسفة لتكون
كنوز ثروتي وتجعل من
ترحالي أقل حدة وصعوبة،
ومن كل بقعة أحمل جائزة
ومن كل حقل سنبلة،
وليست هناك أرض تنافس
شيراز المشرقة في النقاء
وستظل مباركة تلك الأرض
التي تنسيك كل البلاد الأخرى».

من قصيدة حافظ الشيرازي

ليست شيراز مدينة الورد وطيور العندليب فقط، إنها أيضاً مدينة الشعراء. مدينة النبيذ ومدينة النساء الفاتنات وكل شيء جميل

Twitter: @alqareah

ومغر. إنها المسكن التقليدي للمرح والطمأنينة، والإنجازات والإخفاقات التي تنبعث منها. ربما لا توجد مدينة في عموم بلاد فارس وحتى في سجلات تاريخ الأمة قد حصلت على الشهرة الدائمة مثلما حصلت عليها شيراز. فحدائقها وخمورها المعتقة ومغنيها قد أحاطوها بهالة بهيجة من الرومانسية، والتي من خلالها لا مكان فيها للحقائق المجردة ولا للخطى الوئيدة التي خطاها اللورد كورزون الذي يشرح شهرة شيراز كحقيقة ثابتة، إذ يقول بأن كل إوزة محلية هي مغنية فاتنة. وهذا أمر مستحيل على المسافر الطارئ القادم من بلدان أجنبية أن يدركه أو حتى أن يستمرئ الروحية السائدة التي تغمر بجلالها هذه المدينة الواقعة في الجنوب.

ومثلما فعل اللورد كورزون، قمت بزيارة المدينة عندما كانت الورود ميتة والعندليب أبكم. وحتى في ذلك الوقت فإن أشعة الشمس المتألقة والهواء الفاتن والسحر الأخّاذ لبانوراما السهل المزيّن بقطع خضراء داكنة من الحدائق الجميلة تحيط به تلال في غاية الروعة والفخامة، والليالي المقمرة الصافية ذات التناغم الشرقي بين الألوان الفضية والسمراء، كل هذه البيئة المادية أضافت إلى تقاليد المكان وذكرى الشخصيات البارزة وضاعفت بقوة من توجهات الأحاسيس والخيال. وعندما تفتحت الورود فيما بعد وغنّت طيور العندليب ولَبِسَ المكان كله حلة الربيع، صار من السهل تخيل كيف يتمكن الفارسي من أن يثير حماسته، والتي كانت تعبُر عن نفسها بالقصائد الملحمية التي كان يلقيها شاعران مشهوران والتي تمثل عاطفة حية في الوقت الحاضر.

لم تكتسب شيراز شهرتها ومكانتها من سكانها فقط، وإنما أضيفت مدائح المسافرين إلى ما قاله الشعراء في إسرافهم في المديح بحيث فاق المسافرون الشعراءَ في ذلك. لقد أنهى «فراير» الرائع مديحه المحكم وبأسلوبه الفريد بثناء بهيج حيث يقول «العندليب هو البشير الجميل للنور والتهليل الدائم للبساتين

Twitter: @alqareah

الخضراء والسحر لأصول الشدو والغناء مما يخفف عن النفس ويبعث الفرحة».

ليست المدينة فقط وإنما الريف الذي حولها قد حظي بنصيب وافر من الثناء، حيث على مقربة منها تقع الأكواخ الريفية «لموسيلاي» والسلالة المشهورة بها تسمى «ركن آباد».

أما الطقس فهو رائع حتى بالنسبة للرجل الإنكليزي الذي يفتخر بامتلاكه خليطاً من القماش لكل مناخ وجو. إذ من النادر سقوط المطر أو تكوّن الثلوج بينما تكون درجة الحرارة في الصيف مرتفعة قليلاً إلا أن السكان يقابلونها بهدوء وسكينة حيث لا حدة فيها مثل المناخ الهندي.

وبصرف النظر عن كل هذه الاعتبارات تتميز شيراز بميزة أخرى تثير الانتباه إلى نقاوة كلامها. فمنذ زمن طويل أشار شاردان: «من البحر الأسود وحتى المحيط الهندي يتكلمون الفارسية بصورة نقية أو غير نقية، إذ أن السكان يختلفون بشكل أو بآخر عن سكان شيراز حيث يتحدثون اللغة الفارسية النقية الخالصة».

وكلماته هذه ما تزال معبِّرة تماماً عن الواقع الراهن. فشيراز والحق يقال تعتبر نفسها المركز الفارسي للتعليم. حتى في هذه الأيام وفي حالة انحطاط ظروفها وأوضاعها وتعرضها إلى خدش في كبريائها واستحقاقها للشفقة والرثاء. إذ أن القاهرة كانت تعد إحدى ضواحيها، فهي مع ما فيها من ورود وطيور العندليب ونبيذ احتفظت بمجدها العلمي أكثر من أي مدينة أخرى. ولهذا تشير تقاليدها بقدر ليس بيسير. ومع أن «مشهد» هي محل ميلاد: الفردوسي ـ السيدي، فريد الدين العطار، وجلال الدين الرومي، والجامي والهاتفي وآخرين كثيرين غيرهم، وتستحق مكانة مرموقة في المدارس الشعرية الفارسية، إلا أن الشاعرين اللذين ولدا وتوفيا في شيراز قد عوّضا بنوعية شعرهما عن كميته المطلوبة.

وحيث إن سعدي وحافظ لم يُذكرا لسوء الحظ في مجلد

Twitter: @alqareah

فيتزجيرالد، وليسا معروفين لدى الإنكليز مثل عمر الخيام إلا أنهما مألوفان ومشهوران في أرضهما الوطنية.

ولكن الاهتمام إلى ما كتباه وإلى طريقة شهرتهما في بلاد فارس أمر يعرفه الأمير والخفير ويثير دهشة وإعجاب الغريب، ويتمثل الشرف الذي حظيا به بحادثة رواها «مالكولم» في كتابه «صور وصفية لبلاد فارس».

«أليس لديكم قوانين، قلت ذات يوم، «لاغامير»: عدا القرآن والتقاليد المستندة على هذا الكتاب؟ «لدينا» قال بجدية «أقوال وحكم السادة». إذا ما كنت سأحكم من خلال ملاحظاتي الشخصية، واصل مالكولم، فإني أقول بأن هذه القصص والأقوال المعروفة للجميع من الملك وحتى الفلاح البسيط لها تأثير كبير في كبح الممارسات الظالمة والمنحرفة مثلها في ذلك مثل قوانين النبي».

كان الشاعر سعدي أقدم من حافظ حيث ولد في شيراز عام 1193 ميلادية، وقد عاش حياة طويلة وفعالة ويُعرف الآن من خلال مجموعتين من قصائده «جولستان» (صديقة الورد) و «بوستان» (صديقة الفاكهة). هذه القصائد حول الفلسفة والخيال والطبيعة والإنسان ما تزال تتردد على شفاه الشعب الفارسي، وغالباً ما تسمع على موائد الشاي أو في القرى النائية أناساً أميين يرددون مقتطفات لشعرائهم، فكأنك في حَواري لندن الوسخة أو في أزقة ميدلاند وتسمع خبازين وعمالاً يرددون قصائد شكسبير.

إذا كان سعدي شعبياً فإن حافظ ليس أقل منه، إذ حالما سقطت القيثارة من يد سعدي، التقطها حافظ منه وأنشد أغنيات جميلة مثل تلك التي أنشدها سعدى مع أنها أقل تمسكاً بقواعد العرف والتقاليد. في الحقيقة كان حافظ الذي يشبه صديقنا «عمر» قد قطع الروابط مع الشريعة الإسلامية وابتعد عنها وهام في الأرض البهيجة للكفر الممقوت فكان الحب والخمر هما الموضوعين الرئيسيين لقصائده وكانت النتيجة حتمية. ففي تلك العصور المتسامحة وفي تلك الأجزاء

Twitter: @alqareah

من الأرض كثيرة المطالب فإن السيدة جروندي ستصاب بصدمة وأن حافظ سيصبح بطلاً. ولكن في عصره وفي بلاده كان هناك أكثر من السيدة جروندي ليتكيّف معهم. فقد اتخذ حافظ لنفسه طريقاً مخالفاً للدين السائد في عصره. ففي تلك الأيام، كانت الدعوة إلى الملذات تعني الدعوة إلى المنكر والمحرم، وكانت النتيجة على المستوى الشعبي وبين العامة أن عرّض نفسه للنقد اللاذع وأخيراً كفّره رجال الدين واعتبروه مرتداً، وبعد وفاته عام 1388 م رفض رجال الدين المسلمون منحه شرف الدفن في المقابر الإسلامية ووفق الطقوس الدينية المتبعة. وفي تلك الحقبة، على أية حال، ظهرت جماعة في البلاد اعتقدت بأنّ العبقرية أدّت إلى الصفح عن عدد من البوهيميين، وكان هناك اتفاق على وشك الوصول إليه وبموجبه يتم مراعاة أعمال حافظ وبموجبه تنظم عملية نقل جثمانه وتقرير فيما إذا كان يعد كافراً أم مؤمناً. ومن أجل توضيح أي تغاضٍ يتم اختيار طفل صغير لتقرير الموضوع المصيري. لقد كان القدر رحيماً، وهذا هو النص الذي وجه الطفل إليه يده:

«لا تبتعد كثيراً عن آخر طقوس دينية لحافظ، واعلم مع أنه انغمس عميقاً في الرذيلة إلا إنه مع ذلك سيصعد إلى الجنة».

وهكذا تم دفن جثمانه واعتبرت روحه مباركة. على كل حال ماتزال أعماله كما هي لم تتبدل ولم يحذف منها شيء.

هناك البعض في الوقت الراهن يحاولون قراءة قصائد حافظ مثلما يقرؤون لعمر الخيام حسب المعنى المجازي. فهم يقيدون دلالة الكلمة من أجل إثبات أن حافظ عندما كان يتحدث عن الحب والخمر كان يقصد شيئاً أكثر احتراماً وأقل مادية. وبالطريقة نفسها فإن المعنى الجلي والجميل لقصائد سليمان الغزلية قد حُرّف حتى ينسجم مع المبادئ الدينية للفترة اللاحقة، لذلك فإن أولئك الذين لم يخطر ببالهم أبداً أن أي شيء لا يتفق مع آرائهم يعد عظيماً وأن أي شيء لا يتناسب مع الزهد الحازم يعد صالحاً، قد حاولوا أن يبينوا بأن كلاً من عمر وحافظ قد أخفوا روح التمسك الديني تحت

Twitter: @alqareah

تعبير الشاعر الغزلي. ومن المحتمل أنهم تأثروا بالدوافع الرقيقة فاعتقدوا أنهم بهذا يقدمون خدمة لشاعرهم، وذلك بتطوير المبرر الأخلاقي على حساب السبب. وبالنسبة لي شخصياً على أية حال، يكفيني أن أقدم قصائدهم بمعناها الصريح والواضح لنجد فيها التعبير الديني المقدس عن الأمور الدنيوية، ولذلك سأواصل اعتقادي بأن كتابات حافظ وعمر التي بحوزتنا هي مرضية إذا نظر إليها في قيمتها الظاهرية فلا حاجة لتحريف أو تشويش أية قصيدة إلى تلك التي تقول بأن الفتاة الصغيرة التي طلب منها تعريف المجاز، فقالت بأنه قصة أرضية بلا معنى دنيوي.

أما بالنسبة للخمر في شيراز الذي كان المصدر الأساس لمباهج ومشاكل حافظ، فهناك نوعان، الأحمر والأبيض وإذا ما تذوقتهما فإنني أميل لصالح الأبيض. أما الوصف فإني سأتركه إلى فراير الذي لا أضاهيه خبرة ومقدرة في هذا الشأن.

«تمتاز كروم هذه البلاد بعطائها الثر وغزارة إنتاجها ويتم تناول خمورها إذا خلطت بالماء وإلا ستكون شديدة الوطأة على العقل وثقيلة على المعدة، فالكمية التي يتناولونها في الحفلات الخاصة أمر لا يصدقه العقل وفي اليوم التالي لا يبدو عليهم الاهتمام أو الاكتراث، بل انهم يتباهون بالكميات التي تناولوها على مدار الأسبوع».

وبالرغم من النصوص القرآنية الداعية إلى عدم تناول الخمر، فإنهم لا يُصنفون خمورهم لأغراض تصديرية. وبالنسبة لإسراف السكان المحليين في تناول الخمور فإن المسافرين الأجانب مجمعون على ذلك، ويبدو أنهم يتحدثون حسب معرفتهم الشخصية بهذا الموضوع. فالوصف الذي قدمه شاردان عن «عادة البلاد» في احتساء الخمور مبهج، بينما يشير تافيرنيز إلى نبيذ شيراز باعتباره منافساً تقليدياً لنبيذ أصفهان البارد على المعدة ولكنه يلهب الرأس. ليس بوسعي أن أقول شيئاً عن برودته على المعدة، ولكني اعلم بأنه يلهب الرأس إذا تم تناول كمية كبيرة منه.

Twitter: @alqareah

يا للأسف، يا للأسف، إني أخشى ألا يدعم هذا أولئك الذين يصرون على «روح» حافظ وإنها من طبيعة حيوانية وليست من طبيعة نباتية.

ظاهرياً، كانت شيراز وبكل تأكيد أجمل مدينة أقابل فيها أفراد قافلتي في عموم بلاد فارس، إذ علينا إلقاء نظرة عامة على المدينة من المرتفعات الكائنة في الشمال، والتي اختارها «لوبروين» باعتبارها ملائمة لي لعمل تخطيط تمهيدي للمدينة.

كان سهل شيراز الفسيح يمتد أمامنا مثل خارطة، وأسفلنا تماماً كانت المدينة ذاتها يحيط بها سور حجري مهدم وخندق مائي مهجور لا فائدة منه، وعلى مدى البصر جهة اليمين توجد أزقة ضيقة ملتوية وبيوت داكنة متراصفة بكثافة داخل حدائق فخمة ويحيط بها جدران طويلة منسقة، هذه الحدائق أصبحت الآن داكنة وجرداء عدا بعض الأشجار دائمة الخضرة المتواجدة فيها. ولكن بصورة ظاهرة تبرز أشجار السرو سامقة من بين العدد الكبير من الأشجار الأخرى، وحتى تكتمل صورة تخفيف اللون الأسمر الداكن تظهر خطوط فضية جميلة للجذوع والزخرفة التشجيرية لأشجار البتولا. كما يخفف اللون الأسمر للمدينة انتشار القبب الزرقاء. حيث تشهق قبة جامع الشاه شيراغ والقبب المحيطة به، غالباً فوق المباني الصغيرة الأخرى مثل لعبة القناني الخشبية الكبيرة. وحول المدينة تحيط الجبال بالسهل من كل الجهات وأسفل الجبل المقابل لها مباشرة يوجد وميض ماء. وعلى مسافة بعيدة جهة اليسار هناك فضاء لا نهائي أبيض كالثلج يندمج في الأفق الضبابي. بحر غريب من الملح ونتوء صخري تبرز من مياهه البغيضة. وفي كل مكان ينشطر الأفق بخطوط مغلولة من التلال حيث تنبعث من قممها ومضات من الثلج المتراكمة عليها بكثافة. وعلى العموم تشرق الشمس بصفاء من السماء الزرقاء الفسيحة.

تسلقنا بعجلة حتى نتخذ طريقنا عبر الطريق العريضة غير المعبدة فوق الجسر الذي يمتد فوق النهر الصغير إلى المدينة

Twitter: @alqareah

نفسها. كان دخولنا إلى المدينة عملاً كريهاً. فالذكاء الفارسي لم يتوصل بعد إلى تصريف المياه الفائضة، لذلك تجدر الإشارة إلى أنه عندما كان يموت شيء عدا الإنسان فإن المكان الجلي للتخلص منه عند الشيرازيين هو الخندق الجاف المحيط بالمدينة والذي لا فائدة منه غير ذلك، ولهذا لا غرابة لأننا أسرعنا قدر الإمكان في هذا الجزء من رحلتنا حيث تكثر الجثث والجماجم والعظام الحيوانية، حتى جمجمة الإنسان وأكوام لا حصر لها من القمامة، مما دفعنا إلى أن نسابق الريح لنبتعد عن المكان وندخل إلى مناطق أكثر نظافة وأطيب رائحة.

يقال بأنه في وقت من الأوقات وقريباً من بوابة «كساب خانا» كانت هناك عدة أعمدة من الأسمنت المسلح، حيث كان الخارجون عن القانون يُستخدمون في مادة البناء وهم أحياء عقاباً لهم على جرائمهم. ولذلك فهم يستغرقون فترة طويلة فاقدي الوعي قبل موتهم، وبعد وفاتهم بقيت الأعمدة في مكانها كإنذار وأثر بارز حتى وقت قريب، ولكنها اختفت الآن ولا تحتاج مشاعرنا إلى الاستلاب من رؤية مثل هذه الفجوات الموحشة عند اقترابنا منها.

عند دخولنا من المنطقة الشمالية وصلنا إلى قلب المدينة من خلال سوق رديء النوعية، ثم ولجنا مباشرة إلى تلك الأسواق الراقية التي تشتهر بها شيراز وغيرها من المدن الفارسية والتي تتميز بظلها وقت الظهيرة في أيام الصيف الحارة، وبقيمتها كما هو الحال الآن في أماسي الشتاء، مما يجعل هذه الطرقات المهيبة المقنطرة جديرة بالإعجاب وتستحق الوصف. فقد وصف فرانكلين سوق «فاكيلز» أكبر سوق في المدينة بهذه الكلمات:

«إنه شارع طويل يمتد حوالى ربع ميل مبني من الطابوق ومسقوف على طراز حديقة كوفنت في إنكلترا، إنه فخم ومرتب بشكل جيد، وعلى كلا الجانبين توجد محلات التجار والباعة وآخرين حيث يعرضون فيها مختلف البضائع ومن شتى الأنواع».

Twitter: @alqareah

وفي وقت الازدحام من النهار يُعد هذا الشارع الطويل والشوارع الصغيرة الأخرى التي تتفرع منه منظراً فريداً من نوعه. لكل تجارة مكانها المخصص لها في السوق. ففي إحدى الزوايا نجد النحاسين وعمال النحاس الأصفر يرفعون من ضجيجهم الذي يصم الآذان ويمنع الأحاديث ويجعل التفاهم بالكلام مستحيلاً. أما في زاوية أخرى، فهناك عمال الجلود يقومون بكل نشاط وحيوية بعمل تصاميم وخياطة الزخارف عليها، كما خُصِّصت أماكن أخرى لعمال الصوف وصانعي القبعات والصباغين والصرافين وكل أنواع التجارة الضرورية لتلبية الاحتياجات الحضارية للسكان. يتشكل كل دكان من فجوة مقنطرة في جدار غرفة، ترتفع مثل أماكن السكن في الخان عدة أقدام فوق مستوى الممر الرئيسي، وتؤدي إلى تجاويف تخزن فيها البضائع ذات الرائحة الكريهة وهي مظلمة بسبب تكدس البضائع التي يتاجر بها التاجر.

وفي وسط السوق تحتشد أعداد كبيرة من الناس ومن مختلف الشرائح الاجتماعية راجلين أو على خيولهم وحيواناتهم الأخرى، الغني والفقير، البائع والمشتري، يتدافعون فيما بينهم يثرثرون ويتساومون. إذ بدون المساومة لن يكون التاجر الفارسي معروفاً. فالمساومة هي التي تفصل بشكل واسع بين التجارة في الشرق والغرب حيث لا توجد لوحات بالأسعار على البضائع مما يفتح الباب أمام التجارة الحرة في بلاد فارس، إذ لا توجد أسعار ثابتة لأي شيء. فالبائع هو الذي يحدد ثمن السلعة وعلى المشتري أن يدفع وعملية البيع في الحقيقة هي محاولة التطابق بين الاثنين. ليس بوسع أحد أن يتخيل أن باستطاعته الدخول بخفة إلى دكان في بلاد فارس ويسأل عن ثمن سلعة ويتلقى جواباً ويدفع نقوده مباشرة. فهذه ليست طريقة التعامل في الشرق حيث هناك المزيد من الوقت الذي يُستغل في المزايدة التي قد تستمر عدة أيام أو عشر ساعات أو عشر دقائق.

لقد كلفتني عملية شراء واحدة ثلاثة أسابيع بما كان لدي من

Twitter: @alqareah

وقت أدخره ومن حب استطلاع لأرى فيما إذا كان سيستجيب صديقي الفارسي لشروطي. لقد كان الأمر حول سيف معقوف صغير في جراب مخملي ذي مقبض عاجي منقوش. اعتقدت أنه طلب خمساً وعشرين توماناً ثمناً له في المرة الأولى التي استفسرت عنه فأعطيته خمسة، مما جعله يبتسم ويهز كتفيه وَفقَ الطريقة الفارسية وكأنه يعني بأن «الرجل يقول نكتة»، ولكن الرجل لم يكن يمزح وبعد قليل انصرفت بدون السيف. ويوماً بعد يوم وكلما مررت به استفسرت عن ثمن السيف وكان الثمن يتناقص يوماً بعد يوم. وأخيراً وفي أحد الأيام قلت «عندما يصل ثمن السيف إلى سبعة تومان»، غداً سأغادر شيراز. كنت آسفاً إذ أن موضوع السيف كان قد أصبح حدثاً مهماً في حياتي اليومية، إذ أن المناقشات حول الثمن أدت إلى تكوين صداقة حميمة بيني وبين الخصم التجاري، حيث أثارت الاستفسارات المرحة والاعتيادية عن الثمن بعض الانتباه. أنا متأكد بأن «كيف حالك؟» أو «آمل أن تكون زوجتك بخير» لم تكن تدخل السرور إلى نفسه (كان الاستفسار الأخير إهانة مقصودة، إذ لا يُسمح في بلاد فارس بالاستفسار عن زوجة الرجل. يمكنك أن تقول «كيف حال عائلتك؟» هذا هو التمسك الفارسي حتى فيما يخص ذكر اسم السيدة)، ثم انغمسنا في مساومة أخيرة. لا، ليس بوسعه أن يبيع، خمسة تومان خسارة له. وهذا يعني تضحية كبيرة منه، وهكذا لم نتفق وافترقنا. وبينما كنت أنحرف عن السوق الرئيسي إلى شارع فرعي، ربّت شخص على كتفي فاستدرت إلى الخلف «هذا هو السيف» قال لي، «أين الخمسة تومان؟». لقد كانت تجربة مفيدة في التجارة الفارسية. وفي الحقيقة، من الضروري أن تقسم المبلغ على اثنين أو ثلاثة وأحياناً على خمسة حتى تتأكد كم ستدفع في أي مزايدة تجارية. بعد هذا العرض التمهيدي من الضروري أن نستنتج أن المزايدة التي لن تؤدي إلى احتيال تعني المزيد من الوقت والصبر والمجاملة.

إن الاندماج في مثل هذه العمليات على مستوى أكبر أو أصغر

Twitter: @alqareah

تستدعي من العامة المساومة والتصادم أحيانا، وهنا قد تحدث مشادة حول شيء ضئيل القيمة أو كمية أكبر. ثم يسود الهدوء والوئام وتبادل الأمنيات بين الأفراد والتي قد يترتب عليها دفع كمية أكبر بكثير بعد التراضي والمصالحة. وبينما كنا نراقب ارتطم بنا فجأة حمل ثقيل من الخلف سقط من على ظهر البغل المفعم بالنشاط. فهم لا يقولون «إذا سمحت أو عن إذنك» يجب أن تبتعد عن الطريق إذا أردت أن لا يرتطم بك أحد أو شيء، وعليك أن تأخذ حذرك وتعتني بنفسك إذا أردت العناية التامة. سواء كنت بعيداً أم قريباً»، وكما هو الحال، يرتفع ضجيج النحاسين في السوق وفي كل مكان تسمع فيه ضجة صاخبة وأصواتاً متنافرة، تتخللها بين فترة وأخرى هنا أو هناك صياح مرتفع وأيمان غليظة. إنه مشهد متغير ومتنافر الأصوات. كما يعج هواء المنطقة برائحة التوابل والروائح الأخرى والعبق الإنساني المتميز، ويبدو أن المكان مغلق على نفسه وتغمره على الدوام الروائح والضوضاء حتى أن الضوء نادراً ما يخترقه فالزوايا معتمة وكئيبة، حتى أشعة الشمس التي تشع من خلال الشبابيك الصغيرة لا تقوى على مقاومة الهواء الملوّث بالأتربة المتراقصة في أرجاء السوق. فإذا لم يستطع الشرق أن يتاجر بصورة جيدة فإنه على الأقل يتاجر بعنف وحماس وهرج ومرج.

بعد أن تستهل للابتعاد قليلاً عن هذا الشريان المركزي الكبير الذي يعج بالحركة الحاشدة والحياة الصاخبة، هناك شبكة متراصة من الفنادق التي يلجأ إليها التجار ورجال القوافل للإقامة والراحة. وهنا أيضاً حول الميدان الرئيسي توجد محلات تجارية دائمة وبشكل خاص «محل واحد» أو «المحل التجاري»، فالذين عاشوا في قرى الريف يعرفون ما تعنيه عبارة «المحل التجاري» أو «الدكان»، فهو يحتوي على كل شيء إذ بوسعك شراء أربطة الأحذية، وعلب الثقاب والحقائب والجبن كما إنهم يخبزون فيها ويصلحون الأحذية، وإذا رغبت فإنهم سيسلبونك الحذاء بصورة جيدة. فالمثيل الشرقي لهذا كله هو «المحل التجاري» أو «الدكان» داخل الخان.

Twitter: @alqareah

إنه المكان المؤثث للمسافر الوطني الذي يمكنه الحصول على كل ما يجعل رحلته ميسرة ومبهجة. فهو يستطيع الحصول على الملابس والبسكويت والفواكه المعلبة ومختلف أنواع الأطعمة والثياب، وكلها رديئة وغالية الثمن (شلنان للعلبة الصغيرة من البسكويت) أما الفواكه المعلبة فكأنها متروكة أو انتهت صلاحيتها منذ عدة سنوات. أما الملابس فرغم أن مظهرها يوحي بقبولها وحداثتها إلا أن المسافر الذي يشتريها وبمجرد ابتعاده عن الدكان يكتشف عدة عيوب فيها غير ظاهرة ولا مجال للشك فيها. ولكن اللوم يقع على المسافر نفسه فالأمر يعود إليه، وعلى العموم فإن الدكان يُعدُّ وسيلة من وسائل الراحة ولكني أنصح المسافر الإنكليزي أن يذهب إلى مكان آخر إذا استطاع ذلك.

والآن لنعد إلى المجد التليد لشيراز وحدائقها. تختلف الحديقة في المدينة الشهيرة عن تلك في المناطق الريفية المجاورة في كونها أقل برية وأكثر بهاءً. ففي وسطها يوجد «بيت صيفي» ليس مجرد كوخ خشبي مكسوّ بالنباتات المتسلقة، إنما هو صرح حجري قوي من لون واحد يُتخذ مسكناً في فصل الصيف نظراً لبرودته وملاءمته خلال أشهر الحر الشديد. يتكون هذا البيت الصيفي بشكل عام من صالة مركزية واسعة تحيط بها غرف أصغر، وفي وسط الصالة هناك بحيرة من الماء الصافي ونافورة إذا كان صاحب البيت مترفاً وغنياً. كما توجد هنا الوسائد الشائعة تحيط بها ملاحق حديثة متنوعة تشبه إلى حد كبير ما ذكره عمر الخيام في أشعاره عن الممتلكات الشخصية واللوازم الخاصة بمنع حرارة الشمس من التسلل وقت الظهيرة، وحتى تلطف من خرير الماء المنطلق من النافورة، وتحول بين كل الإزعاجات الناجمة عن المناخ الشرقي في الصيف.

أما في الخارج، فالممرات منظمة جيداً والأشجار أقل تناسقاً من تلك الموجودة في الحديقة التي قمنا بزيارتها. ولكن هذه الحالة ليست هي السائدة في حدائق شيراز التاريخية. أذكر أني ذهبت إلى

Twitter: @alqareah

مكان يدعى «شيهيل تان»، حديقة الأربعين جثة، والتي أخذت اسمها من الأربعين أُمّياً الممثلين بألواح حجرية متراصة تحت جانب من الحائط، والذين كما تقول الروايات يمثلون أولئك الرجال الذين قُتلوا ودفنوا في هذا المكان. لقد أصبح الآن مكاناً لشرب الشاي حيث يحلو للفارسي أن يتمتع وسط الأموات، وهو أمر ينسجم مع مزاجه المعتل ويتفق مع عادته في تحديد فلسفته الدينية بكل ما يفعله في حياته اليومية. وهكذا يمكن القول بأنه غالباً ما يحوّل المقبرة إلى مكان للمتعة له ولأصدقائه، فتتحول بلاطة القبر المرتفعة إلى منضدة للأحياء مثلما هي للأموات.

يقول الفارسي «مثلما نحن في الحياة نكون في الموت»، وفي بعض الأحيان يذهب بعيداً فيبني قبره أثناء حياته ويحيطه بحديقة ويقضي أوقاته الآفلة في التفكير والتأمل في مكان إقامته الأبدية. هذا الأمر لا يشكل أهمية للعقل القادر على النسيان، وبعد الموت ما يصبح عليه الجسم يختلف عمّا يصبح الجماد أو قطعة من الأرض، فهناك شيء جذاب في هذا التمهيد للتعود على المسكن الأبدي.

هذا، على أية حال، يعطي للخصم منفذاً لإطلاق تعليقات بغيضة وإبداء ملاحظات مشبوهة والتي لم ينقلها من لهم علاقة أو معرفة بأي رجل مرموق غير شعبي. إذ بعد أن كان قد شَيَّد لنفسه قبراً فخماً وأخذ يمارس متعته هناك، أصيب بخيبة أمل وانزعاج عندما تلقى ملاحظة من أشخاص عديمي الأخلاق يقولون فيها:

ربما تكون متأكداً من أن المدينة تُقدِّر عالياً العمل الذي قمت به لبناء هذا الضريح الفخم، وكل المطلوب منك الآن أن تموت حتى يكتمل عملك المميز.

إن منظر حديقتنا الصغيرة ممتع ومُلْفِت للنظر. فعند دخولنا من بوابة صغيرة في الحائط نصل إلى منطقة مربعة مزروعة بأشجار السرو، ويحيط بها جدار عالٍ تطل منه قمم الأشجار الخارجية التي يقع خلفها الأفق البعيد الكئيب للتلال الجرداء، ومع أن أشجار السرو

Twitter: @alqareah

تمثل المظهر المميز للحدائق إلا أنها ليست وحدها، فهناك أشجار التنوب السامقة وشجيرات ضئيلة أخرى بحيث تلقي وفرة أوراقها وأغصانها الوارفة ظلالاً وضوءاً متلألئاً فوق الممرات والجدران والمزهريات، وفي نهاية الحديقة نُظمت على الجدار سلسلة من الغرف الصغيرة المرتفعة بعض الأقدام عن مستوى الأرض مثل تلك الموجودة في الخان. هذه الأماكن المماثلة للمسرح هي محلات لتناول الشاي والتدخين وهي مزينة من داخلها بصور باهتة لملوك قبيحي الشكل (أو لرجال عاديين ولكن الخيال الفارسي يصورهم ملوكاً)، ويجثُم على الأرض مجموعات صغيرة من الرجال يحتسون الشاي من أكواب صغيرة أو يدخنون النارجيلة، وفي إحدى الزوايا قد تجد جماعة أخرى تتناول الأفيون. يبدو الفرس في ملامحهم الجدية وهيئتهم الصارمة وملابسهم الخشنة وقبعاتهم السوداء على نقيض تام مع الطبيعة الزاهية والمزركشة لبلادهم بينما تشكل العمامة البيضاء التي يلبسها السيد خَرْقاً حاداً لتناسق الألوان. فالهواء النقي وأشعة الشمس المتلألئة تخلق في مجملها صورة مؤثرة مرسومة بكل الألوان الناصعة والواضحة المعالم التي يتميز بها الشرق. وهناك جهة اليمين تحت الجدار يجثم أربعون قبراً صغيراً تتكون من صفين طويلين من القبور الحجرية الملساء، ويقبع في نهايتها قبر الشيخ والذي من الواضح أنه كان رجلاً مقدساً حيث يوجد أسفل القبر مصباح صغير الذي يمثل عبادة خاصة في الشرق. لقد انشق الحجر من وسطه وتشققت جوانب القبر بالكامل مما جعله مجرد ركام، ولكن هذا الأمر يُنظر إليه في بلاد فارس بمنظار آخر إذ كلما ازداد الأثر أو الضريح تهدماً كلما حظي بتقدير وتقديس أكثر. وفي هذه الحالة هناك دليل إضافي بأنّ تقديم الولاء والاحترام هو للروح الساكنة في القبر ذاته. وتنمو شجرة جرداء كئيبة المنظر من القبر منتصبة فوق قبر الشيخ الميت وموجّبة بمظهر فريد له، فأغصانها الذابلة ليست مكسوة بالطبيعة وإنما بالإنسان نفسه، فكل غصن منها تتعلق به أجزاء بالية صغيرة ويبدو الجزء

Twitter: @alqareah

الأسفل من الشجرة وكأنه مغطى بنوع غريب من الكتل الجليدية الناشئة عن تجمد الماء. عندما شاهدت كل هذا نما لدي إحساس بأني قد شاهدت الشيء نفسه من قبل، ومثل هذا الإحساس ينتاب المرء بدون سبب حقيقي إلا إذا كان نصف عقلنا، كما يدعي البعض - هو جزء من الثاني أمام الآخر الذي يبتهج بالإحساس الآني على أنه معرفة شخصية قديمة. وفي هذه المرة، على أية حال، كان ثمة سبب قوي لانطباعي لأنه ومض فجأة في عقلي بأني قد شاهدت شجرة مماثلة قرب بيتي في ويلز. وتحت سياج من الشجيرات في الزاوية الخضراء للمرج الأخضر كانت هناك بحيرة متجمدة من شدة البرد ومسيجة بحجارة قذرة وتدعى «البئر في حقل الخنزير». هناك تقليد بأنّ الذين يستحمون في هذه البحيرة سيشفون من مختلف الأمراض، ومن الضروري بالإضافة إلى الاستحمام أن تعلق في الغصن قطعة قماش بالية تلقي بظلالها على الماء، وقد حدث في الوقت الحاضر أنّ الشجرة فوق «بئر حقل الخنزير» معلق عليها أكداس متنوعة من الأسمال البالية، وكأنّ هذه الشجرة الصغيرة تقع على بعد آلاف الأميال في حديقة الأربعين جثة في مدينة شيراز. وهكذا نحن متساوون في الموت في عالمنا الضيق سواء في الشرق أو الغرب، في الشمال أو الجنوب، وبهذا تختلف الإنسانية في الدرجة وليس في المادة.

ثمة قوة مثيرة للشفقة بخصوص فكرة الوطن لدى المسافر في أرض بعيدة، فعندما أعطيت قطعة نقدية للمتسول قرب القبر وخرجت من الحديقة، لم ترَ عيناي الألوان الداكنة والسمراء والسوداء في الحديقة الفارسية وإنما رأت اللون الأخضر البهي لحقل صغير في ويلز.

ذهبنا في اليوم نفسه إلى قبر حافظ، لقد كان يوصف على أنه «الحجر المرمري المنقوش بشكل بديع ومسيّج بأعمدة حديدية وفي زواياه تنتصب رماح حديدية مخيفة، ويقع كل ذلك داخل مقبرة مربعة الشكل تختزن في جوفها كل أولئك الذين رغبوا في أن يدفنوا

Twitter: @alqareah

تحت ظل الرجل العظيم». عند دخول القفص الحديدي الذي يقع فيه القبر، حَدّقنا في الحجر الذي يبرز في وسطه شمعدان عادي. إنه ليس حجر القبر الأصلي ـ وهو كذلك بدون البناء الكائن على الطرف البعيد عن الباب ـ ولكنه مع ذلك لوح منقوش بشكل جميل ومدوَّن عليه أبيات شعرية للشاعر. ولكنه على أية حال لم يكن فاتناً مثيراً، فالأشياء المحيطة به ليست جديرة ببطل الشعر الفارسي، وبالنسبة لي شخصياً أُفَضِّل أن أفكر في قبر عمر الخيام الذي تظلّله شجرة ورد برية. ومع ذلك وبكل أسف، أعتقد بأن تلك التقاليد الرومانسية المبهجة قد ألحقت به خراباً شديداً، فهناك خلف البوابة تحت جدار المقبرة يوجد مذبح مغطى بقطعة قماش حمراء وتزينه عدة شمعدانات متوهجة، وحوله كانت النسوة المتشحات بالسواد يركعن للصلاة ويبدو على وجوههن النصب والمرض وقد جئن للوقوف معاً أمام الملا الذي تمتم بكلمات عليهن ثم انصرفن.

أما القبر الأكثر ملاءمة فهو قبر الشاعر «سعدي» فهو قريب من ديلخوشا «حديقة بهجة القلوب» المطلة على الوادي في الشمال الغربي، وهناك في الوسط بين التلال الجرداء الكبيرة تقع الحديقة الصغيرة ذات أشجار التنوب والسرو الأسود والمباني البيضاء التي تدل على مسكن الشاعر. لم أر في حياتي مكاناً أكثر ملاءمة لموضوعه وأكثر تناسقاً بين الأشياء المحيطة به. فهناك بوسعه أن يرتاح بسلام قريباً من مدينته بعيداً عن الحياة الصاخبة مستكيناً قرير العين في حديقته الصغيرة الهادئة الواقعة وسط التلال. ففي داخلها وفي غرفة صغيرة بعيداً عن خضرة النباتات والأشجار المحاطة بجدران بيضاء عالية يقع القبر نفسه. ومن نافذة مشبكة تسمح بدخول أشعة الشمس إلى أرضية الغرفة النظيفة، ينتصب في المدخل درابزون حول كتلة من المرمر منقوش عليها أبيات شعرية خالدة. هذا كل ما في الأمر.

ولكن يوجد في الخارج أشياء أكثر جمالاً وفتنة جعلت ذكرى الشاعر حية على مدى العصور والعهود وفي الخلف تماماً، إلى

Twitter: @alqareah

الشمال من الحديقة، تظهر فجأة فتحة في الأرض تقود درجاتها إلى ممر تحت الأرض ينتهي في غرفة صخرية صغيرة مفتوحة نحو السماء. ومن جهة الشمال يتدفق ينبوع ليشكل بحيرة بلورية يمكن النزول إليها بوساطة درجات حجرية متآكلة ويطفح الماء تحت الصخور المقابلة لينساب عبر هذه البحيرة الضئيلة. ويتواجد في البحيرة أعداد لا تحصى من السمك يقفز إلى الأمام والخلف داخل الماء الجاري، بينما يمكنك أن تلمح أسفل الدرجات فتيات فارسيات يملأن أوعية جلدية بالماء ويتراشقن به على بعضهن البعض. وفي الخلف تفضي الدرجات السمراء الخربة إلى وهج أشعة الشمس في السماء الزرقاء وإلى الأسفل ينساب الماء الصافي. وإلى الأعلى ترتفع جدران البئر الحجرية براقة نحو السماء. كل هذا يشكّل منظراً بديعاً مذكراً بحياة هذا الشاعر الفارسي المتميز وليس إلى اللوحة الكئيبة من المرمر الموضوعة فوق ترابه.

هناك بئر آخر ليس بعيداً عن هذا المكان. إنه فوق الجبل المطل على قبر سعدي وقد تسلقت هناك عصر أحد الأيام المشرقة. وبعد جهود مضنية لتسلق المنحدرات الحادة والمكسوة بالأعشاب وسلوك ممرات متعرجة وصلت إلى قمة الجبل. لقد امتد أمامي منظرٌ باهرٌ لسهل شيراز الفسيح الذي ازداد رونقاً وبهاء جهة الجنوب الغربي، حيث ارتفعت فوق البحر المالح الأزرق جبال أرجوانية تزينها الظلال والشمس وتغور في طبقات إثر طبقات من الظلمة الكثيفة والغيوم البيضاء التي تدفعها الرياح العاتية التي نفخت وجهي حال وصولي إلى المنحدرات الجرداء، وهناك إلى الأسفل مني وفي تجويف صغير كان موقع البئر. لقد كان مستطيلاً كبيراً مشقوقاً بشكل منظم وينزل إلى الأعماق المظلمة حيث يقيس الحمّام هذا العمق الذي يؤدي إلى حدوث ضوضاء وأصوات صاخبة في هاويته. لقد اتسم تاريخه بالكآبة والغموض. إذ لم يستطع أحد من الناس سبر غوره أو قياس عمقه. منذ العصور القديمة حاول الرحالة ولكن اللغز لم يحل رغم الجهود التي بذلوها. فقد أشار

Twitter: @alqareah

كورنيليوس لوبرزين عام 1704 إلى أنّ عمقه يبلغ 429 قدماً و 11 بوصة، ولكن الآخرين الذين قاموا بمحاولاتهم لقياسه اعترضوا على صحة قياس لوبروين. أما الدكتور ويلز الذي قام بمحاولاته حديثاً فقد كان عاجزاً عن الاستمرار في القياس أكثر من (600 ياردة). هذا هو البئر إذن ومثلما ما يزال عمقه لغزاً فإن استعمالاته ما تزال هي الأخرى مفزعة. ففي أعماق هذه الهوة السحيقة كانت تُقذف نساء شيراز الخائنات. فعندما نظرت حولي وجدت بعض الأحجار فانحنيت وقذفتها في الفراغ الأسود حيث سمعت الأصوات الجوفاء تتلاشى تدريجياً بعد ثلاثين ثانية، وعند النهاية لم نسمع رشاشاً للماء أو صدى ينبئ بوصول حجارتي إلى مستقرها. وعندما بسطتُ وجهي لأنظر إلى الأسفل نحو قعر الحفرة المرعبة وسمعت دمدمات قادمة من الجوف العميق، أصابتني رجفة في أنحاء جسمي متذكراً تلك الأجساد التي اخترقت هذه الأعماق وأطلقت ذلك الصدى. كانوا قد قُذفوا إلى البئر من على الحجر نفسه الذي أقف عليه وكانت هذه القطعة البيضاء من الصخر هي آخر خطوة إلى الخلود، لقد تخيلت تلك الأجساد وهي ترتجف وتتضاءل فوق الحافة وتولول، ثم تصمت وتعود إلى الصراخ مرة أخرى وسكون مطبق وارتجاف ثم النهاية الأبدية بعد السقوط إلى الهاوية.

تراجعت إلى الخلف وابتعدت عن المكان وألم يعصر قلبي وشعور بارد يغمرني مفكراً بما حقّقته قذائفي في نهاية رحلتها.

ففي هذا الوقت، وعندما يكون تحرير المرأة حقيقة مؤكدة في العديد من المستعمرات وأمراً قريب المنال حتى في الأقطار المحافظة، فإن الشيء المؤلم والشاق أن تتصور القيود التي تقيد الجنس في البلاد الشرقية. ففي الغرب ذاته ولسوء الحظ هناك شعور سائد بأن المرأة هي نوع من الحيوان الأليف الراقي. لكننا، على العموم وكما قال جورج ميريدث «قد طوقنا موضوع تعدد الزوجات حتى لو لم نبحر إلى المضيق التركي»، ففي البلاد التي أتجول فيها ما يزال الناس متمسكين بموضوع تعدد الزوجات وعصر الحريم

Twitter: @alqareah

ويُنظر إلى المرأة على أنها قطعة أثاث أو شيء خلقه الله حتى يتمتع به الرجل وينجب الأطفال ويعتني بهم، شيء له نصف روح لا اعتراف به ولا حقوق له عدا تلك الأمور التي تضطر إلى الحصول عليها بوسائل المكر أو الإغراءات فهم يوجهون لهن العقاب. وهكذا يعاني الجنس، ولكن ولسوء الحظ كلما عانى الجنس كلما تضاءلت احتمالات الوصول إلى حالة اجتماعية مرغوبة أو منسجمة. كما أن حظ المرأة ضئيل في الوقت الحاضر إذا ما أُريد لها أن تكون كالحيوان الأبكم، أما إذا عُوملت بطريقة حسنة وحصلت على مزايا خاصة فإنها ستتجنب بدون شك سوء المعاملة ومن المحتمل أن تحقق قوة ونفوذاً إذا ما استخدمت المداهنة. ففي ظل ديانة البلاد اعتبرت متدنية في وضعها ومركزها. فهي موجودة على الأرض كلعبة للرجل انطلاقاً من حقيقة أنّ تعدد الزوجات مسموح به، ومهما كانت فاضلة ومظلومة في الدنيا فإن الخيال الفارسي قد نسب إليها نصف المكافأة التي يحصل عليها الرجل العادي الذي يجمعها لآخرته السعيدة. ففي بلاد فارس، كما في الجنة الفارسية، للمرأة نصف القيمة.

لنعُدْ إلى حدائقنا، إذ من أجمل وأمتع الزيارات التي قمت بها أثناء وجودي في شيراز كانت إلى مكان مرتفع في التلال الواقعة خلف المدينة. كان يُسَمَّى «بئر بابا كوهي ـ بابا ـ التل، وكان تسلقنا للوصول إلى البحيرة الصغيرة والكوخ الحقير حيث كان يعيش ذات مرة أو يقال بأنه كان يعيش ناسك عجوز سمي المكان باسمه، وفي الطريق إلى هذا المكان استمتعت بسماع قصة فارسية في مضمونها والتي سأرويها هنا.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

10

طير الماء الأسود

إن أول كلمة يسمعها المسافر إلى بلاد فارس هي «إن شاء الله» حيث يرددها الفارسي في كل مناسبة، مشيراً بذلك إلى تقديم الدين في كل شأن كما تبين ميزته الوطنية في عدم الثقة والغموض. فالفارسي لن يلتزم بشيء وإنما هناك من يلتزم عوضاً عنه، وهو يلقي مسؤولية قول أو وعد على الخالق ما دام التوجُّه إليه من هذه الأرض مستحيلاً، لذلك فهو سعيد بفعله هذا واعتماده على غيره.

إن المناسبة التي جعلتني أستمع إلى هذا التبرير الذي ابتدعه الفارسي لممارسة ربط كل شيء بمشيئة الله كان سؤالاً كنت قد طرحته حول إمكانية وصولنا إلى بئر «بابا كوهي» قبل مغيب الشمس حتى أتمكّن من التقاط صور للمكان. وبتذبذب ديني جاءني الجواب «إن شاء الله» سنكون هناك في الوقت المحدد. «أنتم الفُرْس ترددون إن شاء الله كثيراً» قالها سيف بسرعته المعهودة واحتقاره المعروف للأجانب، وهكذا استمتعنا بقصة «إن شاء الله».

يبدو أنه في يوم الخلق (بالنسبة للفارسي لا يوجد شيء مثل تأسيس وإرجاع نقاشه إلى الوراء وإضافة ما يحلو له إليه واستقطاع ما يتناقض معه) إذ لم تحاول الطيور المخلوقة لأول مرة الطيران بأجنحتها. وقد حدث ذلك وبكل وضوح في ساعة متأخرة من النهار وفي مجلس تقرر تأجيل الأمر إلى الصباح التالي (من

Twitter: @alqareah

الواضح أن الخلق بدأ في بلاد فارس) وهكذا ذهب الجميع إلى فراشهم (إجراء كئيب حيث لم يكن لديهم وقت لإعداد عش مريح)، وعندما غادروا المكان تمتموا «إن شاء الله» سنطير غداً. كلهم رددوا ذلك ماعدا الديك والدجاجة اللذين لم يقولا «إن شاء الله» إما بسبب وقاحتهما أو بسبب رغبتهما الملحة للنوم. ويؤكد الفرس بأن الخالق ولسوء الحظ سمعهم، وهكذا عندما حانت لحظة العمل انطلقت الطيور محلقة في الهواء ما عدا الديك والدجاجة اللذين بقيا عاجزين عن رفع نفسيهما أكثر من بوصات قليلة عن الأرض. ولهذا فإن كل شيء معقود بكلمة «إن شاء الله» من أجل تجنب درس آخر في التواضع المحكم كما يقول الفارسي.

في كل مساء تجري طقوس غريبة ومثيرة في كل أنحاء شيراز، ويتمثل المنظر بأكمله في الباحة الملحقة بقصر حاكم المدينة وهو فراغ فسيح مكشوف تحيط به جدران كئيبة المنظر، مازال لدينا متسع من الوقت في نهاية النهار والشفق ما يزال يغمر السهل والتل. وفجأة ولحظة غياب الشمس، سُمع من أحد الأبراج المطلة على الميدان ضجيج غير اعتيادي يصم الآذان. إنها الفرقة الفارسية تنتقص من قيمة أو أهمية الشمس. وعلى نقر الطبول والإيقاعات الغريبة على أُذن الغربي والصياح النشاز والتهليل غير المتناسق أخذوا يرحبون بغياب الشمس واختفاء ضوء النهار.

حدث المشهد نفسه عام 1787. يقول فرانكلين: «مقابل القلعة في الميدان الفسيح الجميل توجد منصة وعليها احتشدت فرقة ألحان موسيقية بأبواقها وطبولها وآلاتها الأخرى تعزف بانتظام لشروق الشمس وغروبها، وهناك كان الطبالون والنقارون والضاربون على الدفوف والأبواق يؤدون ألحاناً تشبه نفير العربة في زعيقها وعدم تناسقها وانتظامها حيث يمارسون هذه العادة منذ مائة وستة عشر عاماً، وعندما تتواصل عمليات التطبيل والتزمير والتهليل فإن المسافر سيصاب بالصمم لحدتها وشدتها وطول فترة أدائها. هذا هو التقدم والتطور في هذا البلد الشرقي.

Twitter: @alqareah

في أحد الأيام وقعت لي حادثة أثبتت قابليتها للتطور والنمو وسأدع مفكرتي اليومية تتحدث عنها:

استيقظت هذا الصباح حوالى الساعة السابعة ورغم تعليماتي الدقيقة جداً في الليلة السابقة لرحيلنا إلا أنه لم يستيقظ أحد. بعد أن انطلقت في نزهة قصيرة في هواء الصباح لأقوم بمحاولة فاترة لدعوة الخدم للنهوض من نومهم، إلا إنني توقفت ووثبت في حوض ثلجي بارد وسحبت ملابس من مختلف الأماكن حتى وجدت نفسي مستعداً للبدء والانطلاق. في النهاية لاح خادم، حددت مفردات اللغة الفارسية إلى أبعد حد، أوضحت بأنّ عليه أن يرسل كل شيء إلى بيت صديقي. ثم حضر حصاني الخاص وانطلقت. لقد أحضرت هذا اليوم العدد الرابع من البط والعدد الثامن من الشنقب، وبندقية لأي شيء كبير قد يعترضنا لأن الاحتمالات لن تكون مؤكدة.

إنه صباح بهيج حيث تميز المنظر بالصقيع الأبيض الساطع حال بزوغ الفجر من الجنوب الشرقي. وظهرت في السماء غيوم قرمزية كثيفة مثل الرمال المنقطة تلمع بجلال فوق التلال الأرجوانية، وكان الهواء لاذعاً منعشاً تلفح الجسم لفحات ضئيلة منعشة ليست كتلك القرصات المؤذية في الشتاء الداكن التي حركت مشاعرنا وهزّت أحاسيسنا حتى أننا تمتعنا بالدفء الهادئ. شعرت بأنّ من المستحسن أن يبقى الإنسان حياً - يتنفس - يتحرك، ومن الواضح أن حصاني كان يشعر بالسعادة مثلي تماماً حيث استدار نصف دورة حالما اتجهنا نحو المنعطفات الحجرية اللزجة وسرنا في طريقنا بحذر وسط الأسواق صوب السهل الفسيح خارج المدينة.

وعبر السهل اتخذنا طريقنا. بمحاذاة التجاويف العميقة وبالقرب من الحدائق الصغيرة ذات أشجار السرو السامقة وأشجار البتولا البيضاء. واصلنا المسير حتى وصلنا حافة طويلة جرداء خلف الحدائق في الوادي حيث من هنا شاهدنا وميض الماء. وتقع هنا حقول الصيد. وبعد أن نزلنا المنحدرات إلى الأسفل وجدنا بيتاً في أحد الحدائق وهو منتجع صيفي لإحدى الشخصيات

Twitter: @alqareah

الفارسية البارزة. وفي الداخل وجدنا مظاهر الحفاوة من خلال منضدة مغطاة بقطعة قماش بيضاء وقد وُضِع عليها بيض وشاي والخبز الفارسي الأسمر المتميز.

وبعد اندفاع حار نحو الطعام سارعنا إلى تناول البيض والتوابل الفارسية، ثم انطلقنا عبر السهل الأجرد نحو الضياء الذي لمحناه عن بعد.

اللعبة ظاهرة للعيان، أخطأت الطلقة بطة جميلة ولكن سرعان ما صادفنا طيراً أسمرَ بديعاً لم أشاهد على الإطلاق طيراً من هذا النوع من قبل، وهكذا وضعت بندقيتي على كتفي ثم خفضتها. وكان صديقي يجهل تماما طبيعة الطير، ولذلك أتاح للطير فرصة الطيران بعيداً عن مدى الإطلاقة. اتجهنا إلى صديقنا الفارسي وسألناه عنه. أخبرنا بأنه الحبَارى (طير الماء الأسود) وهكذا أضعنا فرصة أخرى. على كل حال، لقد ضاعت ولا داعي للبكاء على طيور الحبَارى المفقودة. واصلنا المسير حتى وصلنا إلى مجارٍ مائية سَبِخة حيث اتخذ كلانا طريقين مختلفين، وأخيراً وثب الطير الأسود بعيداً في مساره المتعرج بحيث لا تصيبه الإطلاقة وقد كان ذلك، على كل حال، أمراً مشجعاً إذ انطلق عن يميني صوت طلقات كثيرة، وهذا يعني أن صديقي قد حظي بصيد وفير. تحاملت على نفسي متشجعاً ومدفوعاً بروح جديدة. لمعت الشمس من الماء حالما خضت في الطين والمستنقع، ومرة أخرى عادت الجلبة حيث طار شنقب آخر أمامي. لقد دخلت في هذه الأرض الطينية الآن، إذ اندفعت أعداد أخرى كبيرة تتبع الطائرين الأوّلين سواء إلى الفضاء البعيد أو إلى حقيبتي التي يحملها الفارسي، وكنت حينئذ في غاية الانتباه والملاحظة، وكنت في الوقت ذاته أشعر بسعادة غامرة عندما كنت أدخل مستنقعاً ضحلاً يبلغ عرضه ثلاثين ياردة ومغطى بنبات القصب الكثيف. ثم أسقطت شنقباً هوى بين عيدان القصب وأفلت طير آخر أخطأته الطلقة ليختفي بعيداً داخل القصب، حددت المكان واقتربت بحذر على طول جزيرة خضراء تشكل مرجاً من البردي

Twitter: @alqareah

يخترق جدولاً سبخاً. هنا يقع القصب الذي توجهنا إليه، وبعد خطوات قليلة من هنا ينبغي أن أجده، وبعد صهيل ونخير وتدفق رشاش الماء اندفع بعنف على بعد خمس ياردات أمامي كتلة سوداء ذات عينين متقدتين وخرطوم عريض وشعر أسود ـ إنه خنزير بري حيث اتجه مباشرة نحوي، الأمر الذي جعل قلبي يدق فجأة وتزاحمت في عقلي أفكار غريبة في فترة زمنية قصيرة «إطلاق النار سيُهيجه، ليس أمامي سوى طلقة الصيد» ثم، إنه قادم نحوي، لن يكون أكثر هياجاً مما هو عليه الآن. حدث كل هذا بينما أضع بندقيتي على كتفي وحتى قبل أن أفرغ الواحدة تلو الأخرى، أطلقت المخزنين على وجهه ثم لطمته بدون وعي ببندقيتي الفارغة.

لقد انتهى الأمر قبل أن أدرك حقيقة ما جرى، ووجدت نفسي مستلقياً على ظهري في المستنقع وتتراقص أمامي صور الحيوان المندفع نحوي وأصوات غريبة ترن في أذني، ثم إدراك محمود بأنه لم يصبني بأذى بأنيابه. وأول ما فكرت فيه هو المهاجم. «توفانج، توفانج» (بندقيتي، بندقيتي) صحت على الفارسي الذي جاء مهرولاً بأقصى سرعة ووضعها في يدي، وكنت أخشى أن أكون مرتبكاً مهزوزاً في تلك اللحظة. وقد منعتني حافة الجدول من الركوع على ركبتي كي أطلق النار وهكذا انتصبت واقفاً وأطلقت طلقة «موزر» تئز خلف الخنزير الذي كان يفصلني عنه حوالى مائتي ياردة ثم حشوت البندقية بسرعة وأطلقت طلقة أخرى لينبعث الغبار من يمينه، ثم أرسلت طلقة ثالثة ولكن بدون غبار هذه المرة إلا أن صوتاً مكتوما صدر منه وتعثّر قليلاً ثم نهض متخبطاً مرتبكاً بسبب الطلقة ليتجه صوب المستنقعات في الجهة الشرقية. قمنا بتعقُّب أثره متخذين بقع الدم دليلاً لنا ولكنها مع الأسف قادتنا إلى الأعماق الكثيفة لحقول القصب العالية والشاسعة. إنّ تعقُّب خنزير جريح في مثل هذه الأماكن ليس أمراً جنونياً ولكنه بدون جدوى أيضاً، ولذا تخلّينا عن مطاردته وتوقفت أخيراً لأمسح الطين الذي غمرني بالكامل.

Twitter: @alqareah

وسواء كانت طلقة الصيد هي التي حالت دون إصابتي أو اقتراب الخنزير مني، وسواء كان الخنزير مرتبكاً وخائفاً مثلي وأنه فقط طرحني أرضاً عند هروبه، فإني لا أستطيع أن أقرر ولكني أقسم بأنني في المرة القادمة سأستمر في إطلاق النار على الخنزير بكل ما عندي من ذخيرة.

والآن رأيت أشكالاً سوداء تتحرك في بحيرة صغيرة أمامنا، إنه إوز، لقد لعنت نفسي صامتاً لأني لم أحضر الصنف الثاني من الطلقات، ثم حشوت مخازن البندقية وتسللت حتى أصبحت على بعد خمسين ياردة. حينئذ ذُعِرَتْ، ضَربت الماء ورفرفت ثم طارت، مما جعلني أرخي المخزنين بتأثير كبير وكأنني استخدمت مسدساً صغيراً جداً. لقد أربكتُها وهاهي تطير نحو الجنوب رافعة راية النصر. حان الوقت الآن كي أعيد تنظيم خطواتي وأسلك طريقاً من المياه العميقة.

لنعد إلى المستنقعات الضحلة وإلى صديقي. في تلك اللحظة كانت تهب ريح عاتية بحيث كان ريش الشنقب يتطاير هنا وهناك. حاول رفيقي الاحتماء في زاوية تحت الجبل، وفي الوقت الذي كنت أنحني فيه لأوجِّه طلقة وسط الماء المندفع كان رفيقي متهيئاً حيث اندفعت الطيور بجنون للاختباء من العاصفة. إنها رياضة جيدة ولكنها ليست مربحة، وهكذا عدنا إلى الوراء حتى تصبح الأمور أكثر إثارة. إنها رياضة مثالية، باقات من الأعشاب متناثرة بين الطين الناضع بالماء وبين نبات القصب القصير. وهنا وهناك تجد تألق الماء والطيور الصغيرة والأعشاب النامية وسط الجُزُر الخضراء صامدة ومقاومةً الرياح العاصفة. لا قيمة لرشاش الماء في المستنقع والمسافة لا تعني شيئاً، فالعقل يهتم فقط ببريق المخازن وتلألؤ الماء والنفحات الصامتة المتواصلة لطير أسمر صغير يظهر ثم يختفي بعيداً. خضنا في الماء حتى وصلنا أخيراً في النهاية إلى أرض صلبة بغيضة.

على مسافة منها كان ثمة مستنقع كبريتي كريه الرائحة يكسو

Twitter: @alqareah

سطح البحيرات الصغيرة من الماء زبد أخضر مثير للاشمئزاز، ومع ذلك فإن الطيور تحبه وكل شيء محبب لها فهو محبب لنا أيضاً.

وهكذا انتهت فترة الصيد في النهار حيث تُركت أسير وحدي فوق أرض جافة تغطيها طبقة من الكبريت. انتهت حالة الإثارة التي واجهناها في الساعات القلائل الماضية وشعرنا بالرضا التام للغرائب الطبيعية المسالمة التي غمرتنا بالراحة والتي كانت أفضل من الانتعاش الأحمق السابق. فهناك إحساس بأن ثمة شيئاً أجمل وأبدع في العالم من الإثارة والاهتياج والفرح بسلوك منتصر ومسعى ناجح. فالسلام، عموماً أفضل من العاطفة مهما كانت هذه العاطفة مشحونة بالحماس. والسلام هو النهاية الطيبة لكل شيء.

بعد يوم شاق ومرهق، استرخيت تحت أشعة الشمس وتلاشت قوة الرياح وامتد السهل بلونه الأسمر والأخضر حتى الجبال الوردية المكسوة بالثلوج، وكان الهواء الصافي حادّاً قارصاً بارداً.

عدنا ثانية إلى الحديقة الصغيرة فوجدنا تلك الأشياء المادية المريحة والتي يا للأسف! على هذه الأرض لا تكتمل الأمور كما ينبغي. فقد تناولنا وجبة شهية، وحال غروب الشمس خلف التلال بدأنا رحلتنا الممتدة ثمانية أميال إلى محل إقامتنا. كان حصاني قد فقد حدوته ولذلك تبادلت الركوب على حيوان خادمي، الذي كان يسير مربوطاً بحبل من أنفه حتى يُجرُّ منه. وعلاوة على ذلك، كانت تجربة قاسية أن تجلس وساقاك متدليتان على الجانبين كليهما، على سرج جلدي يسمى «خورزن». ومع ذلك ركبت مسافة ميلين ومشيت الأميال الستة الباقية فالمشي على أية حال يخفف من البرد.

بزغ القمر ومشينا في أرض داكنة وسط الضباب الكثيف، وشاهدنا هنا وهناك بين الفينة والأخرى حديقة مظلمة وأشجار السرو السوداء النظيفة. إحدى هذه الحدائق تسمى «الحديقة المسكونة» كانت مهجورة وتتكون من أنقاض خربة وتسكنها الأشباح واللصوص وقطاع الطرق. وأخيراً لاحت مدينة شيراز ذات

Twitter: @alqareah

الأضواء الخافتة والضباب الأبيض يغطيها، ثم وصلنا إلى الأزقة الظلماء التي تنعكس عليها أشعة القمر ويلوح من بعيد ضياءٌ متوهج من شباك بيت آوى إليه رحالة طلباً للراحة ومتعة السكن الدافئ. وعلى كل حال ينظر الفُرْس بقدر من الاحتقار والاشمئزاز للصيد الصغير، فهم يستمتعون بمطاردة الحيوانات الكبيرة ويتخذون مختلف الوسائل للصيد طبقاً لأذواقهم ونوعية الصيد، إذ يطلقون النار على النمر أو ساق الوعل أو يركبون أو يطاردون الظبي كما يتباهون بصيد الأسد، ولكن الأمر ليس كذلك.

ففي العصور السابقة كانوا يخرجون لاقتناص الغزال ويقدم السيد تافيرنير وصفاً لهذه الرياضة، يقول بأن الملك يستمتع كثيراً بصيد الخنزير وذَكَر الأيل وإذا ما أخطأ صيده يطلق خلفه الكلاب، أو يدع الصقر يطير ليمسك برأسه وينقره بشكل متواصل حتى يربك الحيوان وينهكه في الوقت الذي تكون فيه الكلاب تتعقبه وتمسكه. فالصقور مدربة مثل الخيول فهي لن تدع الصيد يفلت منها حتى يقدم لها مدربها المكافأة التي تتضمن جلد وجسم ورأس نكر الأيل، ويمثلون به مثلما يمثل الحيوان المفترس بطريدته. وبعد الانتهاء من الافتراس بهذه الطريقة يضعون جثة الحيوان على عربة تجرها الخيول أو أحياناً بعض الرجال وتصبح مادة دسمة للصقور والكلاب.

لقد كان ملوك الفرس مغرمين بصيد الحيوانات فهم يرغبون في إظهار مهارتهم وقوتهم حيث كان الشاه «سيفي» يدعو السفراء إلى بلاطه، وغالباً ما كانوا من التتر والروس والهنود، ويصطحبهم معه إلى حقول الصيد لاصطياد ذكر الأيل والأيّل الأسمر والأيائل والخنازير البرية، كما يقوم بتجهيزها كغذاء لهم في اليوم نفسه. وعندما كانوا يتناولون طعامهم كان أحد المعماريين ينظم رؤوس هذه الحيوانات على شكل هرم وينصبه في مركز مدينة أصفهان والتي ما يزال يوجد بقايا منها حتى الآن.

وعندما ينتهي المعماري من إقامة تمثاله الهرمي المكوّن من

Twitter: @alqareah

رؤوس هذه الحيوانات كان يتقدم فرحاً من الملك ويخبره بأنه لا يريد شيئاً سوى رأس حيوان واحد كي يكتمل عمله، وسواء كان الملك مخموراً أو متظاهراً أمام السفراء بطريقة معاملته لرعاياه، يلتفت جذلاً تجاه المعماري: «لقد فعلت حسناً» يقول له «لا أعرف أين أجد رأساً أفضل من رأسك». وهكذا يضطر المعماري البائس لتقديم رأسه للملك الذي يأمر بقطعه وفصله عن جسده.

إنّ خبرتي الخاصة بالصيد الكبير (ومن التضليل تسميته «صيد بإطلاق النار» إذ لم تطلق النار على أحد في هذه المناسبة) كانت مثيرة بالنسبة للوسائل والأخلاق ولذلك سأقتطعها من مذكراتي اليومية:

بعد بزوغ النهار بوقت قصير انطلقنا وبصحبتنا حاشية من عشرة رجال على ظهور الخيل لحماية شاب غِرّ متأنق يعمل مرافقاً لإحدى الشخصيات الفارسية اللامعة، والذي زودنا بكل اللوازم التسهيلات للقيام بهذه الرحلة الاستكشافية.

كل حاشيتنا مسلحة بأسلحة فتاكة ويركبون خيولاً تمثل تماماً المفهوم الشعبي «خيول عربية مطهمة»، ومن أبرز الخصائص المبهجة للفارسي جذله الطفولي، واصلنا سيرنا وأتباعنا يضحكون ويتمازحون فيما بينهم. تخبُّ الخيول أحياناً وتعدو بسرعة أحياناً أخرى، وتتسابق فيما بينها منطلقة فوق أكوام من الحجارة المتناثرة على الطريق. وعندما عبرنا بوابة أصفهان وبدون كلمة تحذير، اندفع مجنون طائش نازعاً بندقيته من على كتفه وعندما وصل إلى حفرة في الطريق انطلقت طلقتان وزوبعة من الدخان، ثم انحرف بعيداً ولم يصب بأذى ولكن ما فعله يجسد السلوك الفارسي المرح.

تحوّلت الغيوم الكئيبة إلى ثلوج تتساقط وتتراكم بشكل ممتع عندما كنا في طريقنا إلى منطقة «ركن آباد» في الشمال والتي كان

Twitter: @alqareah

يحبها حافظ، وقد كنت نصف متجمد حين توقفنا بعد ثمانية أميال حتى نسمح لمثيري الطرائد من مكانها التقدم إلى الأمام.

وهنا أيضاً حصلنا على توضيح آخر حول اللامبالاة الظريفة للمواطن الفارسي. عندما ركب مثيرو الطرائد وانطلقوا أطلق النار أحدهم بعنف محدثاً ضجة عالية حتى أفرغ بندقيته، ولكنه وجّه الطلقات إلى الأرض ولحسن الحظ على بعد أقدام قليلة من جانبي الأيسر. إنها مزحة كبيرة بوسعي أن أتمتع بها بعد أن انتهت، ولكني نظرت نحو المخازن الفارغة باستغراب حين اكتشفت وكما هي العادة أكثر من سلاح ناري يتأرجح على الأكتاف بتثاقل.

نحن نتخذ طريقنا خلال صعود جرفي حيث يتنازل الفارسي للمشي فيه، وتحتنا على مسافة طويلة هناك سهل فسيح مكسو بالقصير من الأشجار حيث شاهدنا أولئك الذين سبقونا يتحركون أسفل تلال بعيدة مثل لعب صغيرة.

وفجأة، بدوْا يتحركون بعنف، يخِبُّون هنا وهناك ويهرولون بسرعة عند أسفل الجبل «ما هذا؟» سألنا. «لقد اصطادوا ظبياً أو حيوان الموفلون ويحاولون وضعه على الحصان» إنه أكثر فكاهة لهم وليس لنا. سيطلقون النار إذا تمكنوا حيث يُحضر الفارسي مثل هذه الحيوانات ببطء شديد من خلال إطلاقة يطلقها وهو على حصانه، وهكذا يمزج الصيد وإطلاق النار معاً. لدينا اليوم بنادق وخيولنا ليست مدربة تدريباً يسمح لها القيام بذلك، لذا واصلنا المسير بتؤدة حتى الطرف البعيد من السهل حاسدين أولئك الذين يصطادون طرائدهم.

وأخيراً ترجّل رجل وربط حصانه بشجرة صغيرة. لقد كان هذا أول توقف لنا ويمثل نهاية المسلك المؤدي إلى الجبال، وبعد هذا قمنا بترك حصان كل مائتي ياردة قرب المجرى المائي المنحدر من التلال ثم ترجّلنا جميعاً وتقدمنا إلى الأمام مشياً على الأقدام. وعلى طول هذا المجرى توجد كمائن صغيرة من الحجر يبلغ ارتفاعها

Twitter: @alqareah

ثلاثة أقدام والتي يستخدمها رجال الصيد انتظاراً لوصول الطريدة المدفوعة نحوهم. وبعد أن تركت مع صديقي في الكمينين الواطئين ذهب المرافق وطالب طب كان قد انضم إلينا إلى الأرض المرتفعة صوب الجبال إلى مواقع أخرى هناك. أخرجت لفافة من حقيبتي الجلدية وانغمسنا أنا وصديقي في تناول البيض والرمان ثم تراجعنا خلف كمينينا الصغيرين وأخذنا نراقب. كان بوسعي أن أرى على بعد مائتي ياردة إلى الأمام لكن حال ارتفاع الأرض دون رؤيتي أبعد من ذلك.

بقيت لمدة ربع ساعة محدّقاً إلى الأفق في هذا الاتجاه ـ لم يتحرك شيء، وعندما حاولت أن أتحرك أدركت بأن ساقي عاجزة عن الحركة كذلك وأنها قد استرخت للراحة. ثم أيقظتها بحذر شديد وحاولت أن أضع ثقلي على الساق الآخرى والتي أظهرت عدم ميل للحركة مثل الأخرى. بدأت أتساءل فيما إذا كان يمكن رؤية قبعتي على قمة سرج الحصان وحتى أتأكد من ذلك وضعت رأسي بين أغصان شجرة صغيرة ملتصقة بالقمة مما جعل جاري يلتفت حول سبب الضجة التي أحدثتها. «هراء» سقطت بندقيتي واختفى منظرها في الأرض، وبعد أن قمت بمسح ساقي المخدرة بالتراب مررت بعشر دقائق من الهدوء إلى أن حاولت التأكد من أنّ ساقي ما زالت هناك فتمددت على ظهري على جزء من رمانة مما أدى إلى تلطيخ سترتي الخاكية. ولكن لا أثر للوعل وبدأ الريح يشتد برده وتتساقط الثلوج بدرجة أكثر. بدأت ساقاي تنفصلان عن بعضهما الآن وراحت يداي تتحسسانهما. هوذا عواء خافت يعلو من بعيد مما أنعش الأمور لمدة خمس دقائق، وعندما عادت المشاعر المضطربة في ظل رغبتي الشديدة للوعل لاح شيء في الأفق. بدا أنه رجل على ظهر حصان، إنه أحد الصيادين. وقفت بعد جهد وسألناه عما رأى. «آه، نعم رأينا سبعة وعول (إن التنظيم الاعتيادي لتقسيم الجمل الفارسية على أربع لا يؤدي هنا إلى نتيجة مرضية ولكن لنجعلها على اثنين)، «هنا يوجد حجلان» كما رأى زوجين من الطيور الجميلة أكبر كثيراً

Twitter: @alqareah

من الحجل ذات لون أسمر داكن وريش لونه أسمر فولاذي، وهناك طيور أخرى منقطة باللون الأسمر والأصفر وذات سيقان حمراء ومنقار أحمر كبير، وكانت النتيجة الملموسة للمطاردة هي الحصول على بقرة، وأكدوا بأنهم وجدوا لصاً يستحوذ عليها فقاموا بطرده وتحرير البقرة منه. وبوسعي أن أقول بكل جرأة إن من المحتمل وجود لصوص في المنطقة، وأقرب إلينا من أوغاد القصة البطولية.

حان الوقت الآن للطعام. فقد أشعلت النار حول زاوية وعندما وصلنا كان الغذاء الفارسي قد قُدِّم.

كان هذا العمل محكماً للغاية حيث رتبت عشر أوانٍ من كافة الأشكال والأحجام على بساط كبير جلسنا حوله وأمامنا الخبز الفارسي مثل المناديل الصالحة للأكل. كما قُدِّم مرجلان يحتويان على الأرز الأبيض في أحدهما، والأرز المتعدد الألوان في الآخر، وتحتوي الأواني المستديرة على الدجاج وقطع من اللحم المشوي. لقد توقَّعنا تناول طعامنا بأصابعنا ولكننا فوجئنا بوجود السكاكين وشوَك الطعام، وبدأنا تناول طعامنا في ظل دهشتنا من هذه الأصناف المتنوعة من الطعام.

إنها بكل صراحة الطريقة الفارسية عندما تستخدم الشوكة في كل شيء حتى في اختيار قطع الخبز من الإناء (وبصورة عرضية كنت مسروراً لأني ذهبت أولاً إلى إبريق الماء لأني لاحظت فيما بعد أن صديقنا الفارسي يضع أنبوب الإبريق في فمه)، وعلى كلٍ سارت الأمور على ما يرام إذ أكدوا لنا بأن لا جدوى من الصيد والمطاردة حيث أن الوعل لن يخرج بعد (لم أكن أعرف ولكني لم أهتم)، ثم انطلقنا إلى محل إقامتنا وكان علينا أن نسير اثني عشر ميلا وسط المطر الغزير والرياح الباردة وبعدها كان الشاي والنار مدعاة لتدفئة أعماق قلوبنا.

Twitter: @alqareah

11

بعض الحوادث من الحياة الفارسية

«من رغب السفر من أجل متعة الآخرين، عليه أن يتنكر بأن أهم الأمور الواجب ملاحظتها هي الحياة الإنسانية».

دكتور جونسون «العاطل» رقم 97

يقول مالكولم بأنّ «الاحتفالات والمظاهر تؤدي إلى قدر كبير من الاعتبار في جميع الأقطار وخاصة بين الشعوب الآسيوية». وهكذا الأمر بكل تأكيد في بلاد فارس ومالكولم نفسه أدرك جيداً الأهمية المعتدلة بالالتزام التام بقواعد التشريفات، وببراعته التي كانت سبباً في نجاح مهمته الاستكشافية. درس بنفسه كما جعل أتباعه يدرسون الدقة المتناهية واعتزازهم بأولئك الذين قابلوهم، وبالمقابل توثيق تلك الملاحظات الودية التي خُوّلوا بملاحظتها وتدوينها. ففي الواقع إن المواطن العادي في أي بلد يتأثر قليلاً بالمعرفة والملاحظة غير المتوقعتين لعاداته من قبل الأجنبي، والذي يريد أن يحقّق موضوعه دون احتكاك وتأثر عليه أن يدرك ذلك جيداً. ومن المحتمل بطبيعة الحال إحراز نتائج بالقوة، ولكن من المؤكد الحصول عليها بيسر وسهولة بممارسة المهارة الودية والمؤدبة. فالذي يفعل في روما ما يفعله الرومان سيجد الطرق معبّدة ومفتوحة أمامه أمّا الآخرون فسيواجهون العقبات.

Twitter: @alqareah

بالنسبة للمظاهر الاحتفالية والتقاليد فهي تختلف من منطقة لأخرى، وكل جنس بشري وكل البلاد تتشابه في نظرتها إلى الشخصية غير المادية والتافهة من خلال الطقوس التي يولونها أهمية. ولا بُدَّ أن تتذكر كذلك وخاصة في بلد أجنبي، أنه إذا كان اللحم للإنسان فهو السم لإنسان آخر، لذا فإن ما يُعد ضرورياً في بلد يعد تافهاً ومضحكاً في بلد آخر. إذ يبدو مضحكاً للإنكليزي إذا قدمت شيئاً لشخص آخر في بلاد فارس بيد واحدة فمن الأدب أن تقدمه بكلتا يديك، أما إذا كان الشيء صغير الحجم ولا يحتاج إلى كلتا اليدين لتقديمه فمن الواجب تقديمه بيد بينما اليد الأخرى تمسك بها. وليس أقل سخرية ومدعاة للاستهزاء للفارسي من أن النساء الإنكليزيات وكذلك الرجال يضعون أيديهم في أيدي بعض عندما يتقدمون إلى مائدة الطعام، وليس هناك سبب في الحقيقة لعادة دون أخرى. وعلاوة على ذلك فإنّ أخطاء الإنكليزي بسبب جهله تقاليد بلاد فارس، تجعل الفارسي يشعر بالحزن والأسى على تقاليد إنكلترا. فالشخصيات المرموقة في طهران تُشاهد في حفلات العشاء الإنكليزية وهي تتجه إلى غرفة الطعام بشكل ساذج وطفولي وكل واحد منهم يمسك بيد قرينته، وفي إحدى المناسبات الخاصة اتخذ رجل فارسي بارز مسلكاً سارّاً وغير مألوف حين وضع يده على خاصرة السيدة وهو يُوجِّهها إلى مائدة الطعام. وذات مرة حيث يحكم المنطق في مثل هذه المناسبات والأمور، لا بُدَّ من سبب لتفسير أي مظهر أو تقليد، فالسبب لاستمرار وجود معظم التقاليد (عدا تلك المتناقضة مع التبريرات والتحيز المحافظ الأعمى) هو كونها تقليدية ولا ضرر منها وهذا سبب كاف.

عندما نصافح بعضنا البعض لماذا تقدم اليد اليمنى وليس اليسرى؟ لأنه في تلك الأيام الممهورة «بالأيام الغابرة المجيدة» كان من المستحيل أن نثق بأن الرجل الذي تصافحه لن يطعنك في خاصرتك بيده اليمنى بخنجر حين تكون قريباً منه، ولكن لا أحد في هذه الأيام يتخيَّل وجود هؤلاء الأصدقاء الذين سيعاملونه بهذه

Twitter: @alqareah

الطريقة الغادرة، إذ ليس للتقليد فائدة عملية فالانحناءة حتى الحذاء لتقديم فروض الطاعة والاحترام قد أملتها الضرورة وليس النزوة العابرة؛ لا، ولكن تقاليدنا مثل ملاحظتنا قد احتفظت باستعمالاتها إذ لا يمكن الدفاع عنها في الوقت الراهن إلا من خلال الذوق والتقليد فقط. ولذلك إذا كان بيتنا من زجاج فلا يجوز أن نرمي الآخرين بالحجارة، لأن تقاليدهم هي طرائق مختلفة في بيت زجاجي للنباتات.

ويمكن أن نؤكد بأن بعض العادات الفارسية تُعد متقدمة على عاداتنا. هل هناك أكثر بساطة ولطفاً من أن يُقدم الشاي إلى الضيف حال وصوله، كما يقدم له كوباً آخر حيث يشعر بأن الضيف سيمكث مدة أطول؟ مثل هذه العادة التي أصبحت تقليداً حقيقياً لسكان البلاد يُنظر إليها بأنها مرسلة من عند الله في بعض البلدان الأخرى. أما سبب هذه الأمور فهو غير منطقي أيضاً، إذ يجب أن تترك بكل بساطة كأدوات زينة تزيد البيت ذوقاً ورونقاً في الحياة المادية.

لا توجد أسباب أخلاقية أخرى إذن، ولكن هناك بعض الحوادث من الحياة الفارسية التي أتيحت لي الفرصة لملاحظتها بنفسي بينما كنت في شيراز.

الحدث الأول يتعلق بتقليد ومؤسسة خاصة تدعى «باست»، وهو نظام مقدس شائع في التاريخ وموجود حالياً في الشرق.

هناك بعض الأماكن في بلاد فارس التي يلتحق بها الإنسان سواء كان غنياً أو فقيراً، نبيلاً أو راعياً، وزيراً أو مجرماً، بحيث لايمسه أحد مادام تحت رعاية الحرم المقدس من خلال موقعه فيه. وفي البلاد التي يسود فيها العنف على القانون، تعتمد سلامة المواطن على مثل هذه المؤسسات البدائية.

عند مدخل الجامع، غالباً ما تعلق سلسلة، هذه هي «الباست» وكل من يلمسها أو يمر من قربها فهو آمن. وتوجد الأماكن الأخرى «للباست» في المدافع، وذيول الخيول الملكية ومكاتب التلغراف

Twitter: @alqareah

والأحياء السكنية والدوائر القنصلية ومقر المندوب السامي. ومن الجدير بالذكر أن فكرة الحرم المقدس تحمل في طياتها الاحترام والتقديس للمكان الذي تستخدم فيه. فالفارسي يقدس أئمته ويحترم أو يخشى الأوروبي وكل أعماله مثل المدفع أو التلغراف، وكل من عاش في الشرق يدرك القيمة العليا التي يحملها الشرقي للحصان. هناك شيء مثير وممتع إلى حد كبير من عصر إلى آخر حول تقليد «الباست»، ولكن في الممارسة العملية مثل المؤسسات الرائعة والكبيرة يصبح غير ملائم بصورة أقل. بمناسبة زيارتي لشيراز استشاط الحاكم غضباً من أحد رعاياه، فأرسل إليه حتى يقطع يديه. وبدلاً من إطاعة أمر الحاكم هرب الرجل المسكين والتجأ إلى مقر الممثلية الملكية البريطانية حيث ليس باستطاعة أحد إخراجه منها. لم يكن ذلك مستغرباً إذ مادام الرجل ملتجئاً إلى منطقة مقدسة فلن تقطع يداه، بينما إذا ما تجرأ وخرج فإنهما ستقطعان. لقد بلغ غضب الحاكم أشده ولكنه لم يستطع فعل شيء، ومع أن الأمزجة الشرقية حارة وعصبية إلا أنها أكثر عاطفية ولا تستمر العصبية طويلاً إذ ربما تحتاج بعض الوقت حتى يهدأ المزاج العصبي، ولهذا وُجِد الحرم المقدس المؤقت أو اللجوء إليه حتى يلجأ إليه المجرم الشرقي. وفي هذه الحالة، عموماً، فإن الزمن يمنح حكمة ومشورة لعقل الحاكم، إذ بعد عدة أيام من الإقامة المؤقتة أُخبِر صاحبنا أن بإمكانه مغادرة المكان دون خوف من فقدان يديه. هذا هو تاريخ مناسبة واحدة لتقليد فارسي خدم الغرض منه بدون شك.

وثمة حادثة أخرى زودتني ببصيرة ومعرفة بأخلاق البلاد التي كنت أتجول فيها، إذ قمت بتلبية دعوة لزيارة الحاكم الذي بسبب غضبه صار بطل القصة السابقة هارباً.

قبل وصف الزيارة أثارني تباهي الحاكم بنفسه. فهو من ناحية شخصيته مستبد وحاكم مطلق. ففي الكثير من الحالات يمكن القول بكل صدق أن المنصب يصنع الرجل، وعندما يكون المنصب ذا صفة استبدادية فردية على الأدنى ومقموعة أحياناً من المناصب

Twitter: @alqareah

العليا فإن النتيجة هي أن تكون مثل هذا الرجل، وكما هو الحال في أغلب الأحيان على رأس محافظة في بلد شرقي. متسرع ولكنه طيب القلب، عنيف ومع ذلك كريم، متهور ولكنه مع ذلك مقتدر. يمزج قسوة المستبد برقة الصاحب الودود، حيث جمع حاكمنا العديد من الخصائص التقليدية التي اتسم بها هارون الرشيد في «الليالي العربية» والذي يبدو أن حاكمنا قد ألزَمَ نفسه بتقليده، ولربما اعتبر نفسه نسخة ثانية من الشاه عباس العظيم المماثل الفارسي لهارون الرشيد. كان هناك بدون شك تشابه بين الثلاثة. فالحاكم لمدينة شيراز مثل خليفة «الليالي العربية» اتخذ التنكر وسيلة ليجوب الأسواق متستراً ليتعرف على أحوال الناس ويجمع المعلومات عن الملاحظات والتعليقات التي تقال عن نفسه المهيبة بين الحين والآخر.

وكان الشاه عباس قد اتبع الأسلوب نفسه للتعرف على الناس وأحوالهم. يقول تافيرنير: «من بين الحيل التي كان يتبعها الشاه عباس الماكر أنه كان يخرج متستراً ليعرف كيف تسير الأمور في الميادين العامة حيث لم يكن يثق كثيراً في وزرائه، وكثيراً ما كان يتخفى حول المدينة مثل مواطن عادي ويتذرع بالشراء والبيع متخذاً التجارة مهنة له ليكتشف فيما إذا كان التجار ملتزمين بالأوزان والمقاييس أم لا. وطبقاً لهذا المنهج، خرج ذات ليلة من قصره متستراً بهيئة فلاح وذهب إلى الخبّاز ليشتري خبزاً ثم إلى الجزّار ليشتري لحماً، وعندما اشترى الملك حاجياته عاد إلى بلاطه وطلب من حاجبه أن يزنها بالقسطاس حيث وجد نقصاً في الخبز مقداره خمس وخمسون غراماً وثلاث وأربعون في اللحم الأمر الذي جعله يُنزل أقصى العقوبات ضد رجاله المسؤولين عن مراقبة الأوزان والمقاييس في الأسواق. كما صَبَّ جام غضبه على حاكم المدينة الذي كان يهتم بحك بطنه أكثر من اهتمامه بشؤون الرعية، ووجَّه اللوم الشديد إلى موظفيه وحاشيته لإهمالهم وعدم إخباره عمّا يحدث للناس، وطلب من الجميع الاهتمام بشؤون الناس وخاصة

Twitter: @alqareah

الفقراء منهم وأصحاب العوائل الكبيرة، وضرورة تمتع الجميع بالعدل والمساواة من خلال ضبط الموازين والمقاييس. وعندما لم يتفوّه أحد بكلمة واحدة وهو في حالة اهتياج شديد أمر بإحضار فرن ضخم يتسع لشوي رجل بالكامل، وطلب أن يحمى الفرن طوال الليل كما طلب إشعال نار أخرى قرب الفرن. وفي اليوم التالي طلب إحضار الخباز والجزّار، كما طلب من المنادي أن ينادي بأعلى صوته في كل أنحاء المدينة ويقول بأنهم سيقومون بوضع الخباز داخل فرن حار حتى يخبز فيه حياً لأنه أنقص وزن الخبز، وأن الجزار سيشوى في الفرن الملتهب أيضاً لأنه أنقص من وزن اللحم، وهكذا أصبح الرجلان مثلين ليس فقط في أصفهان وإنما في عموم المملكة حيث كان يخشى الناس عدالة «الشاه عباس».

يهتم الحاكم الفارسي حتى في هذه الأيام بأسعار وسائل العيش في المدينة أكثر من اهتمامه بأي شيء آخر. فهو يمثل «الأب الصغير» للمكان ويمتلك قوة لا يحلم بها أحد في البلاد الأقل حكماً مطلقاً.

عندما كنت في شيراز في إحدى المناسبات، تَمَّ جلد كلِّ الجزارين لأن أسعار اللحوم كانت مرتفعة، وأعتقد بأنهم احتجوا على ذلك لأن الأغنام كانت قليلة وأنهم طبقاً لذلك لا يستطيعون بيع اللحم بسعر منخفض. ولكن الحاكم رد عليهم بأنه من الأفضل لهم الانتظار وعدم ذبح الأغنام حتى يتمكنوا من بيعها بسعر منخفض مرة أخرى. والنقطة الأساسية أنّ أسعار اللحوم انخفضت على أية حال.

من خلال الأحداث والروايات التي تم تزويقها ونقلها يمكن الاستنتاج بأنه حيثما وضعت العقوبات في أيدي المستبدين الشرقيين فإنّ الجزاء يصبح غريباً وقاسياً. هذه هي الحالة في الواقع. في اليوم الذي وصلت فيه إلى شيراز أُلقي القبض على بعض اللصوص، وبعد ذلك بفترة وجيزة تمّت معاقبتهم. وفي أيام أخرى كانت عقوبة السرقة أكثر قسوة من الآن حيث يذكرها الكتّاب القدماء

Twitter: @alqareah

بأنها كانت تطبق بدم بارد وخالية تماماً من أية عاطفة. «لا رحمة للّصوص في بلاد فارس» يقول تافيرنير «فالإعدام مصيرهم»، ثم يواصل ذكره لبعض الأساليب المتبعة مثل ربطهم بذيول الإبل وتركهم يدفنون أحياء حتى يموتون جوعاً ويسومونهم العذاب حتى يتمنون قطع رؤوسهم وهو ما يمنعه القانون لرحمته بهم.

هناك عقوبات أخرى ولكن لقد قيل ما فيه الكفاية لكشف نوع الطريقة المتبعة في الماضي. أما في الوقت الحاضر فالتقليد أكثر رحمة. فاللصوص تقطع أيديهم فقط. وفي هذه العملية يلبس المنفذ ملابس حمراء لأسباب توضيحية، وبعد انتهاء العملية يُرسل الضحايا إلى ذويهم المتجمعين الذين يحضرون حوضاً مملوءاً بالماء الحار يضعون فيه يدي الضحية حتى يوقفوا نزيف الدم.

في الشرق تستند أمور كثيرة على مزاج الحاكم في اللحظة التي تتم فيها محاكمة المجرم. إذ من الممكن أن يحكم الرجل بقطع يديه بينما يُحكم رجل آخر بالتهمة بنفسها بالضرب بالعصا حتى يصاب بالعجز. فالعويل من شدة الألم قد يكون له تأثير مهدئ على المزاج العصبي مثل جرعة دواء، وسيكون سعيداً ذلك المجرم الذي يأتي دوره في نهاية القائمة. ويبدو أنه لا يوجد مبدأ مُعترف به كنظام شامل، إذ بينما عقوبة السرقة هي ما سبق ذكره ووصفه، فإن عقوبة القتل تقتضي الدفع إلى عائلة الرجل المقتول. ويتم التعامل مع الانحرافات الأخلاقية بمنتهى القسوة. فقبل مائة عام تقريباً وعندما كان تافيرنير في شيراز وصف كيف أنّ حاكم شيراز جعل كلابه تقطّع المجرم إرباً إرباً، والتي كان يحتفظ بها لتنفيذ مثل هذه العقوبات الصارمة.

أما الآن فقد تحسّنت الأمور ولكن الحاكم ما يزال مستبداً فردياً يمتلك تحت تصرفه قدرات مرعبة لمواطنيه، ولهذا وباهتمام كبير تطلّعت للقاء هارون الرشيد الحديث.

تعد المقابلة الفارسية مظهراً احتفالياً صارماً. إذ يجب أن

Twitter: @alqareah

تُجرى بملابس خاصة وبمحاولة خاصة أيضاً. فإذا لم يكن عندك قبعة رأس مثلاً فلا بُدَّ أن تلبس سترة سوداء تبلغ الركبتين، وإذا ما ركبت فإن هذا يدل على أهميتك واحترامك لمضيفك حين دخولك إلى مقر إقامته بتؤدة وبطء، إذ كلما كنت متكلفاً في بلاد فارس كلما كنت أكثر نبلاً.

خلال المناقشة مع الحاكم من الضروري أن تلاحظ بدقة أنماط محددة من الكلام. إذ يجب أن تستخدم لقبك ولقبه بشكل صحيح وبصورة مثمرة. فهو «حضرتي عالي» صاحب المقام الرفيع وأنت «بانديهي شوما» ـ عبدك ـ وستبدأ المقابلة بالتحية الإسلامية المعروفة باللغة العربية «السلام عليكم»، وبعد ذلك «ينتظر عبدك» الملاحظة التالية «لصاحب المقام الرفيع» والتي ستكون استفساراً عن «صحة عبدك»، ثم تجيب بأنّ «صحة عبدك جيدة بفضل وجود صاحب المقام الرفيع» هل إن صحة المقام الرفيع جيدة بفضل الله؟ ثم يطلب من عبده الجلوس ويبدأ النقاش والذي عليك أن تتذكر خلاله بأنك عبد وأنه صاحب المقام الرفيع. وبعد كوبين من الشاي لا أكثر ولا أقل حيث أنّ الكوب الثاني إشارة إلى المغادرة، يمكنك أن تغادر ولكن قبل أن تفعل ذلك من الضروري أن تستفسر «هل يسمح لي صاحب المقام الرفيع بالمغادرة؟» ثم يأذن لك، وبعدها تقول الملاحظة: «لقد سبّب لك عبدك مشقة كبيرة». والتي لن يعلق عليها. وبعد ذلك، كل ما بقي لك أن تقوله قبل مغادرة المكان هو «لقد ازداد عبدك شرفاً بهذه المقابلة». هذه هي قواعد اللعبة.

ووَفْقَ تقاليد البلاد، إذن، قمنا بكبح جماح خيولنا بمناسبة زيارتنا للحاكم حالما وصلنا إلى فناء القصر، وفي تقدمنا اللاحق كان علينا أن نفاجأ بجنازة، وأخيراً وصلنا إلى البوابة حيث استقبلنا بعضُ الموظفين بملابس مزرية، رجلان يحمل كل منهما صولجاناً فضياً، وقوقازيان فارسيان. وبعد التجول خلال الحدائق البهيجة، التي تخترقها بحيرات مائية ومساحات بطور النمو ومسكبات من الكرنب، وعندما سرنا قرب الجدران المنحوتة في عهد

Twitter: @alqareah

كريم خان والمزينة بشخصيات فارسية رُسمت بالألوان، اخترقنا بوابات وممرات (وكان باب أحد الممرات من الحديد مثل خزانة من الفولاذ في حالة طوارئ) واتجهنا نحو درجات حيث تركنا وحدنا مع مرافقنا حيث لنواجه الأسد في عرينه.

تشبه الغرفة الفارسية الغرفة الإنكليزية عدا بعض التفاصيل الضئيلة. فهناك على الدوام صف من الصور على الجدران، وإذا كان ذوق الفارسي يتطلع إلى الحلي التافهة والرخيصة بدلاً من الأعمال الفنية والأشياء التي تُرضي أذواقنا، فعلينا أن نتذكر بأن الفارسي قد سار ببطء على الطريق الذي سرنا عليه وما نزال بسرعة فائقة، ومنذ زمن بعيد. هناك شيء واحد يبهر الأجنبي حال دخوله إلى غرفة النوم الفارسية وهو عدد من الأكوام الصغيرة من الوسائد في الزوايا والفجوات. إنها فراش النوم إذ يحدث أحيانا أن تكون غرفة الرسم هي نفسها غرفة الطعام وغرفة النوم، بالإضافة إلى استخدامها في واجبات أخرى، ومن المحتم أن ثمة بساطاً مترفاً تحت الأقدام ولا بُدَّ أنه رفاهية ضرورية إذا ما استخدم للنوم عليه.

كانت الغرفة الخاصة التي دخلتها مغمورة بحمرة الشفق الأمر الذي جعلني عاجزاً عن تمييز الأشياء، ثم رأيت بوساطة مقعد خشبي قرب النار دخول رجل رث الثياب رحَّب به رفيقي بكلمات رقيقة. كان هذا، إذن، هو صاحب السمو الحاكم المطلق لشيراز.

وكما هي العادة في البلاد الإسلامية فإنّ ملابسه لا تدل على عظمته وعلو مركزه. فمن رأسه وحتى أخمص قدميه كان يلبس ملابس داكنة اللون، وبالنسبة للوجه والشكل كان رجلاً بهيَّ الشكل والطلعة ويتميز بالشارب الكثيف، وكان يلبس على رأسه قبعة من الفرو (تلبس القبعات في بلاد فارس داخل البيوت وخارجها) ويرتدي بعد ذلك سترة خضراء داكنة والبنطال الأوروبي، ثم أخيراً الحذاء المطاطي وأعتقد أنه يسمى «جيميماس» على ما أعتقد.

أعترف بأن التوقع بتعزيز النقاش أو أي شيء يقترب من

Twitter: @alqareah

النقاش في ظل الظروف التي ذكرتها قد ملأ قلبي خوفاً من شر مرتقب، ولكن والحق يقال، لم تكن المقابلة مخيفة أو حتى كما توقعت.

جاء صاحب السمو بابتسامة وكنت قد قُدمت له وقمت بتمتمة سلسلة الملاحظات التمهيدية، كما أشير لي أن أجلس على مقعد قبل أن أدرك أن الأمور قد بدأت.

لقد مرّت المناقشة التي تلت دون توقف ويرجع الفضل في ذلك إلى مساعدة صديقي. استطعت أن ألمّ ببعض ملاحظات وآراء الحاكم أما بقية الحديث فكان يُترجم لي، وعندما كنت بين حين وآخر أقحم جواباً أو ملاحظة كان ذلك يسر ويبهج سموه. أذكر بأننا تحدثنا عن الجيش وقد أشار الحاكم إلى أنه التحق بالجيش عندما كان في سن العاشرة (لا أتصور بأية إمكانية) وأن إعجابه بالخدمة العسكرية كان كبيراً «حيث أن السياسة، في واقع الأمر، تحتاج إلى العقول أما الجيش فيحتاج إلى العقول بالإضافة إلى القوة»، وهذا منحني فرصة كي أفكر فيما بعد. لقد كنت مشغولاً بحيث لم أتابع نهاية الحديث كي أفكر في تلك اللحظة. وبعد التبادل التقليدي الفارسي لعبارات التحية والمجاملة هنأته على الحديقة، التي هي شيراز، وعلى مناخها وحاكمها إلخ، مما جعله مسروراً بحيث عندما نهضنا للمغادرة (تذكرت فعلاً أن أطلب الأذن منه) كان من الصعب إدراك أن الرجل الرقيق الواقف أمامنا هو نفسه الذي يقطع الأيدي ويضرب باطن القدم بقوة وقسوة.

لقد انتهى الحديث بيننا بنجاح، وأخيراً انطلقنا إلى الخارج يغمرنا شعور بما تمتّعنا به من شاي وقهوة معطرة برائحة الورد والسجائر الفارسية التي استهلكناها.

إن الذي أثار استغرابي في هذه المقابلة هو بساطة وصراحة الحاكم، إذ أنّ أخلاقه المتواضعة ومظهره البسيط والابتعاد عن البهرجة والمظاهر الاحتفالية الفخمة (أتذكر بأنه دخّن نارجيلة من

Twitter: @alqareah

الخزف) كل ذلك كان مفاجأة لي بعد كل ما سمعته عن الفخامة والصلف والأبهة الشرقية والمطبوعة بشكل أو بآخر في معظم العقول الإنكليزية. كان صديقنا بدون أدنى شك حاكماً فردياً كأي طفل مدلّل مستبد نتيجة الدلال والإفساد، ولكن هناك بساطة قوية لديه تجعل المقارنة بينه وبين الطفل المدلل غير ملائمة. لقد كان في الحقيقة رجلاً قوياً مقتدراً يؤدي عمله بكفاءة أو كما تقول الشعوب الشرقية كان حاكماً ممتازاً.

وبخصوص موضوع الجريمة والعقاب والقوى الموجودة في بلاد فارس يرسخ في ذهني مشهد مثير وغريب شاهدته في شيراز، وقد حدث في الساحة أمام قصر الحاكم. كانت الشمس قد انحدرت واختفت خلف أسطح المنازل المقابلة للساحة وكان ضوؤها الخافت يلمع من ماء البحيرة الصغيرة الواقعة تحت شجرة كبيرة أمام بوابة القصر. وعندما هممت بالركوب كان ثمة زمرة من الرجال تتجمع قرب هذه البحيرة الصغيرة. لم يكن السبب واضحاً في تلك اللحظة. ثم خطفت نظرة على شيء أبيض موضوع على نقالة على الأرض. اقتربت منه، كان جثة ميتة ملفوفة بقماش أبيض ملطخ بالدم وعند قدميه كان يقف فارسي يصرخ بصوت أجش وملابسه السوداء مصبوغة باللون الأحمر. إنها عملية قتل. هذا كل ما عرفته ثم اقترب من الجهة المقابلة صراخ وعويل واندفع عبر الميدان الفارغ جسم امرأة ترتدي حجاباً أسود تقودها امرأة، حيث اندفعت بسرعة جنونية وهي تصرخ بفزع وتلطم بيديها صدرها العاري. ثم ألقت بنفسها على الجثة وأخذت تُربِّت عليها وهي تئن وتولول وتنادي عليها، ثم تراجعت وهي تضرب نفسها وتلطم خديها وتنادي السماء وتدعو الله أن يسمعها ويستجيب لدعائها ولكن لا مجيب.

وفجأة سمعنا قعقعة حوافر الخيول حيث تراجع الجميع. إنه الحاكم ومعه عدد من القوقازيين من حملة الصولجان، ثم رجل

Twitter: @alqareah

بسيط على فرس بيضاء ينمُّ مظهره عن التواضع وأنه أقل تميّزاً عن غيره من الحاضرين.

كان المشهد مثيراً للغاية ومشحوناً بالعواطف الجياشة والأحاسيس الدافقة وكأنه مشهد تمثيلي على المسرح. ومن المؤكد هنا ومن أجل حبك المسرحية لابد من وجود فصل يلائم عناصر الحياة والموت التي تقبع هنا عارية بكل تعرِّيها الصريح. كان الجو مشحوناً بذهول وصمت أبكم بانتظار صرخة مدوية لحدوث شيء ما وإطلاق القوى المكبوتة والمكظومة في الصدور. ولكن يا للأسف فإن الطبيعة ليست ذكية كالفن، فالأمنيات لا تتحقق دائماً وتبقى الخيوط معلقة بارتخاء في لعبة الحياة ولكنها تتجمع بقوة في لعبة الإنسان. ويبدو أن الكوميديا (المسرح الهزلي) والتراجيديا (المأساة) والفارش (المسرح الهزلي الساخر) والفن والأدب المسرحي قد استُجمعت كلها وسادت على نحو قذر ومتواصل في عالمنا هذا بدون ميل للعدالة أو نهاية مقبولة. ليس ثمة حبكة أو تتابع فاتن أو ذروة حيث تظهر الشخصيات وتختفي دون اعتبار للفن والمنطق، وحيث يتريث المتسكعون على المسرح بعد اختفاء العناصر الرئيسية خلف الستارة والفوز الملعون دون تلطيف للمهارة من أجل أن يكون النصر محتملاً، إذ يفوز الغبي ويفشل الذكي. ليس هناك معنى أو أخلاق في كل ما يجري. ومع ذلك يقوم الممثلون بأداء أدوارهم على غير هدى على المسرح وعلى نحو أبدي. كل ما يمكن أن يؤديه معظمهم هو القيام بتأدية أدوارهم القصيرة في المسرحية الطويلة التي ليس لها أول أو آخر والتي لا يعرفون شيئاً عن موضوعها، فهم لا يبحثون عن التأثير أو العدالة ولكنهم يؤدون أدواراً وهم في أماكنهم الحقيرة. ومن أجل القيام بالأفضل وهو ما ينبغي فعله، عدا الاستغراب المنطلق الآن أو فيما بعد، يجب ألا يكون هناك مدير للمسرح.

وهكذا لم تنته مأساتي بنهاية مرضية. توقف الحاكم وبإشارة استدعى أحد رجال بلاطه. كان حانقاً وكان بغيضاً وفي غاية

Twitter: @alqareah

الاهتياج إذا ما أزعجه أحد بمثل هذه الأشياء الكريهة. ماذا يعملون هناك؟ ما كل هذا؟ سأل مشيراً بغضب إلى المشهد أمامه. أخبروه أن زوج هذه المرأة سُرق وقُتل. هذا كل ما في الأمر. «أبعدوهم من هنا» قال وهو يستدير عائداً إلى القصر.

وهكذا حُملت الجثة وكذلك المرأة التي كان قد أغمي عليها. وأخذت العدالة مجراها، على كل حال، حيث سمعت فيما بعد بأن القاتل قد قُذِف من فوهة المدفع.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

12

الطريق مرة أخرى

«ثمة كوخ مليء بالورود قرب جدول بندمير يغرد حوله العندليب طول النهار، ففي طفولتي كان أشبه بحلم جميل أن تجلس وسط الورود وتسمع تغريد الطير. لن أنسى ذلك الكوخ وموسيقاه وعندما أكون وقت الإزهار السنوي هل يغرد العندليب هناك؟ وهل ما تزال الأزهار متفتحة قرب بندمير الهادئ؟».

مور: لالا روخ

إنّ الطريق إلى الشمال يمتد من شيراز خلال ممر الله أكبر (تانكي الله أكبر)، وبالنسبة للمسافر من أصفهان فإنّ أول ما يشاهده من سهل شيراز الجميل يتم تشكيله عند البوابة الكبيرة التي تعترض مدخل هذا الممر. ويصاب عابر السبيل بالذهول والدهشة لرؤيته ذلك المنظر الساحر بحيث يصرخ متعجباً «الله أكبر» تنبعث لا إرادياً من بين شفتيه، ولهذا سمي المكان بهذا الاسم.

كان يوماً كئيباً ملبداً بالضباب تتساقط فيه زخات المطر عندما اقتربت من بوابة شيراز من الاتجاه الخاطئ حتى أتمكن بطبيعة الحال من الفوز بلحظات غامرة من البهجة والسرور، وفوق التلال

Twitter: @alqareah

كان هناك حجاب قاتم كثيف وظلام لا لون له يحيط بكل شيء ويلف المكان، وكنت قد تمنيت أن أغادر مدينة العندليب والورد وهي في أسعد وأبهى حالاتها.

كانت قافلتي أيضاً معتكرة المزاج حيث واجهنا بعض الصعوبات المتعلقة بمغادرتنا، إذ كنا قد عزمنا على أن نغادر مبكرين (أي حوالى السابعة) حتى نتمكن من تنظيم مسيرنا على نحوٍ مريح، ولكن حتى الساعة السابعة لم تأتِ البغال وفي السابعة والنصف أصابني الضجر مع أني حتى هذه اللحظة تفحصت الشخصية الفارسية. وعندما خرجت وجدت «سيف» في بيته الصغير لم يكمل ارتداء ملابسه. سألته بلهجة قوية عن سبب تأخر وصول البغال ولماذا لم تصل قبل ساعة حسب الموعد ولماذا لا يبدو عليه القلق بسبب هذا الأمر. وكان جوابه يشتمل على العديد من «لأن» و«لاأعرف». ومع ذلك فإنّ استفساراتي أثارت مشاعره، إذ عندما عدت لأتأكد من إتمام كل الإجراءات في ظل غياب البغال رأيته يخطو إلى الأمام وعيناه تتقدان شرراً وتوعداً على سائقي البغال.

قبل الفطور قدمت البغال بعدم اكتراث وكأن شيئا لم يكن. كنت قد تعلمت بأن الأجنبي إذا ما أراد أن يعبر عن مشاعره في بلاد فارس في مثل هذه الحالات فإن النتيجة ستكون غير مجدية ومهينة في الوقت نفسه ولذلك انتظرت «سيف» الذي قدم على الفور، وكانت هذه المرة هي الأولى التي يقابل فيها سائق البغل المزيف، إذ حالما اندفع بمحاذاتي حاولت حانقاً أن أُبدي ملاحظة ولكنه أمسك بالوغد من مؤخر عنقه وأخذ يدفعه ويصفعه ويوجِّه له السباب بعبارات نابية. عليَّ أن أعترف بأن المشهد برمته كان مرضياً حيث قمت بالتدخل بعد الصفعة الخامسة مما أدى إلى راحة السائق، كما وضعت بتدخلي هذا حدّاً لحنق وجنوح مترجمي المخلص الذي واصل إرسال سيل السباب واللعنات بصوته الجهوري، حيث تركته على هذا الوضع وذهبت لأتناول فطوري بينما كانت البغال المقرر

Twitter: @alqareah

قيامها بالرحلة تأخذ قسطاً من الراحة. إذ كنا ننوي أن نتجاوزها بعد نصف المسافة من مسيرنا.

بدأت أشعر الآن بأنّ عليَّ أن أُقدم الثناء لسيف. ماذا كنت سأفعل بدونه؟ لا أعرف. لقد ساعدني منذ بداية الرحلة في محادثاتي ومفاوضاتي مع الفُرْس وحتى بعد أن افترقنا في أصفهان واصل رعاية أموري بكل حماس وصدق لدرجة تدعو إلى الشفقة والألم. أعتقد، على أية حال، بأنَّ لديه إحساساً خاطئاً بعدم تقديري لخدماته، وهذا الانطباع المقرون بالأشياء العميقة الذي يشعر به حين أجرح شعوره أو حين أوبخه عندما يحدث خطأ قد أدى أحياناً إلى هياج وانفجارات لا داعي أو مبرر لها مثلما لا داعي لعنفها، إذ أن انزعاجي منه هذا الصباح لعدم نهوضه مبكراً قد مَسَّ كرامته عميقاً. ربما كنت متسرعاً نوعاً ما وسيف باعتباره مرشدي وفيلسوفاً وصديقاً كان في موقف مني مختلف تماماً عن موقف باقي أفراد حاشيتي. على أية حال، ظلَّت الحادثة تمور في الصدور وسرعان ما اندلعت الأزمة، وذلك حالما نظرتُ إلى الخلف من خلال ممر «الله أكبر» لألقي آخر نظرة على المدينة التي سأغادرها. وعندما استدرت لأودّع مدينة شيراز أثار انتباهي شيئ مختلف تماماً. كانت البغال تمشي خلفي الهوينا بكل سكينة وهدوء. لقد تخيّلت بأنها صارت على بعد أربعة أميال في الطريق ما دامت قد منحتْ ساعة على الأقل منذ انطلاقها. «عُدْ» قلت بقوة لسيف وأسألهم ماذا يعني هذا؟ وأثناء توقع هبوب عاصفة، جَرَّ فرسه بصمت مستديراً لينطلق فوق الأحجار صوب بقية القافلة. ثم عاد على الفور قائلاً: «كانوا يشترون خبزاً ولحماً». أخشى أن تكون تعليقاتي ملائمة أكثر منها مؤدبة. إذ ليس من المحتمل الآن أن نصل إلى مكان وقوفنا الليلي قبل الظلام فقد كانت أحداث النهار ذات طبيعة لا تجعلها تُلَطِّف المزاج على الإطلاق. وقد تصاعد غضب سيف تدريجياً منذ طلوع النهار. والتهمة الموجهة إليه حول نهوضه المتأخر قد أدّت إلى تفاقم الأمور والآن جاءت ساعة الانفجار، أولاً، كان

Twitter: @alqareah

ساخطاً انطلاقاً من عزة نفسه. «تقول بأنها غلطتي. حسناً يا سيدي، أتمنى لك نهاراً سعيداً» ثم تظاهر بالانصراف. أخبرته بلطف لكن بحزم ألا يكون أحمقاً حيث دفعه ذلك إلى الانفجار بأعلى صوته: «أقول لك، نحن مسلمون مباركون» قالها وهو يدق على صدره «لقد نهضت للصلاة عند بزوغ الشمس، أقول لك... للصلاة. لقد خدمتك بكل أمانة وقد أقسمت على ذلك، أليس كذلك؟ وسأضحي بآخر قطرة من دمي وسأموت متفانياً من أجل خدمتك، أخبرني. أما بخصوص هذه الكلاب الملعونة فلدي طريق سأتبعها معهم. سأحرق آباءهم ولن تواجه أية مشاكل بعد الآن يا سيدي. اترك الأمر لي لا داعي لإزعاج نفسك، وأقول لك نحن المسلمين ننهض للصلاة عند طلوع الشمس». وأخيراً هدأته وطيّبت من خاطره ولكن العاصفة لم تهدأ بعد، إذ بين الحين والآخر كان يضرب حصانه بقوة وخبث ويضرب أي حمار غريب تصل يده إليه.

في هذا الوقت أصبح صديقي «ستمبس» المتباهي المقيم في سلة يحاول أن يحفظ توازنه على نحو مشكوك فيه على قمة أحد الأحمال حيث قبع ليمكث، إلا عندما يترنح بعنف ويُقذف بعيداً، أو عندما أقترب منه كثيراً فيحاول الوصول إليّ فيسقط على الأرض وتدوسه الأقدام. على كل حال، لقد اتخذ موقفاً نبيلاً من سفره، وأعتقد بأنه الوحيد من أعضاء البعثة الذي حافظ على مزاجه حتى الآن.

رغم التوابع وما لَحِق بها من كآبة، انطلقت القافلة بصورة بطيئة وحزينة خلال الصباح الرطب إلى قمة الممر، ومن هناك هبطنا ممراً جرفياً إلى خان «باج كاه» الذي ينعطف عبر السهل وسط الجبال الكائنة خلفه. لقد تحسّن الجو قليلاً وأصبح النهار محتملاً عندما رأينا فجأة على اليسار منحدراً جبلياً ملوّناً على نحوٍ كثيف والذي يصفه الكيميائيون بأنه منظر ألوان الطيف: أزرق - أصفر - أحمر - وأسمر وكلها ذات خطوط فاتنة.

وعلى مسافة بعيدة نحو الشرق، كان ثمة صورة غريبة في غاية

Twitter: @alqareah

الروعة والجمال. هناك وادٍ مرتفع ينحدر بين تلتين فخمتين مكسوتين برداء ضبابي يمتد من قمة إلى الأخرى بخط أبيض حاد ويمتزجان إلى الأعلى ضمن الرتابة الداكنة للسماء. وتحت، على النقيض تماماً، كان هناك بقعة زرقاء لا تكسوها الغيوم تحد حدود السماء في الوادي ببهاء ساطع. وفي المناطق المحيطة ذات الألوان السمراء الفاتحة كانت هذه الزاوية الصغيرة من الألوان والضياء قد نُسقت مثل بعض الصور الطبيعية. ولكن اللوحة السمراء والرسوم المتوهجة كانت حقيقية، إذ من الممكن أن يخطو المرء داخل الصورة كما يخطو العقل أحياناً داخل عمل الرسام ويتجول فيه لمحض إرادته. يبدو هذا الوادي المنحدر وكأنه يفضي إلى أرض أكثر بهجة وحيوية ثم تمتد حادة تحت الخط الأزرق حيث توجد هناك بكل تأكيد أرض متخصصة بديعة الشكل تلمع في ضوء الشمس. آه، هذه الأرض المدهشة سنغادرها دون أن نراها أثناء مرورنا في الطريق. هذه الأماكن لن نتمكن من زيارتها، تلك الأعمال من يقوم بها. ربما على العموم من الأفضل عدم رؤيتها وعدم زيارتها وعدم القيام بذلك، ومن الممكن أن نكون شاكرين لأننا لن ننتظر على حدود السماء والطبيعة والحياة.

وفجأة، وحول زاوية، ظهر لنا وادٍ إلى الشمال، وهناك انتصب جدار صخري فخم داكن اللون إنه «زارغون» طبقة فوق طبقة من البيوت الطينية الضئيلة تتسع لكل العالم مثل صالة مدرج مسرحي مكتظة. هنا كانت محطتنا للاستراحة الليلية ومن خلال السوق الصغير توجهنا إلى «شابرخانة». تتكون «دار الاستراحة» هذه كمثيلاتها من طابقين، يشتمل «بالاخانة» على اللوازم والتسهيلات الخاصة بفصل الصيف فقط حيث يتكون من شبابيك وأبواب، وفي ليلة باردة كتلك التي وجدت نفسي فيها في زارغون يبدو أن هناك تحسباً من اندفاع تيار الهواء أو رياح قوية إلى أي مكان في الداخل. لقد كان التأثير العام بأنه إسطبل في مهب الريح. كما كانت المدخنة طينية مثل بقية الكوخ تصلح فقط لفصل الصيف، ويبدو أن

Twitter: @alqareah

بوسعها استيعاب ربع كمية الدخان الناجمة عن النار، أما ثلاثة الأرباع الأخرى فتأخذ طريقها حسب تقديري إلى عيني. إذن من المفيد للمسافر أن يدرك بأنه إذا ما دفعت النار عدة أقدام نحو المدخنة مع ما في ذلك من تضحية بالحرارة فإنه سيجني راحة شاملة.

إن عدم وجود منضدة أمر تافه، ومن الغريب أن تشعر بالاشمئزاز وأنت تتناول طعامك لأول مرة على الأرض إلا إذا كان الأوروبي يميل إلى الاستغناء عن السكاكين وشوك الطعام بحيث يقذفها في الهواء. وعلى كل حال، يتخذ الجوع طريقه الخاص أيضاً، إذ أتذكر في هذه المناسبة أنه لم يكن لدينا سوى العظام وتركت الشحمة لستمبس الصغير.

وفي صباح اليوم التالي استيقظت يغمرني شعور بهيج لكوننا أصدقاء مع العالم كله. يبلغ ارتفاع السهل الفارسي حوالى خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر ويُفضي هذا إلى أبهج وألطف الأحاسيس. فالهواء مثل الأوكسجين أو النبيذ الفوّار يشحن الإنسان بحيوية غزيرة وغريبة. إنه شبيه «بمحفز الجبال الشاهقة» كما وصفه بكل قوته «ستفنسون»: «تستيقظ كل صباح لترى الذهب على قمم الثلوج، فتصبح مشحوناً بالشجاعة وتحمد الله على وجودك. فالوديان هي ذروة النشاط لك، حيث تخلع حذاءك فوق التلال وتغني بقلبك وأذنيك كلمات مقتبسة من الترانيم الاسكتلندية وتحس بنفسك على أجنحة الرياح، طائراً حول العالم حيث تكون أوروبا وقلبك ضمن نطاق واحد لتدفق الحركة والنشاط».

لم أكن قد قرأت ذلك عندما كنت في بلاد فارس ولكني حاولت أن أُقدِّم وصفاً له، إذ أن كلماتي مع كونها غير معبِّرة بصورة كاملة إلا أنها تشكل تحققاً مثيراً لمشاعر ستفنسون.

في هذه الأماكن المرتفعة كنت قد كتبت في مفكرتي: فرحة غامرة تغشى الإنسان، شبح كل العظمة على الأرض. إذ ستكون كل الأشياء، الأعظم من كل الأشياء. فمجدها كلها يقع على عاتقه.

Twitter: @alqareah

تصرخ روحه من أجل كل القوة في العالم، لا ـ هذا العالم صغير جداً ويطير فيما بعد الكون. إنه مع الآلهة».

هناك شعور آخر يغمر المسافر، الشعور «بالوطن» الذي سبق أن نكرته آنفاً. الآن، عدت ثانية إلى الممر الملتوي ينتابني إحساس بالحرية، وبأنّ العالم في خدمتي وتحت تصرفي ومن أجل إمتاعي، ولكن هناك الوطن في نهاية الأمر. إنه على مسافة لا متناهية أحياناً، إنه الهدف مثل الموت الذي سيحل في نهاية الأشياء ولكن متى؟ فهذا لا يهم حيث لا يمكن للعقل أن يفكر أو يدرك متى. ومع ذلك فهو هناك، شيء مريح وهادئ وآمن حيث تتمدد الأقدام بهدوء واستسلام. يبدو غريباً أن نتحدث عن العاطفة تجاه الوطن في هذه الأيام التي تتميز بالأصوات الخفيضة من ناحية وأوروبا من ناحية أخرى، ولكن هناك في كل مكان وزمان وفي قلب كل إنسان ينبض الإحساس القديم الذي قد يكبر من أجل أرض أو يتقلص من أجل عتبة المنزل، وسيظل الوطن موجوداً حتى للإنسان الذي ليس له مكان محدد يوجِّه إليه شوقه ويُعَلِّق عليه عاطفة حبه. ومع ذلك، يمكن أن يقال كتناقض ظاهري بأنه لا يوجد حنين إلى الوطن إلا إذا ابتعدت عنه. فالإحساس الصادق نحو الوطن يغمرك فقط عندما تكون في الصحارى والغابات والجبال البعيدة والوديان ولهذا ينتابك بكل صدق وصفاء. فقد يهزه شيء بسيط ـ ظل شجرة خضراء، خرير الماء، دفقة هواء، صرخة مفاجئة أو عطر فواح. وكل الشوق والحنين إلى العلاقات القديمة والروابط الحميمة وكل الأماكن حيث تفيض كلها على القلب. «إن كل أفكاري اليوم متعلقة بالوطن» كتبت ذات مرة عن أسفاري. أحياناً يغمرني شوق جارف بأن أكون هناك، وينسحب هذا الشوق إلى قلبي بحيث تبدو فكرة الأميال البعيدة التي تفصلني عنه غير محتملة الأمر الذي يفرقني في أحلام اليقظة حول السفر الرتيب وعن أصدقائي وأمور أخرى محبَّبة إلى نفسي، ثم فجأة أستيقظ لأرى كل ما حولي فراغاً أبيض كئيباً تحيط به التلال المكسوة بالثلج وأنا الذي كنت قبل لحظة على

Twitter: @alqareah

بُعد آلاف الأميال، فأعود ثانية إلى الانطلاق عدة بوصات على فرسي الصغير.

وهكذا في كل الأسفار، ثمة شيء بعيد عنا يشدنا إليه بقوة نحو الهدف سواء كان وطناً أو موتاً.

أما الآن فهنا الحياة وبلاد فارس وصداقتي مع كل العالم. لقد أنفقت بغير حساب على أفلام عن ينابيع رائعة وعلى أولاد قذرين وأرغب أن أنفق كل مالي على امرأة عجوز متسولة فلا يبقي معي سوى بنسين. كان العالم متأنياً وحتى البغال كانت في موعدها المحدد.

كنا قريبين من بندمير «بندمير الهادئة» في «لالا روخ» الذي كان إلهاماً للشاعر الخيالي، فعمله يتجه للحصول على التأثير وإذا ما حَقَّق ذلك، حسناً، فعلينا ألا نستفسر عن وسائله على نحو ضيق. فهو بمقدوره أن يتحدث عن هذا العالم من خلال رؤية للأشياء العادية بصورة أفضل وأعمق من أولئك الذين لا يتمتعون ببركة العقل الشعري، وعند التعامل مع الماضي فهو يقف على أرض أكثر صلابة ورسوخاً. إن الوقت في صالحه فالموجود حالياً لم يكن هكذا في الوقت الذي كان ينشد فيه، فهو يستطيع أن يجعل الصحراء حديقة خضراء، وبوسعه أن يصوِّر الناس المشردين أبطالاً وبطلات في قصورهم ولسنا بحاجة إلى دليل قاطع لإثبات ما قد صنعه، والزمن وحده كفيل بتأييد وجهة نظره حول ما قاله.

لقد استفاد قلة من الشعراء من هذه المزايا أكثر من «مور» الذي بالإضافة إلى ما كتبه حول الماضي، اتخذ الحيطة كي يكتب عن أرض بعيدة زارها عدد قليل من الناس. وفي بعض الأحيان كان يتخطى مزاياه من خلال تحديه للقوانين الطبيعية والتي يُفترض بالشاعر الالتزام بها. يمكن تغيير الرجال ولكن الطبيعة هي نفسها في جميع الأحوال لا تتغير، وهكذا عندما يتحدث الشاعر عن العنبر في كيشما وكرومها مشيراً إلى جزيرة نائية مثل الصحراء والتي لم

Twitter: @alqareah

يُحدث الإنسان فيها أي تغيير أو تطوير، فلا شيء يمكن عمله سوى التعليق وإبداء ملاحظة بأنّ هناك مسافات بعيدة لن يصلها الترخيص الشعري بأي حال من الأحوال.

وبخصوص بندمير «مور» لديه حالة أقوى إذ لا يوجد مشاتل للورود قرب جدول بندمير هذه الأيام، وسيجد العندليب عمله حزيناً حين يفقد عيشه في الصحراء الجرداء التي تمتد حوله، ومن ثم هناك احتمال مؤكد بوجود حالة مختلفة الأشياء في العصور الغابرة، فعندما كان السهل الذي يجري فيه نهر بندمير ويمتد في جريانه حتى أعمدة بيرسي بولس والقبب الصخرية في ناكشي رستم، كان المكان خصباً وبهياً وكان الزمن هو الزمن. وكانت بيرسي بولس عاصمة الإمبراطورية الكبرى وكانت مقر الملوك وبلاطهم وتصطف حولها بيوت وأملاك الآلاف الذين سكنوها وحصدوا الخيرات المحيطة بها. وحتى في زمن «لوبروين» منذ مائتي عام كان ينتشر حول السهل أكثر من ثمانمائة قرية، أمّا اليوم فلا يوجد أكثر من أربعين قرية.

لم تشهد بلاد فارس انحطاطاً لعظمتها وأقوالاً لزهوها مثلما شهدته في سهل «ميرف داشت»، وإذا رغب أولئك الذين يودون الحصول على فكرة حول روعة المكان في العصور الماضية، فما عليهم إلا أن يراجعوا الفنون والآداب المسرحية الشرقية المبهجة المذكورة في «كتاب إيستر» حيث يمثل المشهد مدينة «بيرسي بولس» في تلك الأيام الغابرة. إذ يجلس أهوروس على عرش المملكة وتبدأ المسرحية بوصف لوليمة كبيرة في قصر شوشان الذي كان يمثل بيرسي بولس ذاتها. وليمة للعظماء والفقراء ولمدة سبعة أيام في ساحة حديقة القصر الملكي حيث تتدلى الألوان البيضاء والخضراء والزرقاء المثبتة بخيوط من الكتان الجميل ومغلفة بحَلْقات فضية وأعمدة من المرمر، وكانت المزهريات من

Twitter: @alqareah

الذهب والفضة على رصيف من المرمر الأحمر والأزرق والأبيض والأسود. ويقدِّمون لهم الشراب بآنية من الذهب (ويختلف كل إناء عن الآخر) والنبيذ الملكي بوفرة وَفْقَ ذوق الملك. لقد كان الملك وهامان يجلسان في القصر عندما أمرا بتدمير اليهود، وفي بيت صغير تحت التلال العالية عاش موردخاي وإيستر - الابنة التي تبنَّاها - والذي ضمن سلامتهما وحمى هامان نفسه من السقوط. وفي هذا العصر أُقيمت المأدبة القاتلة التي اتُّهِمت فيها إيستر هامان، وفي هذه المدينة نفسها أعدموا هامان بالمشنقة التي أعدها لموردخاي ولذلك ليس من الصعب الاعتقاد بأنه ومنذ زمن بعيد كان نهر بندمير الذي يروي السهل الكبير يشكِّل مظهراً مختلفاً تماماً عن الحاضر، حيث كانت تُشاهد الورود ويسمع صوت العندليب حول الضفاف. وهنا أيضاً على أقل تقدير كان للزمن عذره لمساعدة الشاعر.

وبكل تأكيد لا يوجد اليوم أي إيحاء بالمشهد المرسوم في «لالا روخ»، ومن خلال السهل الصحراوي الأجرد مثل الحدائق والسكان تنتشر هنا وهناك برك داكنة تتكاثر فيها آلاف البطات من كل الأنواع، والتي ما إنْ يقترب منها المسافر حتى ترفرف بأجنحتها وتندفع مسرعة إلى جوف المستنقع بين نبات البردي الكثيف. ويتخلل تلك الأرض نهر صغير راكد بين ضفتين قبيحتين. ذلك هو بندمير الذي يمثل تناقضاً مؤلماً مع الصورة التي رسمها الشاعر له.

وبعد أن عبرنا النهر انطلقتُ عبر السهل حتى رأيت على مسافة تحت التلال أمامنا، ظلاً داكناً على كل مصطبة. هل يمكن أن تكون هي بيرسي بولس؟ لقد كان المستنقع نصف منجز لذا جلست حتى تأكل فرسي وتستريح وحتى آكل بعض التمر. وفجأة نظرت بمحض المصادفة صوب الشمال الشرقي، حيث ألقى الضياء المتغير ظلالاً على التلال، وبالمقابل فوق تلك المصطبة الداكنة انتصبت أعمدة

Twitter: @alqareah

كالأشباح. نعم كانت مدينة الملوك العظام التي لم يبقَ منها سوى خيوط ضئيلة بيضاء تحت التلال الجرداء فوق السهل المهجور.

وعندما واصلت المسير رسمتُ لنفسي صورة عَمَّا كان في وقت من الأوقات يثير انتباه المسافر مثلي، القادم من الجنوب الغربي. تصورت السهل مكسوّاً مرة أخرى باللون الأخضر ويسكنه الرجال والنساء، وقد أُعيد بناء المدينة العظيمة، وأعادوا تأهيل وإقامة مجدهم على الصالات الخربة للقصر القديم. الحقول الوفيرة، البيوت المشيدة بشكل جيد، والمنظر المترامي لآلاف من سطوح المنازل، والحركة النشطة للرجال وفخامة الاحتفالات والمراسيم والهيبة الواسعة للمدينة الملكية، كل ذلك كنت سأتجول فيه في تلك العصور الغابرة، والآن ليس هناك سوى خطوط يائسة من اللون الأبيض مقابل التلال الراسخة والتي يندر رؤيتها.

أخذت حوافر حصاني تنهب الطريق نهباً حتى كبرت الأعمدة واتخذت لها شكلاً في بعض الأحيان ثم اختفت عند تبدل الضوء والظل، ومن ثم برزت بشكل واضح وجلي. كما ظهرت كُتل لا شكل لها جنوب الأعمدة البيضاء. إنه قصر داريوس. حيث انبجست بقع معتمة على جانب التل، إنها القبور. وعلى مسافة بعيدة نحو الشمال، برزت للعيان ممرات مظلمة تتراجع داخل التلال الصخرية وكل واحد منها منقط ببقعة سوداء في وسطه، إنها أضرحة ملوك الأخمينيين. وخلال الأرض المحروثة والفضاء المترامي الأطراف والنهر، اندفعت مباشرة صوب بيرسي بولس نفسها، وأخيراً لاحت جدران المصطبة الكبيرة عبر الممر وأخذت حوافر حصاني تُحدث قعقعة جراء صعوده الدرجات وفوق الباحات المرصوفة.

كنت وحيداً، وكان حصاني سعيداً لأخذه قسطاً من الراحة وأخذ يقضم الحشائش النامية بينما كنت أتطلع حول المكان. كل ما حولي

Twitter: @alqareah

يوحي بالتأثر على العظمة الزائلة. وكان هناك إحساس بالفزع والرعب من هول الإسراف البليد للآثار الفخمة. وإنه شعور بالأسى والتقدير المحزن للمجد الصارخ الذي تُرك دون اهتمام أو رعاية حتى تآكل واندثر.

على أية حال. ثمة شفقة من نوع خاص بخصوص هذا المكان والتي لم أشعر بها نحو أي مكان آخر. وأعتقد أن ماهية المكان وموقعه هما اللذان يولِّدان حزناً غريباً على بيرسي بولس. إنها ليست الأفكار الخاصة بالفخامة التي شوَّهها الإنسان واجتثها من ماضيها لتستحيل إلى ركام وأنقاض، وإنما تركها هكذا معزولة ومهجورة حيث لم تُستثمر الحياة المحيطة به، فقد خذلها الإنسان وهجرها كما تخلّت عنها الطبيعة وحتى أمجادها السابقة بهذه العزلة التي أوصدت النوافذ المؤدية إلى ماضيها بكل صوره وأشكاله. إنَّ أفضل ما يُقرأ عن هذا المكان ما كتبه عمر الخيام أو ما ورد في الكهنوت الكنسي «تفاهة التوافه» للواعظ الذي يتردد صداه من كل زاوية وقصر.

هناك شيء من الماضي السحيق يجعلك ترتعش وتهتز على نحو لا يوصف، إذ تحتاج ألف عام كي تعمل حديقة مخضرة وقد استغرقت ألفي عام لتصميم ما أنظر إليه الآن. إذن ماذا تعني مئات السنوات لمثل هذا العمل؟ يفنى الرجال والنساء منا وآخرون يولدون، مجرد نصب لا أكثر ولا أقل، الأشياء الصغيرة تذروها الرياح والمطر من هذه البوابة الهائلة كما تُطمس الكلمة ويشوّه الشكل. إنها مفارقة عجيبة، أليس كذلك؟ ألسنا نحن البشر الذين نستخرج دروساً أخلاقية حول الزمن والخلود والمبادئ الأخلاقية أقل خلوداً من أعمالنا؟ ستستمر بيرسي بولس في رؤية أجيال عديدة من الرحالة والمسافرين يقفون حيث أقف الآن ويحدقون نحو أعمدتها ونقوشها وحتى تغمض العيون إلى الأبد.

Twitter: @alqareah

كان لدي متسع من الوقت لجولة قصيرة خلال القصور الخربة قبل أن أتخذ طريقي عائداً إلى الكوخ الطيني الصغير الذي أصبح بيتاً لي للأيام القليلة القادمة. أثناء عودتي صادفتُ أشياءً لم أسمع نكرها في أي مكان آخر. إذ حوالى نصف المسافة نحو «شابرخانة» في بوزيه المقيم فيها، يمتد شريط من الأرض بين التلال وفي خليج صغير على الجانب الشمالي الشرقي لهذا الشريط وفي مسلك صاعد داخل الصخور، رأيت بعض الفتحات المربعة الشكل في الصخرة، واحدة منها تحت نتوء صخري بارز تواجه العالم بأسره مثل مقدمة كوخ من القش بابه مفتوح. قمت بالتسلق إلى الأعلى فوجدت بأن كل فتحة تؤدي إلى حجرة صغيرة طولها ستة أقدام وارتفاعها ثلاثة أقدام حيث يتمكن المرء من الزحف داخلها. هناك ثلاث حجر كاملة وأكثر من حجرتين غير ناجزتين. لا توجد نقوش على الإطلاق. هناك فقط على الحجرة الكبيرة والحجرتين غير الناجزتين نقشٌ لحوض من الحجر يتراوح عمقه من قدمين إلى قدم ونصف، وفي داخل الأكواخ الصغيرة يوجد أخدود ضيق طوله قدمان في زاوية من الباب، والذي أعتقد بأنه كان متصلاً بعملية إغلاق باب آخر يفترض أنه كان موجوداً، كما كانت هناك تجاويف عند قمة الباب في الداخل ربما للقيام بأي عمل فيها.

كان الحوض في الأكواخ غير المنتهية مكتملاً وهناك مؤشر على مواصلة العمل. ففي الصخرة الكائنة فوق الكوخ الأكبر كان هناك حوض مفصل بطول ستة أقدام وعمق يتراوح بين قدمين وقدم ونصف وينحدر قليلاً إلى الأسفل. وكان أيضاً ثمة حوض أعمق في الصخرة المنخفضة قليلاً نحو الشرق. وكانت حجرتان من غير الكاملتين إلى جهة الجنوب وأخرى جهة الشمال.

حَلَّ الليل بينما كنت أمر قرب أسفل التلال الصخرية وقد وصلت البيت الطيني ساعة الغسق الضبابي. إنّ العودة من المكان المعتم

Twitter: @alqareah

للأشباح دون تلألؤ النار على الجدران السمراء أمر مبهج حيث كانت غرفتي الصغيرة مثل وطن دافئ وحنون. في مثل هذه الأمور تختلف الأُطر العقلية وتتباين في تقديراتها، إذ من المحتمل أنّ آخرين يبدون أقل استعداداً للاستمتاع من الميزة الاستثنائية لمحل الإقامة مما كنت عليه في تلك اللحظة. فقد توقّع سيف في الواقع أن أقوم بذلك بنفسي، وعندما سألت عن مكان غرفتي أشار بمعنى صريح واحتقار ساخط «يا الهي! أين هي؟» بالتأكيد كانت لوازم المعيشة محددة. لم تكن هناك سجادة أو منضدة أو كرسي، حتى الباب الأحمق الفاصل الذي تحدّث عنه اللورد كورزون قد اختفى، مما أدّى إلى تسرب الريح الباردة من خلال الفتحة الفاصلة بين الأبواب، إضافة إلى تيار الهواء المنبعث من الثقوب في الجدران. وعلى أية حال قمنا بسد الثقبين بأكياس وقطع قماش لتحول دون وصول الريح إلينا، كما وضعنا صندوقاً كنا نحفظ به أدوات المطبخ كطاولة لنا. وبعد وجبة شهية تدثرت بمعطفي العسكري الثقيل كتعويض عن عدم وجود الباب الذي كان على مسافة قصيرة من فراشي، وهكذا تمددت لأنام حيث كان ينام منذ زمن بعيد وفي أجواء مختلفة تماماً خيرخس أو داريوس.

Twitter: @alqareah

13

ناكشي رستم

«تفاهة التوافه: قال الواعظ، تفاهة التوافه، كل شيء تافه
ما الفائدة التي يجنيها الإنسان من عمله تحت الشمس؟
يذهب جيل ويأتي جيل،
ولكن الأرض باقية إلى الأبد».

المبادئ الكنسية

كنت الآن في حضرة بعض عجائب الدنيا، نُصُب تذكارية عظيمة لحضارة قديمة، أعمال انتقلت من جيل إلى جيل ويبدو أنها مثل الأرض ستبقى إلى الأبد.

كان بيت الاستراحة قد أُقيم قريباً من السهل وشَكَّل مقراً لي حيث انتشرت ثلاث مجموعات رئيسية من الآثار. أولاً، هناك مدينة بيرسي بولس نفسها ثم القبور الصخرية والتماثيل في ناكشي رستم، وأخيراً الآثار المتفرقة للمدينة القديمة «إصطخر».

بالنسبة للمسافر القادم من شيراز، يقع «شابرخانة» في بوزيه مباشرة إلى الأمام عند منتصف الوادي الذي تخترقه الطريق إلى أصفهان وعندما تقف عند شابرخانة وتنظر إلى الوادي باتجاه أصفهان تكون بيرسي بولس على اليمين وعلى بعد ميل واحد. أما على اليسار من جهة الشمال وعلى مسافة أبعد من بيرسي بولس

Twitter: @alqareah

فتقع قبور وألواح ناكشي رستم والتي من الصعب الوصول إليها بسبب الطريق المتعرج وغير المباشر الذي يجب أن يُسلك. وقريباً منها تماماً تقع البقايا غير المنتظمة لمدينة «إصطخر» وبالإضافة إلى هذه الأماكن ذات الأهمية الفريدة، هناك واحد أو اثنان على درجة أقل من الأهمية. وخلف «شابرخانة» من جهة الشمال وعلى بعد عدة مئات من الياردات سيكتشف الرحالة منصة حجرية مسطحة غريبة تُسَمَّى «تاختي تاوس» «عرش الطاووس»، وعلى يمينه تحت التلال يقع غار صغير داخل الصخرة لم يُكتشف إلا بعد التمعُّن فيه بدقة حيث توجد ثلاث لوحات لتماثيل صخرية. يُسَمَّى هذا المكان «ناكشي رجب» وفيما بعد ذلك صوب بيرسي بولس ستجد الأكواخ الصخرية التي تَمَّ وصفها سابقاً، وبعد ذلك مرة أخرى هناك آثار لطريقين قديمين والتي تؤدي بعد انعطاف قصير فوق الجبال إلى الأسفل خلف بيرسي بولس، هذه بكل بساطة جغرافية المنطقة التي توجد فيها آثار الماضي.

وكلمة تاريخية لابد منها أيضاً. من الأهمية بمكان أن نتذكر بأنّ هناك فترتين مختلفتين تماماً بخصوص الآثار وأنَّ بعضها ينفصل عن البعض الآخر بألف عام.

فالفترتان الزمنيتان اللتان تركتا بصماتهما على هذا الجزء من بلاد فارس أو على بلاد فارس عموماً هي، أولاً الفترة الأخمينية التي امتدت من 588 ق. م حتى 331 ق.م، وثانياً الساسانية التي دامت من عام 226 م حتى 651 م. وبطبيعة الحال هناك آثار تعود إلى زمن قبل العهد الأخميني. كما أن هناك بعض الآثار تعود إلى ما بعد الفترة الساسانية. ولكن على العموم، كل الآثار الموجودة في هذه السهول حول بيرسي بولس ترجع إلى الفترتين السابقتين. وضمن هاتين الفترتين يمكن تصنيف الآثار، وبهذا يمكنني تصنيف الآثار الأخرى التي تعترض طريقي في رحلاتي.

باديءَ ذي بدء إذن، في الماضي المظلم ربما قبل ملوك السلالة الأخمينية كان هناك مذبحان ناريان حول زاوية في الجهة الشمالية

Twitter: @alqareah

من ناكشي رجب ويعودان إلى زمن الأساطير، حيث لا يُعرف شيء عن تاريخهما. وينسب إلى تلك الحقبة أيضاً المساكن الصخرية الغريبة التي رأيتها بعد ذلك عند مرورنا من جبال إلبورز. وثانياً، عندما ندقق في الفترة الأخمينية نجد أنها تقسم إلى فترتين: الأولى هي فترة حكم سايروس والتي بنيت خلالها مدينة باسارجادا الواقعة على مسافة أبعد من بيرسي بولس على الطريق المؤدي إلى أصفهان، والتي سنأتي على وصفها لاحقاً. فهناك يوجد قبر سايروس وبقايا قصره والمسلّة الشهيرة بشكلها الذي يشبه الملك، والنقوش التاريخية المنقوشة عليها، أمّا الفترة الثانية من حكم الأخمينيين فتتضمن حكم الملوك الآخرين مثل داريوس، خيرخس وأخلافهم وكانت بيرسي بوس مدينتهم جميعاً، وفي «ناكشي رستم» شيّدوا قبورهم وينسب إلى هذه الفترة أيضاً بعض الآثار القديمة في شاهبور، ولكنها كانت قبل عهد شاهبور. فالمدينة والألواح الصخرية لم يكن لها وجود حتى بعد ذلك بمئات السنين. فالألواح والأحواض الصخرية، على أية حال، تبدو بأنها متطابقة في صنعها وتصميمها مع الآثار الأخمينية. لذلك من المحتمل أنها أُقيمت قبل قرون من بناء شاهبور حيث كان المكان مشيّد عليه مدينة أخرى. كما تعود مدينة إصطخر إلى تلك الفترة. فهناك آثار منتشرة فيها مثل ناكشي رجب وربما «تاختي تاوس» وهما أخمينيتان. وبعد عام 331 ق. م حلت فترة زمنية طويلة لم ينسب إليها أي عمل حقيقي ولعدة أجيال قادمة. وبعد أن تم استنهاض الثروات الفارسية في ظل أردشير البابكي وشاهبور واستعادة الديانة الزرداشتية، شهدت البلاد نهضة فنية جديدة.

الأعمال الجليلة تستلزم ذكريات جليلة، ولهذا لا غرابة في أنّ الملوك الساسانيين ومن أجل تخليد أعمالهم قد اختاروا موقعاً زاخراً بالأعمال العظيمة والآثار الباقية من الماضي، والتي صُمِّمت وشيدت قبل مئات السنين على يد أسلافهم العظام من ملوك الأخمينيين. وهكذا وجدنا تحت قبور خيرخس وداريوس وأرتا

Twitter: @alqareah

خيرخس وعلى امتداد الصخرة إلى الغرب أن شاهبور ومن تبعه من الملوك قد صمموا صورهم الصخرية الرائعة. وهناك أثر ساساني آخر يشكل سلسلة النقوش في كهف حاجي آباد القريب من ناكشي رستم. وإلى العهد الساساني أيضاً تنسب التماثيل والآثار في شاهبور، والتي تماثل في أمور كثيرة تلك الموجودة في ناكشي رستم وكذلك التمثال المنتصب في الكهف الكبير.

بعد انتهاء الفترة الساسانية لم يترك شيء مثير للاهتمام أو يستحق الذكر في العصور اللاحقة. حيث جرت مؤخراً محاولات لملوك من الفترة التالية لتقليد أعمال شاهبور وأخلافه، ولكن هذه الحالات كانت على درجة منحطة ورديئة في تنفيذها ومضمونها.

مما دُوِّن وكتب يتضح بأنني الآن في مركز مستودع الماضي. فالكنوز التي حولي تحيرني إذ لا أعرف أي طريق أسلك وإلى أين أتجه خلال الأيام القليلة التي سأقضيها هنا. كان الصباح الأول لنا مثبطاً وبائساً حيث هطلت أمطار ثلجية على السهل والوادي، ولكن الوقت لا يسمح بأي تأخير، ولهذا انطلقت مع سيف يصحبنا دليل فارسي على علم بالمنطقة إلى ناكشي رستم. لا بُدَّ كي نصل إلى المكان من اتباع أحد منعطفين إمّا إلى الشرق أو إلى الغرب وقد اتبعت المنعطف التالي. في الجهة الغربية من شابرخانة يمكن خوض النهر وعبوره، وهكذا ركبنا نتعرج حيناً ونتعثر حيناً آخر فوق الممرات اللزجة حتى وصلنا قرية صغيرة ومنها اتجهنا مباشرة إلى الشمال، وبعد مسير مُتعب وشاق خلال الريح والمطر رأينا لوحة أورمزد أردشير منتصبة وبارزة على الصخور أمامنا.

كان لا بُدَّ من التوضيح من وجود ثلاث مجاميع كاملة من الآثار القديمة في ناكشي رستم. أولاً هناك المذابح النارية منذ العصور الأسطورية ثم قبور الملوك ومعبد سري للنار والذي سأُشير إليه لاحقاً، وسلسلة الألواح ذات التماثيل التي تُمَجِّد الملوك الساسانيين وأعمالهم.

Twitter: @alqareah

إنه منظر مثير ففي الأعلى هناك شق حاد في الصخر يقابل القبور المماثلة للصليب المحفورة في وسط كل واحد منها باب أسود صغير يؤدي إلى أروقة وسراديب. وإلى الأسفل تنتشر على طول قاعدة التلة الصخرية لوحات مصورة للملوك الساسانيين. ويقام في منخفض أمام القبور مباشرة معبد حجري مربع الشكل، بينما إلى اليسار حيث تنخفض التلال هناك دعامة من الحجر، أما إلى الخلف فتوجد المذابح النارية القديمة.

هناك أربعة قبور وسبع صور صخرية، وقد وصف اللورد كورزون هذه القبور والصور بالتفصيل وبكل دقة بحيث يتعذر عليَّ إعادة ما ذكره. لذلك سأُقدم انطباعاتي إضافة إلى اهتماماتي الشخصية من خلال اكتشافاتي الفردية.

أولاً بالنسبة للصور الصخرية ومن أجل وصفها مع القبور يجب احتسابها من جهة اليمين أي من الشرق. لقد تقدمنا من جهة الغرب وسرنا مباشرة تحت القبور إلى النهاية البعيدة حيث يبرز القبر الأول ويتميز عن البقية بزواياه القائمة، ويقع بين القبر الأول والثاني اللوحة الصخرية المنقوشة. ولهذه أهمية خاصة، حيث تحتوي على الشكل الوحيد لامرأة وجدت في مثل هذه النقوش الفارسية. ويقع الشكل على اليمين ويمكن أن نتبين من ضخامة فخذيها وشكلها الأنثوي أن موضوع الجنس يحتل أهمية لا يرقى إليها الشك، وتمثل اللوحة كلها إمّا فراهران الثاني أو فراهران الخامس وملكته. ويؤكد البعض إنها رُسمت بمناسبة زواج الملك. فالملك الساساني نفسه وبتاجه الضخم كان يحمل بوقار الخاتم الملكي وتمسك سيدته بالجانب الآخر. ويقف في الخلف التابع الأمين، وبين الملك والملكة يوجد شكل صغير جداً مشوَّه يبدو أنه طفل (والذي يفترض أنه يناقض فكرة أن الصورة تمثل زواج الملك). بالنسبة لي شخصياً أعتقد بأن الصورة تشتمل على فراهران الخامس - بهرام جور «بهرام الحمار الوحشي» وملكته، وهو الذي قدمه عمر الخيام في إحدى صوره الرثائية.

Twitter: @alqareah

«وبهرام ذلك الصياد الماهر ـ الحمار الوحشي يضربه فوق رأسه ولكنه لا يوقظه من نومه».

لقد قُتل وهو يصطاد الجور (الحمار الوحشي) فوق هذا السهل. ولذلك حمل اسمه. فإذا كان هو، على أية حال، فإن المملكة تثير مشكلة لأنه مع الأسف لم يكن عاشقاً صادقاً. إنه لأمر خرافي أن تكون لديه سبع خليلات كل واحدة في قصر خاص وكان مخلصاً لهن جميعاً دون تمييز بينهن. على أية حال، لقد سرَّني أن أفكر بأنّ الصورة تتضمن الصياد الماهر والعاشق الملكي الذي تعرفنا على اسمه في الشعر والتاريخ والرومانسية.

ثم نتطرق إلى اللوحتين التوأمتين، الثانية والثالثة واحدة بعد الأخرى، في هاتين الصورتين والصورة الخامسة شاهدنا مبارزة الفرسان بالرماح مرسومة عليها ولا ندري إن كانت في معركة أو في ميادين المبارزة. ولكن الملك ورمحه في يده يقابل عدوه على نحو متلاحم. هناك حيوية وحساسية بالحركة بخصوص هذه الصور تجعل منها صوراً حية وتوهجاً غريباً يشع منها بعد ألف وخمسمائة سنة. فالخيول تقفز بأرجلها الأمامية وإلى اليسار ينحني الملك إلى الأمام على رمحه ويقابله من الأعلى خصمه الذي ينطلق بسرعة. هذه هي الصورة الأولى من الصور الثلاث. وإذا نظرنا إلى اللوحة الثانية: لقد تقابلا. الملك! الملك! النصر للملك. العدو ينقلب على عقبيه يرتعش رمحه، يتراجع ويبرك حصانه على فخذيه. يتعثر فيقع راكبه على الأرض والملك يحرز النصر بفَخَار. انظر ثانية إلى اليسار حيث تظهر الصورة الخامسة: إنها تمثل مرحلة لاحقة من قصة انتصار الملك حيث لم يعد يركب عدوه، إذ يظهر حصانه ممدداً ورمحه يتدلى مكسوراً في يده بينما الملك يجز رقبته وهو يهبط متثاقلاً عن سرج حصانه.

هذه هي قصة الصور الثلاث والتي كان بطلها فراهران الرابع.

سنعود الآن إلى الصورة الرابعة إذ من أجل استكمال قصتنا

Twitter: @alqareah

كان لابد من تجنب لوحة. فالملك يتلقى البيعة وبلاد فارس تأخذ البيعة من روما. فالقيصر يركع أمام شاهبور وملامح الذل والخضوع بادية عليه وشفتاه ترددان الدعاء والثناء، ثم يصعد إليه الملك راكباً ويده اليسرى على سيفه ويده اليمنى ممدودة يمنح الاحتقار الملكي للوضيع اللاجئ سيرياريس الذي يقف أمامه. إنه تكرار لما ظهر على جدران الصخر في شاهبور ودرابجيرد. هناك الشفقة نفسها في الموقف والشكل الروماني الذليل. وثمة أيضاً العجرفة والغطرسة في عربة الملك الفارسي. إنه تقرير على درجة من الأهمية بخصوص الانتصار الفارسي، إذ ربما كان شاهبور قد أحضر فاليريان أسيراً مقيداً بالسلاسل إلى بلاد فارس، أو ربما داس على ظهره المنحني حتى يركب على ظهر حصانه، ومن المحتمل أنه أمسك جسم الإمبراطور وجرّه أمام الجمهور الفارسي، أو ربما علق جلده المحنط على سقف المعبد بعدما حرر الموت جسمه من العذاب. ربما قد فعل كل ذلك، ولكن شاهبور الحكيم لم يفعل ما يمجد أعماله وانتصاراته مثلما فعل في تلك الصور الحجرية التي عَبَّرت عن هذه الانتصارات، من خلال إبراز العار والذل الروماني لأنها باقية إلى يومنا هذا وستبقى للأجيال القادمة أيضاً. فهي تقول خلال كل الأزمنة وسنظل نقول «انظر إلى قوة وعظمة شاهبور، انظر إلى خضوع الروم المتغطرسين».

أما اللوحة الخامسة فهي الثالثة من المسلسل الفروسي الذي تم وصفه سابقاً. وتمثل السادسة لوحة فريدة حيث تمتد حول منعطف داخل الصخر وهي صورة فراهران الثاني وحاشيته، لكنها لم تكتمل عند الملك الواقف بطوله الكامل. ويشير اللورد كورزون إلى «أنَّ السبب في رؤية رؤوس وأجزاء من أذرع أفراد الحاشية هو أنهم كانوا واقفين خلف حاجز يشبه المقصورة»، ولكني أميل بالتأكيد إلى الرأي الذي ذكره اللورد كورزون في الحاشية، وهو أنَّ الصورة غير مكتملة وأنها كانت تهدف إلى إظهار كل الشخصيات بالكامل. وهناك حقيقتان تدحضان فكرة «الحاجز والمقصورة»: أولاً، إنّ

Twitter: @alqareah

الخط السفلي حيث لم ينقش الحجر هو خط واضح ومربع وغير مزيّن، بينما لو كان يمثل حافة المقصورة فإما أن يكون مستديراً مزيناً أو مستوياً، ثابتاً. حول الزاوية نحو الغرب، تبدو الصورة غير منتظمة وغير مستوية، وأخيراً وإذا ما أمعنا النظر في الصخرة نجد أن العمل غير مكتمل أكثر من كونه نهاية لحاجز أو مقصورة حيث يوجد تحت هذه الصورة فراغ مستطيل أملس مهيأ كما أعتقد للنقش، إذ أن الفراغ في هذه اللوحة صغير بحيث إذا نقشت صورة أخرى عليها فإنها ستكون على مستوى مختلف تماماً من الذي رأيناه عليها. وحول الزاوية من جهة الشرق، وعلى جزء من الفراغ الأملس للصورة الرئيسية والمنفصل عنها، هناك الشكل الذي وصفه موريير وبورتر. إنّه عمل قبيح ورديء التصميم فإمّا أن يكون لحقبة لاحقة أو أنه مجرد تخطيط غير مكتمل، وأنه مَثّل فقط شكلاً خارجياً خاصاً.

أمّا اللوحة السابعة والأخيرة فتمثل الإله أورمزد وهو يقدم خاتماً ملكياً إلى أردشير البابكي. يحمل الإله بشكله البهي وملامحه الواضحة ولحيته المربعة، الخاتم بيده اليمنى بينما تمسك يده اليسرى بالصولجان رمز القداسة. يقترب الملك من الجهة المقابلة ويمسك بذراعه الممتد الجانب الآخر من الخاتم. كل واحد منهما يمتطي حصانه وكل حصان يدوس شكلاً تحت حوافره، حيث يقع أرابنوس تحت حصان الملك أما تحت حوافر حصان أورمزد فيمتد أهريمان، روح الشر. لقد صُوِّر التمثيل بالأشكال على نحوٍ جميل ولكن، مع الأسف، تراجعت الخيول عن الفعل المؤثّر. فالحصان التقليدي الاحتفالي في التماثيل الساسانية يختلف عن تلك الخيول التي تستخدم في المعارك والتي شاهدناها في الصور الخاصة بالمعارك العملية على ظهور الخيل. إذ لا يوجد تأثير حيوي ونابض بالفعالية للحيوانات القوية والسريعة والتي تقوم بعملها في المناسبات الرسمية كما في التمثال الصخري، فهو في الحقيقة يقدم شكلاً خارجياً إذا لم يكن مضحكاً فهو غير ملائم، وعلى صدر

Twitter: @alqareah

الإله أورمزد المكتنز نقشت الصورة التالية (حيث ترجم أورمزد إلى زيوس في الإغريقية)، ورغم فقدان بعض الحروف إلا أنّ الصورة يمكن قراءتها على الشكل التالي:

«هذه صورة أورمزد يعبد الإله أرتاكارسو
(أردشير)، ملك الملوك الآري من جنس
الآلهة وابن الإله بابك الملك».

تنحدر تلة حسين كوه المواجهة للقبور والتماثيل إلى الأسفل حوالى ثمانمائة قدم إلى آخر مدى في الشمال الشرقي حتى يتلاشى في سهل ميرف داشت جهة الغرب. وتنتهي التلة مباشرة بعد آخر صورة صخرية، وحول الزاوية، حيث تنحدر الأرض تدريجياً إلى السهل، أُقيمت مَنصّتان للنار وسط أقدم الآثار الفارسية. وتمثل عبادة النار في بلاد فارس أغرب وأعجب تاريخ في هذه البلاد حيث فُقد تاريخها في ميادين العصور الأسطورية القديمة. فمنذ زمن بعيد كانت أرقى ديانة لإمبراطورية قوية، وفي العام 331 ق. م حل غزو الاسكندر ونهب بيرسي بولس وسحق الديانة الوطنية ودمّر وثائقها وكتبها. ثم تبع ذلك فترة طويلة من الخضوع والقوانين الأجنبية، ولكن بانتعاش الثروات الفارسية في ظل أردشير في العام 226 م اتجهت عبادة النار إلى حياة جديدة وأُعيد نشر كتبها بطريقة أو بأخرى. وخلال حكم الملوك الساسانيين الطويل الأمد، اكتسبت قوتها وبقيت هكذا حتى الفتح العربي في العام 650 م والانتصارات الكاسحة للإسلام، مما أدى إلى انهيار تلك الديانة وحل محلها ديانة جديدة أخرى وإلى الأبد. لقد عملت الديانة الإسلامية بقوتها وحيويتها على إخماد لهب النار الذي كان ذات مرة ملتهباً وساطعاً. حتى في الوقت الحاضر ما تزال جمرات قليلة من العقيدة القديمة باقية، وهناك حوالى أحد عشر ألف زرادشتي في بلاد فارس إضافة إلى أولئك الذين ينتشرون في كل أنحاء العالم يحتفظون بتقاليد أسلافهم، إذ كان عليهم التمسك بعقيدتهم من خلال عدة

Twitter: @alqareah

محاكمات وعمليات قمع واضطهاد إلى أن بدت مؤخراً المعاناة الفعلية وعدم الالتزام ورفض تأدية واجباتهم التي لحقت بهم أمراً لا يحتمله حتى أولئك المتسامحون حيث تم التغاضي عنه ظاهرياً. ففي «يزد» مركز الجماعة الزرادشتية وحتى العام 1885 م لم يسمح لأي فارسي بحمل مظلة وحتى العام 1895 كان عليهم أن يلبسوا قبعات ممزقة. وحتى العام 1891 كان عليهم أن يمشوا على أقدامهم في المدينة وكان عليهم أن ينزلوا إذا ما قابلوا مسلماً في الصحراء. وحتى العام 1895 لم يسمح لهم بوضع نظارات على عيونهم. وكانوا قد مُنعوا من لبس الجوارب البيضاء حتى العام 1898. لقد اقتبست المقطع التالي من كتاب السيد نابيير مالكولم «خمس سنوات في مدينة فارسية» والذي أدين له بالعديد من الحقائق المذكورة سابقاً: «حوالى عام 1891 شاهد أحد المجتهدين تاجراً زرادشتياً يلبس جوارب بيضاء في أحد الميادين العامة في المدينة. أمر بضرب الرجل ونزع جواربه. وفي العام 1860 ذهب رجل في السبعين من عمره إلى السوق لابساً بنطالاً أبيض من القماش الخشن. قاموا بضربه بقسوة وأمروه بنزع بنطاله وأرسلوه إلى بيته وهو يحمله تحت إبطه».

وبالإضافة إلى المضايقات القانونية كان ثمة اضطهاد غير شرعي والذي وصل إلى حد القتل.

قَدَّمنا سرداً مختصراً لديانة الطقوس الدينية، والتي من أجلها أُقيمت منصتان للنار حول الزاوية الغربية لحسين كوه في ناكشي رستم. وتعد المنصتان غريبتان في شكلهما، إذ يبلغ ارتفاعهما خمسة أقدام، وهما متلاصقتان ومنحوتتان من الصخر الصلب ثم يتناقصان من قاعدتهما ليُشَكِّلا تاجاً على كل منهما بارتفاع ثلاثة أقدام ونصف. ويجوف هذا على شكل حوض لوضع المواد وحرقها فيه. أما بالنسبة لموضوع المناسبات التي تقام فيها هذه الطقوس فلم يتم التكهن بإجابة وافية حوله. وكل الذي يمكن قوله بثقة ويقين

Twitter: @alqareah

أنها مذابح نارية وأنها متصلة اتصالاً وثيقاً بتلك التي شاهدناها مرسومة على تماثيل القبور نفسها.

هنا فوق الصخور توجد العديد من المناظر التي تستحق المشاهدة. أولاً، هناك عمود وحيد يبلغ طوله ستة أقدام ينتصب على سطح عريض بدون قاعدة أو رأس وبدون أي نقش من أي نوع، فقط عمود حجري منفرد. وعلى مسافة أبعد ووسط دلائل مختلفة على عمل إنساني، هناك لوحات منبسطة أو «دخماس» مماثلة لتلك الموجودة في شاهبور. وتوجد هنا العديد من تلك الأحواض الغريبة والتي يمكن رؤيتها في المدينة الساسانية، كما توجد أحواض صغيرة متنوعة الأشكال محفورة هنا وهناك داخل الصخور. وقياساً على القمم المماثلة للأحواض المستخدمة كمذابح نارية، فمن المحتمل أنها استُخدمت من أجل الطقوس الزرادشتية في زمن عبادة النار. وهناك على مسافة أبعد، توجد ثقوب صغيرة أو شبابيك تحدث عنها موريير ولكن كير بورتر كان محقاً في قوله بعدم وجود آثار للنقوش.

وعندما هبطنا عن التلة الصخرية التي كنا قد تسلقنا جزءاً منها وعدنا تحت القبور والصور، انتصب أمامنا البناء الحجري المربع الغامض والذي كان مثار جدل حاد إذ لم يتمكّن أحد من سبر غوره ومعرفة معناه، وحينما يشرع أحد للقيام بذلك يتصدى له شخص آخر ليناقضه وما يزال حتى الآن يدور الجدل حوله وكل شخص يتمسك برأيه حوله. فالصرح الذي أطلق عليه شاب فارسي قابلناه هنا اسم «نكارا خانة» أو «بيت الطبل» يقع أسفل رابية مقابلة للقبور (وليس على قمتها كما ذكر اللورد كورزون) وهو برج مربع مبني من قوالب من حجر كلسي. إنه بناء قبيح المنظر داكن اللون تخترقه عدة فجوات أو شبابيك على شكل ألواح في الجدار الحجري. أمَّا على الجانب المواجه للتلة الصخرية فتوجد البوابة التي يبلغ ارتفاعها اثني عشر قدماً عن سطح الأرض ويمكن دخولها بسهولة بعد عملية تسلق. وفي الداخل هناك غرفة صغيرة أرضيتها من الكتل

Twitter: @alqareah

الحجرية ومسقوفة ببلاطتين ضخمتين. إنه مكان قذر وكريه فالأرضية مشقّقة والسقف أسود ويبلغ سمك الجدار ستة أقدام على أقل تقدير.

لقد دونت ملاحظات مفصلة بخصوص المشاكل المتنوعة التي أثارها هذا البناء العجيب ولكنها تتناول بشكل رئيسي التقنيات الأثرية. إذ أن إحدى النظريات التي توصلت إليها بعد مقارنة هذا البناء بآخر مشابه له في «باسارجادا» هي أن جزءاً كبيراً من معبد ناكشي رستم قد دفن تحت الأرض بتعاقب العصور، ويمكن أن تكشف الحفريات بأنّ تحت الغرفة الصغيرة التي وصفتها توجد غرفة أخرى وربما تكون قبراً.

لقد تنقلنا بين الصور الساسانية ثم بين المذابح النارية في عصر قبل التاريخ، وعدنا ثانية إلى آثار العهد الأخميني ولم يبق إلا أن نَصِفَ قبور الملوك الأخمينيين أنفسهم. أعتقد جازماً بأني حالما وقفت تحتها وحدقت في هذه الأعمال الرائعة انتابني إحساس أكيد بأن هذه الأساليب المثيرة للإعجاب لم يقم بها إنسان آخر لتخليد شهرته وذكراه، وليس هناك دار استراحة أبدع وأروع كي يوارى بالثرى فيها. إذ تبرز ثلاثة قبور عبر السهل باتجاه بيرسي بولس. أما الرابع فيستند على زوايا قائمة مع الأخرى حيث تمتد التلة بحدة جهة الجنوب. وتتشابه كل القبور ولكن القبر المنفصل في أقصى الشرق أكثرها إتقاناً بسبب موقعه. لم يتم التعرُّف حتى الآن على ثلاثة منها، ولكن الثاني من جهة الشق عرفناه الآن من النقوش المسمارية على أنه دار استراحة داريوس.

ويعد كل واحدة منها تحفة فنية مذهلة وهناك إشارة صليب ضخمة محفورة في الصخرة يبلغ ارتفاع القاعدة حوالى ثلاثين قدماً. أما الصليب نفسه فيرتفع إلى مائة قدم عن سطح الأرض. ويبلغ عرض الأطراف حوالى خمس وثلاثين قدماً. وبمحاذاة هذه الأطراف باتجاه المركز يبرز صف من أربعة أعمدة تستند رؤوسها المماثلة لرؤوس الثيران على قوالب قوية، وفوق هذا الرواق المعمد

Twitter: @alqareah

يوجد العضو العلوي للصليب وهذا مملوء بأشكال منحوتة، وهناك أربع عشرة صورة تتكئ على أذرع منتصبة على منصة ضخمة. وعلى هذه القاعدة، مرة أخرى، هناك أربع عشرة أخرى مقامة على منصة أخرى وينتصب فوقها الملك نفسه بملابسه الملكية. وترتفع يده عالياً تضرُّعاً إلى الإله أورمزد الممثل بصورة غريبة تتكون من رأس وأذرع تبرز من درج من الرق حيث يعوم الملك على رأسه ويحمل في يده الخاتم الملكي. وتتوهج تحت الإله وأمام الملك النار في المذبح بينما يبدو عن بعد قرص الشمس معلّقاً.

بين الأعمدة المركزية للرواق ينفرج الفراغ الأسود للباب الذي كان ذات مرة مغلقاً بحجر، أمّا الآن فهو مفتوح على الدوام ويظهر من خلاله على نحوٍ باهت منظر لأعمال حجرية. أما المقصورة العلوية للباب فهي من الحجر الصلب وقد تشقق الجزء السفلي حتى يتم الوصول إلى القبور.

هذا هو الانطباع حول القبور الأربعة.

إذ لا يمكن التمييز بينها إلا بالنقش الموجود على قبر داريوس. ففي داخلها، كما سنرى، لم يبق أي أثر للأجزاء الملكية للميت: هناك فقط مدفن حجري أجرد وكفن فارغ. ومع أن التراب والرماد لم يبق لهما أثر والزخارف البهية للجثث الملكية قد اختفت إلا أنَّ القبور ظلت أثراً فخماً وستحكي لسنوات طويلة عن عظمة أولئك الذين صممت في عهودهم. لقد أطلّتْ على عدة أجناس من الرجال والنساء وسمعتْ ألسنة غريبة كثيرة. وستظل تتطلع إلى أجناس أخرى ولغات أخرى قادمة. ومن المحتمل أنها ستشاهد وادي بولفار يبتسم خضرة ورفاهية. ومرة أخرى، من يدري؟ قد تشهد الخضرة تتلاشى وتتضاءل الرفاهية. فهناك ستظل كما هي بينما يأتي الرجال ويختفون حتى تستحيل الأرض باردة لا حياة فيها، وحتى فراغ من الهواء لا ماء فيه يدور حول الشمس وقمر آخر ميت، يمضي جيل ويأتي جيل آخر ولكن الأرض باقية إلى الأبد.

Twitter: @alqareah

حقاً، إذا أراد الإنسان أن يخلِّد ذكراه فقد كان هؤلاء الملوك القدماء حكماء لما فعلوه وخلفوه.

تملكتني رغبة جارفة لتسلق التلة الصخرية والدخول إلى قبر ملك أخميني، وهكذا دعوت نصر الله خان صديقي الفارسي الذي ذُكِر سابقاً. «هل بوسعك التسلق إلى القبر؟» سألته. أجاب، نعم. وهكذا تم تسلقها كلها عدا القبر الأول أو الواقع في أقصى الشرق، وحتى هذا تم الوصول إليه ولذلك يقال «فيرنغي» ما دام الوصول إليه قد تم بوساطة سقالة. ومن أجل إثبات صحة هذا القول دخلت مجموعة من أتباع صديقي الفارسي بعد جهد جهيد إلى قبر داريوس ونزعوا حذاءه وملابسه غير الضرورية. تبعتهم حتى قاعدة الصليب ولكنهم لم يسمحوا لي بالصعود إلى الجزء التالي وحتى لو أردت (كان بوسعهم أن يدعوني أفعل ما أشاء) فإنهم سيتحملون مسؤولية موتي، إذا ما زلت قدمي أو أخطأت طريقي. وبهذا وعدوني بأن يعودوا مرة أخرى حين قالوا «إن شاء الله غداً» ثم جذبوني إلى الأعلى بصحبة صديقي نصر الله خان، وانطلقنا تحت المطر الخفيف بمحاذاة أسفل التلال الصخرية صوب الشرق قاصدين كهف حاجي آباد. وبعد ركوب شاق مسافة ميلين وصلنا إلى مدخل ممر ضيق بديع المنظر يمتد إلى الشمال الغربي حتى يصل من جهة اليمين إلى الكهف، وهو تجويف سامق داخل حجر كلسي يستخدمه الآن الرعاة كملجأ لهم. وعند دخولنا، وجدنا قطعة وست لوحات ملساء غير منتظمة قد قطعت. على الحائط في الجهة اليمنى أربع لوحات منها متساوية وترتفع ستة أقدام عن الأرض، وهناك لوحتان أكبر فوقها، أمَّا في الجهة اليسرى فتوجد القطعة الصغيرة غير المنتظمة. لقد نقشت لوحتان وتحتويان طِبقاً لما رواه السيد توماس على دليل يثبت أن بهلوي شابور الأول قد اعتنق المسيحية.

يُدعى هذا الكهف «تانقي شاه سارفان» هكذا أخبرني صديقي وقادني إلى أعلى الممر الضيق إلى كهف آخر أصغر حيث قبر الشيخ علي، الرجل المقدس. إنه قبر إسلامي مهدم وعليه نقوش فارسية

Twitter: @alqareah

وعلى درجة من الأهمية بسبب موقعه المثير وصعوبة الوصول إليه. كانت لدي رغبة لتفحص صف من الثقوب الصغيرة المستخدمة لتقديم النذور في التلة الصخرية الكائنة في الشمال الغربي، ولكن صديقي كان تواقاً للعودة وكانت تمطر بغزارة، وهكذا عدنا أدراجنا إلى قرية حاجي آباد حيث دعانا صديقي نصر الله خان ـ صاحبها ـ لتناول الشاي. وبعد مداولات قبلت الدعوة، ولكنه يستحق الشكر والثناء على نحو أكثر، فما قدمه لي نصر الله من شراب في كوب زجاجي يسمى «عرق»، ثم وضعه على فمه وسحبه حتى احتج عليه الرجل العجوز الذي كان قد قدمه له، وتواصل احتساء العرق دون توقف. وبعد أن دخنت لفافة تبغ، طلبت الإذن بالمغادرة، حيث وصلنا إلى «بوزيه شابرخانة» حوالى الساعة الرابعة وتناولت على الفور بندقيتي أبحث عن شيء لعشاء الليلة التالية. سأسجل هنا ما فعلته في جولتي القصيرة وكما دونته في مفكرتي: أولاً اختلست نظرة على ناكشي رجب القريبة من شابرخانة ثم تسلقت الصخور لمسافة قصيرة واتخذت طريقي خلال المطر. كانت قمة التلة الصخرية مكسوة بالضباب، وكان المطر يتساقط بغزارة وهدوء وكانت الرطوبة تغمر المكان بأسره، وحالما انطلقت بتثاقل إلى الأمام كنت وكأنني على بعد مائة ميل من الحياة الإنسانية. إن هذا السكون المطبق مخيف. هل توجد أشباح في المنطقة، وهل أرواح أولئك الناس القدماء الذين عاشوا في الماضي وتنقلوا مع داريوس وخيرخس تحوم في المكان؟ وقفت وأصغيت. ثم سمعت زقزقة لطير صغير وساد السكون والضباب. وفجأة ومن أمامنا دوى زئير النمر ثم خَيَّم السكون مرة أخرى. فكرت في الحادثة العرضية الأخيرة التي حدثت لي مع الخنزير ونظرت إلى مسدسي، ثم استدرت حولي قليلاً وانطلقت. وفي الوقت نفسه تعاملت قليلاً مع نغمات التلال. فقد حامت فوق رؤوسنا الغربان خلال الضباب بنعيبها الأجش الحاد، تستقر فوق الصخور على شكل خطوط سوداء مظللة من البقع السوداء مقابل الضباب الأبيض. ومن أعلى الصخور انساب صوت

Twitter: @alqareah

ناعم «هو ـ هو» لم يعكر صفو السكون ولكنه ذاب فيه، إنه صوت حيوان أو طير خافت الصوت كالحمامة، ولكنه ليس حمامة إذ انطلق من جهة اليمين صوت آخر كو ـ كو ـ كو ومرة أخرى كو ـ كو ـ كو. أين هو ذلك البهلوي. أين؟ حيث يدندن الحمام بلطف (ومَنْ يتمكن من الإجابة عن السؤال؟) ثم حل السكون مرة أخرى، حتى لاح عن بُعد صوت خافت. إنها نغمة أخذت ترتفع وترتفع حتى وصلت إلى قمة السلم الموسيقي فانقض فوق رؤوسنا سرب من الإوز، وانخفضت النغمة حتى غاصت في سكون أبكم وعاد الإوز إلى الظلمة.

حَلَّ الظلام سريعاً وعن بُعد عَكَّر ابن آوى صفاء السكون بعوائه المشؤوم ها ـ ها ـ ها آ آ آ أي أي أي، وكان علي أن أترك هذه السمفونية إلى الليل. وهكذا نزلت إلى جرف كبير منخفض من الأرض يمتد إلى التلال الواقعة على منتصف الطريق المؤدية إلى بيرسي بولس. هنا صادفت أثر إنسان: طريق معبدة يمكن رؤيتها تقتفي أثر الوادي الصغير، كُتل حجرية ضخمة وضعت للإحاطة بممر غامض من الصعب رؤيته. تعقبت ذلك صعوداً إلى الأعلى، كل ما حولي ضخم، صخور غير منتظمة وأشكال كبيرة تبرز أمامي من خلال الضباب في الأعلى مثل وجوه ممثلين تطل من على المسرح. إنِّي محاط بأشياء مفزعة وسط ظلام بارد. واصلت المسير خلال هذه الأرض المخيفة نحو عملاق غريب، رأسه كرأس العجل، ينظر إلى السماء من أعلى قمة الممر ويتحول إلى مجرد كتلة صخرية كلما اقتربت منه، حتى وجدت أن طريقي يمتد بعيداً أمامي لينزل بانحدار ثم يصعد ليدخل مستنقعاً فيما بعد. وهناك فقدته، وعندما عبرت جهة الغرب ونظرت حولي وجدته خلفي. لقد عبر تحت الأرض واتصل بآخر من جهة الغرب حيث تبعته من فوق التلة حتى جرف مفاجئ، الأمر الذي دعاني للتوقف. وهناك إلى الأسفل وفي الضوء الباهت تقع الآثار الضخمة لمدينة بيرسي بولس. لقد قادتني طريقي إليها دون قصد مني. حقاً إنها طريق مصممة تماماً. وقفت انظر إلى الأسفل متمتعاً بهذا المنظر الفاتن.

Twitter: @alqareah

وفجأة لمحت شيئاً يعدو بسرعة وعيناه الصغيرتان زائغتان من الخوف، إنه أرنب بري أحسَّ بوجودي فقفز قفزات من شدة فزعه وانطلق هائماً. لقد أخطأته الإطلاقة الأولى ولكن الثانية جعلته يستلقي على ظهره، مسكين هذا الحيوان الصغير. فقد كان هذا الطريق الذي سلكته شؤماً عليه ولكن لقد تم تهيئة عشاء الغد.

ما أسرع تقلب أنماط الفكر فالعالم يتغير في لحظة، فمنذ برهة وجيزة وأثناء عودتي خلال الظلام المخيم عاودني الشعور نفسه المخيف ولكن صوت سيف بدد هذا الشعور حالما اقتربت من البيت، حيث خرج متفقداً خشية أن أكون قد ضللت طريقي في الليل. وبالتأكيد كان هذا ممكناً، إذ كانت تساورني مخاوف من حلول الظلام فأسرعت الخطى ولكن النار المنبعثة من الكوخ كانت مطمئنة. وفي الخارج كان رفاقي الغارقين في الضباب يبحثون عن أشباح ليلية وسط الظلام الدامس ولكني في البيت الآن.

قفزت عن فراشي في الصباح لأجد الشمس مشرقة على العالم المتموج والمشرق. وانطلقنا قبل مدة عبر طريق أقصر هذه المرة إلى ناكشي رستم حيث وصل على الفور نصر الله خان وأتباعه. ثم بدأت عملية سحبنا إلى الأعلى إلى قبر الملك الأخميني. في البداية تسلق فارسي نشيط واجهة التلة الصخرية ثم تسلَّق آخر بالحبال، وبعد ذلك تم سحب صديقي نصر الله خان وجاء دوري الآن. كان الأمر مزعجاً ولكني ربطت الحبل حول صدري وعقدته بآخر وأعطيت الإشارة. وبضربات من ساقاي ضد الجدار كي أتجنب الخدوش، ارتفعت في الهواء حيث بدت الأرض قابعة تحت وسرعان ما صرت في منتصف المسافة بين قبر خيرخس والأرض الصلبة. إنه «قبر خيرخس» الذي كان جسمه في زمن ما ممدداً في هذا المكان الذي أصعده. وكما ذكرت سابقاً، إن القبر الوحيد الذي تكونت لدينا معرفة عنه هو قبر داريوس. الثاني من جهة الشرق. ولكن من المحتمل أن القبر المشيّد بعد ذلك هو الثالث من الشرق، وهو الذي تعلقت به. وبعد هذا هناك الرابع من الشرق وحيث لم يبق

Twitter: @alqareah

مكان في الغرب أضافوا القبر الوحيد المنعزل في زاوية في أقصى الشرق من التلة الصخرية. وفي هذه الحالة، بعد قبر داريوس، شُيِّد قبر خيرخس ثم أرتا خيرخس الذي يفترض بناؤه في قبر أقصى الغرب، وأخيراً هناك قبر داريوس الثاني والذي يفترض أن يقع قبره في أقصى الشرق من الصخرة.

لهذا سنفترض بأنّ تعلقي سيتوقف تحت المكان المدفون فيه خيرخس. وعندما اقتربت أكثر فأكثر من حافة المركز ونما السهل أكثر بُعداً وامتداداً، كان لديَّ الوقت لأستعيد بحيوية غريبة قصة قصيرة عن والد ووالدة داريوس. كان الوالدان قد عَبَّرا عن رغبتهما لزيارة القبر الفخم الذي هيأه ابنهما لنفسه، وبناءً على ذلك تم إعداد أربعين قسيساً لرفعهما إلى الأعلى، وكما أُرفع الآن تماماً، حتى يتمكنا من رؤية القبر. وحالما وصلا القمة ولسبب ما (أعتقد وفقاً للتقاليد أنّ أفعى خرجت فجأة من زاوية ما) أفلت القساوسة ولسوء الحظ الحبل من أيديهم فخرَّ الوالدان المشؤومان على الأرض وقتلا، وبعد ذلك وحسب ما ترويه القصة، لقي القساوسة مصير الوالدين نفسه. لكن مصيراً أفضل ينتظرني، ففي الحال أنبأ انضغاط أصابعي بين الحبل والصخر بأني على القمة وبكشوط مختلفة في يدي (والتي كانت جلية عندما قمت بكتابة هذا التقرير). زحفت فوق الحافة ووقفت أخيراً على الجزء المستعرض للصليب. وبمحاذاة الأعمدة تقدمت شيئاً فشيئاً، وبعد العبور من خلال البوابة الواطئة كنت داخل قبر الملك العظيم. في البداية كانت هناك رائحة كريهة لخفافيش وطيور، وظلام دامس ومنظر داكن لسرداب حجري. ومن ثم وبعد أن استقرَّ نظري، رأيت أمامي تحت سقف معقود ثلاثة قبور مقطوعة من الصخر الحيوي. إذ أنَّ كل شيء كان مقطوعاً من الصخر الحيوي. البهو الذي كنت أقف فيه والأعمدة في الخارج والصليب نفسه، كل ذلك كان منحوتاً بدقة وألم في واجهة التلة الصخرية. كان طول البهو اثنين وعشرين قدماً وعرضه ستة أقدام ويتفرع منه ثلاثة سراديب ويحتوي كل واحد منها على ثلاثة قبور،

Twitter: @alqareah

وكان ارتفاعها أربعة أقدام، وكانت في الأزمنة الغابرة تشتمل على أغطية حجرية كبيرة ترتفع إلى القمة حيث يمكن رؤية بقايا هذه الأغطية الآن. كان سقف البهو منبسطاً ما عدا نهايته البعيدة حيث كانت القبور المماثلة للدبابة مهدمة، وفي الداخل حيث تسلقت بوساطة شمعة، لم يكن هناك شيء يمكن مشاهدته عدا أكوام من القاذورات وحمامة ميتة وعظام طيور متنوعة، لقد كان مكاناً خانقاً كريه الرائحة ذلك المدفن الملكي. لذا زحفت خارج القبر وعدت إلى المدخل الواقع على بُعد ثلث المسافة من النهاية اليمنى للبهو، وإذا ما نظرت إلى الداخل ستجد دلائل بأنه كان في زمن مضى مغلفاً بحجر ضخم حيث توجد أخاديد في الأرض قرب الباب. وصوب اليمين واجهت جداراً خلف البهو لا أبواب ولا شبابيك فيه، لا أثر لأي عمل فيه عدا وجود فجوات صغيرة من المحتمل أنها كانت بداية للقيام ببعض النقوش فيه. وفي هذا الطرف النهائي للبهو كانت هناك حفرة صغيرة غريبة في الأرض، ربما لتصريف المياه ولكني لم أتمكن من رؤية القاع. لقد كان المكان كله قذراً كريهاً ومقززاً. ففي القبر المجاور لهذا عاش الخادم الذي عَيَّنه داريوس سبع سنوات بعد وفاة سيده. ومن المحتمل إذن أن هذا هو السبب الذي جعل القبر مسكناً مريحاً، ولكن الآن... آه، يبدو كئيباً مفزعاً يصلح مسكناً للأشباح والكائنات الخرافية الشريرة والخفافيش وكل ما يدخل الرعب والفزع إلى النفوس ويجعل الأجسام ترتجف خوفاً من رائحة الموت، ولهذا من الأفضل الخروج من هنا إلى أشعة الشمس مرة أخرى والتأرجح نحو الأرض.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

14

القصور التي فاخر بها جامشيد

في القصر الذي إلى السماء تشهق أعمدته،
والملوك فيه تلامس جباههم عتبته،
رأيت الحمامة المطوقة وحدها
تهدل كو ـ كو ـ كو (أين ـ أين ـ أين؟).

«هذا المقطع الشعري الرباعي لحافظ وجده السيد بينج منقوشاً مع مجموعة أخرى ضمن آثار بيرسي بولس وتُمَثِّل الحمامة هنا بهلوي القديم، أمَّا كو؟ كو؟ كو فتعني: أين ؟ أين ؟ أين؟ في الفارسية».

فيتزجيرالد

بطبيعة الحال لم يكن في الحقيقة جامشيد هو الذي تفاخر وشرب حتى الثمالة في قصور بيرسي بولس. هذا هو التفسير الفارسي للأمور لأن الفارسي يفضل دائماً الشعر على الدقة. إذ يستند على المفهوم البدائي للتاريخ وهو إمَّا «قديم» أو «حديث»، فهو يصنف الأشياء إلى قسمين: القديم والقديم جداً، ثم يصنفها بشكل عام حسب الفترة الزمنية لملوك الفرس العظام. فأي شيء قديم (كاديم) ينسب إلى زمن الشاه عباس وأي شيء قديم جداً

Twitter: @alqareah

(خيلي كاديم) ينسب إلى زمن جامشيد. لقد حكم الشاه عباس في نهاية القرن السادس عشر بعد الميلاد، أما جامشيد فقد حكم في الزمن الأسطوري قبل عام 600 ق. م وهكذا يتميَّز التصنيف.

تعد بيرسي بولس ضمن تصنيف «قديم جداً» ولذا فهي تعود إلى عهد جامشيد. وفي الحقيقة إنَّ اسمها يعني بالفارسية «تاختي جامشيد» أي «عرش جامشيد»، هذه الطريقة التاريخية البسيطة في التصنيف ولو أنها غير دقيقة إلا أنَّ لها مزاياها من وجهة نظر الشاعر والطفل. وحيث أنَّ العقل الفارسي يتكون من الاثنين معاً فإنَّه يتكيف على ما يبدو ليتلاءم مع الاستخدام الوطني. ليس الأمر كذلك في الواقع، فالغرب لديه تبريراته لقذف الحجارة على الشرق. فحتى وقت قريب كان موضوع تاريخ وأصل بيرسي بولس مثار تكهُّن وجدل في كل أنحاء العالم. ووفق ما أشار به اللورد كورزون فإنَّ آثار بيرسي بولس قد فُسِّرت على نحو متباين خلال القرنين الماضيين على أنها عمل لاميج وقبر نوح، استناداً إلى الانفجار البركاني وعبادة الأصنام اللذين يرجع تاريخهما المشوش وغير المحدد إلى ما يزيد عن ثلاثة آلاف سنة. ولكن الفرق بين الغرب والشرق هو أنَّ الشرق لا يعرف ولا يكترث بما تعنيه بيرسي بولس. وأنَّ الغرب لا يعرف بالتحديد ولكنه متلهف لأن يكتشف. فقد قام علماء آثار الواحد تلو الآخر وفي فترات متباينة بزيارة المكان، وتدريجياً أصبحت المعلومات الخاصة بتفاصيل المدينة أكثر صحة ودقة. وفجأة وبعد قرون من العمل الدؤوب والشاق جاء الحل لكل هذه الشكوك والصعوبات. فقد تَمَّ إكتشاف سر الأبجدية المسمارية ولم يعد هناك أدنى شك بالنسبة لأصل ومعنى ليس فقط لبيرسي بولس وحدها وإنما لكل الآثار العظيمة للماضي والتي نقش مؤسسوها أسماءهم وأعمالهم عليها. وهكذا ظهرت قصة بيرسي بولس من أحشاء التاريخ تنتظر فقط من يقرأها. لقد حُلَّ أخيراً وأُميط اللثام عن الموضوع. وهكذا وبضربة سريعة اختفت أسطورة لاميج ونوح والبراكين عن المسرح وتُرِك داريوس المؤسس بدون

Twitter: @alqareah

منازع لبيرسي بولس كما كان سايروس مؤسساً لباسارجادا. ومنذ ذلك الحين، وبوساطة النقوش على الأبواب والأعمدة تمكّن الإنسان من تسمية كل جزء من مجموعة القصور العظيمة الواقعة أسفل التلال. ومن رحم الغموض خرجت بيرسي بولس إلى قلب التاريخ، وإذا لم تكن حالياً مثيرة للإعجاب والغرابة كما كانت قبل نصف قرن فإنّها نمط فريد من الغرابة بذاتها.

في الوقت الراهن، يمتد الطريق المؤدي إلى بيرسي بولس على طول التلال إلى الجنوب من شابرخانة في بوزيه. في العصور القديمة ومثلما اكتشفت طريقي المنعزل بمفردي، كانت هناك طرق تمتد فوق التلال وتفضي إلى خلف المنصة الكبيرة، وكانت الطرق التي اتبعتها أثناء سيري من أعمال الناس القدماء حيث أدت إلى طريق قصير يصل إلى التلة الواقعة شمال بيرسي بولس، ومع أنها تنتهي اليوم عند قمة التلة على حافة صعود جرفي يبدو وكأنها ترشد الرجال إلى تلك التلة وحدها، إلا أنه من المحتمل وجود أعمال أنشأت منذ عدة قرون وقد تلاشت الآن ولكنها باقية أسفل السهل نفسه.

وهناك أدلة على جانب التلة المحيط ببيرسي بولس تثبت استخراج الحجارة من مقالعها ووجود كتل صخرية نصف مربعة والتي تدحض طريقه عمل البناء حيث يقتضي ذلك عمل سلسلة من الثقوب الصغيرة المربعة في الصخر، الأمر الذي سيضعفها بعد ذلك ويجعلها عرضة للهدم. ركبنا فيما وراء هذه التلال قاصدين بيرسي بولس عصر يوم صعودي إلى قبر خيرخس. كان النهار جلياً والشمس ساطعة وانتصبت الأعمدة نظيفة صافية بعد المطر.

ومن السهل أسفلنا، كان الوصول إلى منصة بيرسي بولس يتحقق من خلال درجات مضاعفة في سلم بديع المنظر. وكانت هذه الدرجات منخفضة وعريضة، ومع أنها كانت قد بدأت تتآكل وتتفتت بعد قرون من عدم الاستعمال والإصلاح إلا أنَّ الصعود عليها ممكن

Twitter: @alqareah

دون تعثر أو سقوط. والمنصة بحد ذاتها عبارة عن متوازي أضلاع على مساحة طولها ربع ميل وعرضها ربع ميل تقريباً، وقد بُنيت من قاعدة الجبل وتمثل من الأمام شكل جدار مبني بصلابة يبلغ ارتفاعه خمسين قدماً، ويتكون من كتل هائلة من الحجر. وعلى سطح المنصة الأملس تنتصب مجموعة من القصور بناها ملوك متعاقبون لتشكل معجزة مدينة بيرسي بولس. وبما أنها مبنية من الحجر الكلسي بهذا الجمال الفريد فسوف يعتقد المرء أنها من المرمر، وقد شُيِّدت هذه القصور على المنصة بمستويات مختلفة كما أن اندثاراتها كانت على مراحل متباينة. يقع السلم الذي صعدناه قرب الزاوية الشمالية الغربية للمنصة وهناك مجموعتان من الدرجات تنفصلان عند القاعدة وتتقابلان مرة أخرى عند القمة لتشكّلا شكلاً ماسياً. فالدرجات ليست ألواحاً مفردة وإنما يصل عددها إلى ستة عشر أو سبعة عشر قطعت كلها من كتلة صخرية واحدة. وفي القمة نقابل منظراً ساحراً حيث يواجهنا رواق خيرخس وهو بناء ضخم يتكون من بوابتين كبيرتين وعمودين سامقين تتوجهما رؤوس منقوشة رائعة. وتواجه إحدى البوابات مقدمة السلم وعلى طرفيه حيوانان يشبه رأساهما رأس العجل ويحدقان إلى الخارج عبر السهل قبل أن يحرمهما الزمن من رأسيهما (والكثير من جسميهما كذلك)، وفي الخلف تماماً يوجد عمودان، في الماضي كانت أربعة، ثم تُطِلُّ البوابة الأخرى في مواجهة الجبل وبزوجين من الحيوانات المتوحشة المجنَّحة هذه المرة.

هكذا كانت زياراتنا لهذه القصور.

يصف فراير القدير انطباعاته حول زيارته الأولى إلى بيرسي بولس بلغة تستدعي إعادتها هنا:

«تسلقنا سُلَّماً فسيحاً متصلاً بجزء من أعلى الطريق حيث يفضي من جهتين إلى عدة شقق، وفي القمة توجد مداخل ورؤوس أعمدة متآكلة بسبب تعاقب الأزمنة التي استهلكت كل شيء حتى الذين كانت

Twitter: @alqareah

أجسادهم من أبناء كورنث باليونان أو قواعد ورؤوس (دوري) الذي يمثل أقدم الطُرُز المعمارية الإغريقية، حيث تَحقُّق ذلك بفضل مقاومة عوامل التعرية الطبيعية رغم كونها من الأحجار القوية.

وبعد دخولنا القاعة الفسيحة قابلنا عند البوابة شكلان مخيفان يُمَثِّلان العظمة والقوة ويحملان سلاحيهما لمقاومة أي رعب يتسلل إلى الداخل، وتدل ملامحهما على كونهما أُسدين يبدوان وكأنهما يحاولان الدخول لولا الأجنحة على جسميهما وضخامة جسميهما.

في هذا المكان المهيب، بقي ثمانية عشر عموداً، من أربعين، طولها خمسون قدماً وقطرها نصف ذراع ويبعد الواحد عن الآخر ثمان خطوات، مع أن بوسعنا أن نعد اثنين وعشرين قاعدة والذي يتفق مع الترجمة الفارسية التي ما تزال تسميه «قصر الأربعين عموداً». ويمكن رؤيتها بوضوح من السهل والتي أصبحت في الوقت الحاضر مقراً لطغاة البحيرات والآثمين، كما تتخذها طيور اللقلق مسكناً إذ يوجد عش على كل عمود.

كان ذلك منذ قرنين من الزمن، أما اليوم فيوجد ثلاثة عشر عموداً ما تزال منتصبة في قاعة خيرخس، ففي المائتي سنة الماضية هُدمت وسحبت خمسة منها. وهذه القاعة التي تعد الأكبر والأكثر فخامة من تلك الموجودة على المنصة والتي حفظت لنا كل الآثار المثيرة والمعبرة عن جمالها السابق، يتم الوصول إليها من رواق مسقوف حيث نعبر منه بوساطة درجات ذات زوايا قائمة. وحيث أن المنصة الصغرى على مستوى أعلى من الرواق، فإن لها واجهة مغطاة كالدرجات نفسها بتماثيل بديعة الشكل والتصميم، وتشتمل على استعراضات للمحاربين أو لرجال يحملون قرابينهم أو لتابعين يمشون على طول الجدار الذي يرفع قصر خيرخس فوق بقية المنصة. وحيثما يقام سلم يشكل مع لوحة مثلثة أرضية واحدة، يمكن رؤية أسد يهاجم عجلاً وكلها منقوشة على نحو بهيج. وتنسب النقوش المسمارية القصر إلى أورمزد نفسه تحت اسم «خيرخس العظيم ملك الملوك وابن داريوس ملك الأخمينيين»، وتمثل مجمل

Twitter: @alqareah

الاستعراضات المنقوشة بكل وضوح الاحتفالات التي كانت تقام في مدينة بيرسي بولس أمام الملوك الأخمينيين أنفسهم عندما يُطلب من الشعوب المهزومة تقديم فروض الولاء والطاعة، وعند تقديم الرعايا المخلصين البيعة حيث تظهر وتُستجمع كل مظاهر الفخامة والقوة فيها. وكل ما بقي الآن ثلاثة عشر عموداً منتصبة فوق آثار خربة. ذات مرة في زمن مضى، كما يقول لورد كورزون، كان من المؤكد وجود اثنين وسبعين من هذه الأعمدة، وحتى القلة الباقية منها فإنها كافية لإثارة الإعجاب حول فكرة بنائها. إن امتداد الرؤوس المماثلة لرأس العجل حوالى اثنين وسبعين قدماً في الهواء وستة عشر قدماً كمحيط لقاعدتها والتي تتكون من أسطوانات ضخمة من الحجر الصلب يجعل منها آثاراً جديرة بماضي بلاد فارس.

أما الآن فإنَّ الساكن الوحيد لهذه القاعات الضخمة هو الحمام الذي سمعه الرحالة القديم بينج، ووجد أبياته الشعرية منقوشة على حجر صخري. ذات مرة وبينما كنت أتجول خلال القصور المهجورة انطلق طير صغير أزرق من رأس أحد الأعمدة الكبيرة، فقمت بسحب بندقيتي عن كتفي بسرعة ثم خطر ببالي المقطع الشعري الرباعي المنقوش بحيث استسلمت له أفكاري حول العشاء، ولذا راقبت الطير وهو يحلق سليماً فوق التلال. في الواقع لقد كان تدنيساً للمقدسات قتل كاهنة مثل هذا السر وهي على مذبحها الكنسي.

وخلف قاعة خيرخس جهة الجنوب، هناك قصر داريوس نفسه وهو عبارة عن مجموعة صغيرة صلدة من الأبواب والجدران تمتد شاهقة على مركز المنصة، ولكنها ليست مؤثرة أو فخمة مثل قاعة الملك التالي. وفيما بعد ذلك وإلى الجنوب أيضاً وُجِدَ قصر أرتا خيرخس الثابت، ينتصب حاداً فوق الزاوية الجنوبية الغربية لمتوازي أضلاع القصور. لقد أكّدت أسماء هذه القصور كلها بوساطة النقوش المسمارية التي وُجِدَت على جدران كل واحدة منها. إذ يوجد قصر خيرخس خلف قصر أرتا خيرخس الثالث وإلى الشمال الغربي منه هناك رواق لا اسم له. أما قصر خيرخس فهو

Twitter: @alqareah

بحالة سيئة يرثى لها، وهناك فقط عدد قليل من الأبواب المنعزلة وبعض الأعمدة التي تحكي قصة العظمة الزائلة، ومن الممكن أنه من أكبر المباني على المنصة. وخلف هذا القصر مباشرة إلى الشرق توجد بقايا نصف غائرة لصرح آخر لم يُعرف هل هو قصر أم قاعة.

خلال هذه المباني، كل النقوش متكررة ولافتة للنظر. فالأبواب منقوش عليها مناظر تقليدية: ملك يقتل الغرقين وهو حيوان خرافي نصفه بشر ونصفه أسد، وحملة الرماح أو ملك يسير بأبهة يتبعه خادمه الذي يحمل فوق رأسه شمسية غريبة من الطراز الياباني، وفيما يخص هذا الأخير أشار لوبروين: كانت المظلة الشمسية مستخدمة قديماً في بلاد فارس ويبدو أن خينو فون نسب اختراعها إلى عهد أرتا خيرخس شقيق سايروس الأصغر وليس شقيق سايروس العظيم، والذي في عهده قَلَّد الفرس عادات وزينة وأخلاق الميديين، دون اللجوء إلى أي حذر تجاه حرارة الشمس أو عنف الراح والفصول. ولكن ذلك تغير في عهد أرتا خيرخس الذي أدمن على النبيذ والانغماس في الملذات الجنسية مع كل أفراد حاشيته، وانغمس في كل مباهج الحياة والتخنث بحيث لم تعد ظلال الأشجار والبرودة المنعشة في الكهوف ملجأ كافياً من حرارة الشمس، ولذلك أصبحت المظلات الشمسية ضرورية ووسائل محلية لحملها واستعمالها.

كانت الجدران نفسها مغطاة بالنقوش وكل عمود أو إفريز عليه نقش مناسب. إذا ما أردنا أن نكون عادلين لتقدير هذه الغرائب التي تستحق المشاهدة فإنّ ذلك يتطلب أياماً وكتباً كي نسجل ميزاتها وملامحها على نحو كامل.

هناك بناية أخرى تستحق الوصف. وهي الأكثر ملاحظة من الجميع. هذه هي قاعة المائة عمود وبكل تأكيد هي أكبر الصروح على منصة بيرسي بولس. إذ تقع تحت الجبل على مستوى رواق خيرخس وكما يدل اسمها كانت تفاخر في الأصل بمائة عمود مقامة

Twitter: @alqareah

على شكل مربع ضخم. وهناك ثمانية أبواب منقوشة تسمح بالدخول إلى القاعة الكبيرة والتي هي، مع الأسف، تشكل منظراً حزيناً من الأنقاض. إذ تتكوم في كل مكان بقايا أعمدة طويلة وجدران هائلة منقوشة بشكل مترف على رؤوسها وتقبع منقلبة إلى الأسفل قرب قواعد التماثيل. وتغمر الأرض كتل من الأنقاض. ولكن الأبواب، على أية حال، ما تزال منتصبة غنية بنقوشها وتماثيلها أكثر من أي مكان آخر في بيرسي بولس. وعلى أحدها تجد صورة الملك وهو يغرس خنجره في بطن التنين بينما يحاول الحيوان الإمساك به من ذراعه ويخدش ركبتيه. وعلى باب آخر صورة للملك وهو جالس وبيده عصا ويحميه صفان من المحاربين وإلى جانبه خادم يجلس القرفصاء، ومرة أخرى يجلس بشكل رسمي يحيط به الحراس والأتباع يستقبل السفراء من البلاد الأجنبية وتنتصب أمامه مبخرتان. وتحته تقف خمسة صفوف من المقاتلين يحملون أسلحتهم وكل معدات الحرب يقدمون الولاء إلى نفوذ الملك وقوته الكبيرة، وفي الهواء فوقه يشع الرمز السحري للإله: صورة الأجنحة المنطلقة الغريبة ذات نصف جسم ورأس داكن مبجل.

من خلال هذه القصور والبوابات تجولت عصر ذلك اليوم المشمس محدِّقاً في صور الأيام الطويلة الماضية، أدوس الأرض التي داسها عمالقة التاريخ وألمس الجدران التي لامستها ثيابهم وأجسادهم. سرت بمحاذاة بوابات قصر خيرخس ذات الحيوانات المثيرة عبر ممر يشتمل على عدة أشكال وصعدت السلالم المنخفضة الصغيرة إلى ذلك المجد العظيم، صالة خيرخس الشاهقة التي تضم ثلاثة عشر عموداً تنتصب مثل أشباح الماضي البيضاء، ثم دلفت إلى قصر داريوس. أبوابه منقوشة بتماثيل وشبابيكه سميكة وتضم حروفاً مسمارية. وإلى أسفل السلالم المنقوشة عبرت إلى الأعلى ثم أخيراً إلى قصر خيرخس المهدم والخرب والأعمدة المنهارة، ولكنه ما يزال باهراً حتى في آثاره. اتخذت طريقي فوق الأنقاض وانحنيت تحت العوارض المرتكزة على أعمدة حتى أُصيب رأسي بالدوار

Twitter: @alqareah

لفخامة المنظر، وتصاعدت دقات قلبي حزناً على إهمال مثل هذا الجمال الخلاب.

كان من الصعب علي مغادرة المكان، مدركاً ضآلة الجزء الذي شاهدته وكم من المجلدات يمكن أن تُكتب وتُقرأ من تلك الصفحات الحجرية الرائعة عن الماضي. ولكن الشمس كانت تغرب وكان لدي وقت لزيارة القبر الشمالي الذي يحتوي على قبرين وسقف دائري، وألقيت نظرة أخيرة على المشهد الفخم للسلالم وهي ترتفع بجمال أخّاذ حتى تتوج في قمتها بمنظر تلك الحيوانات المعتمة التي تحرس المصطبات العجيبة. ثم ألقيت نظرة الوداع على بيرسي بولس:

رأيت الحمامة المطوقة وحدها
تهدل أين ـ أين ـ أين؟

استحوذت الخطوط على عقلي حين بدأت الأعمدة الطويلة تتضاءل وتتلاشى حتى غارت في سفح الجبل واختفت عن بصري.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

15

ضريح سايروس

«أيها الإنسان. مهما تكن ومنذ متى أتيت
(لأني أعرف أنك ستأتي)، أنا سايروس
مؤسس الإمبراطورية الفارسية. لذا لا
تضنِ علي بهذه الأرض الضئيلة التي
تغطي كياني».

من نقش كان بلوتارش نيوي حفره على قبر سايروس بأمر من الاسكندر عندما دنَّسه بوليماشوس

واستمرت مسيرتي من بيرسي بولس على أرض عادية، لأنَّ الطرق من هنا وحتى باسارجادا لم يطأها سايروس العظيم فحسب وإنما كانت مسرحاً لعمليات الاسكندر العسكرية.

كانت المسيرتان بين بيرسي بولس ومدينة سايروس شاقتين. يقول لوبروين عن هذا الجزء من رحلاته: «تقدمنا في رحلتنا بعد غروب الشمس وعند انبلاج ضوء النهار على الطريق المار بين الجبال الصخرية الشاهقة، إذ كانت المسالك ضيقة بحيث يصعب مرور الخيول والحيوانات المحمَّلة الأخرى منها، كانت متعرجة

Twitter: @alqareah

ولزجة في عدة أماكن بحيث كانت الحيوانات المسكينة غالباً ما تتعثر وتسقط الأحمال عن ظهورها، كما كانت على درجة من الإعياء مثل المسافرين الذين كانوا عاجزين عن التوافق مع خيولهم، إذ كانوا يترجلون حيناً ويركبون حيناً آخر. لقد ذكرني هذا المكان بالممرات الضيقة التي ذكر كونتيس كورتيوس بأنّ الاسكندر قد مَرَّ بها من هذا المكان».

ففي المسيرة الأولى، انطلقت الساعة السابعة صباحاً، وفي ضوء الشمس من أحد الأيام الفارسية، وقبل أن نتوجه إلى طريق على نحو جدي ولكي نعطي البغال المحمَّلة فرصة البداية الموفَّقة حتى نصل هدفنا في الوقت نفسه الذي تصل فيه، قمت بزيارة إلى مكان صغير يحتوي على آثار الماضي والذي لم أصفه بالتفصيل. كان هذا المكان هو ناكشي رجب. وهو عبارة عن فتحة صغيرة محفورة داخل الصخور بالقرب من شابرخانة. أطَلَّت الشمس على التلال مضيئة صورتين من الصور الثلاث وجعلت الثالثة تبرز متوهجة صافية. وتُمَثِّل اللوحة الأولى على الجانب الجنوبي الغربي المشهد الذي سبق أن شاهدناه في ناكشي رستم، تقليد أردشير من قبل أورمزد. وتُبَيِّنُ الثانية الإله والملك ولكنهما مترجلان هذه المرة. أمَّا الثالثة (التي تبدو ساطعة في ضوء الشمس) فتمثل شاهبور وبلاطه حيث يظهر الملك راكباً في المقدمة وخلفه صف من خدمه يلبسون القلبق على رؤوسهم وشعورهم متجعدة وأيديهم تمسك بمقابض سيوفهم. ويظهر على صدر حصان شاهبور نقشان واحد بالبهلوية والآخر باليونانية وكلاهما بصورة جيدة، وقد قمت بتصويرهما واستنساخهما وأسجل هنا ترجمة لهما:

«هذه صورة عابد أورمزد ـ الإله شاهبور ملك الملوك الآري واللاآري ـ من فصيلة الآلهة وابن عابد أورمزد ـ الإله أردشير ـ ملك الملوك الآري من جنس الآلهة المنحدر من سلالة الإله بابك».

وبينما كنت مستغرقاً في استنساخ هذه النقوش هبطت علي فجأة من سفح التلة ثلاث فتيات فارسيات لم يكنَّ يلبسن الحجاب وأبدينَ اهتماماً صادقاً بما كنت أفعل.

Twitter: @alqareah

لقد كنَّ من إحدى القبائل القاطنة قرب التلة الصخرية في خيام ليست بعيدة عنا، وفي ظل فقدان الخجل الفارسي اقتربن مني ودخلن في نقاش معي. سألتْ إحداهن عن آلة التصوير والأخرى سألتني عَمَّا كنت أفعل. لم يكن «سيف» الأمين قريباً مني لذا كان علي أن أُشبع رغبتهن بمعرفتي البدائية باللغة الفارسية. ذهبت اثنتان منهن لإحضار أطفالهن من المعسكر حتى أتمتع برؤيتهم وقد فعلت ذلك بكل مودة وروح ديمقراطية. كانت الفتاة الثالثة غير متزوجة، ومن أجل تلطيف الجو سألتني إن كنت متزوجاً أم لا. قلت لها بأني لست متزوجاً، الأمر الذي جعلها تبتسم ابتسامة حلوة ثم سألتني إن كنت أرغب الزواج منها. كان هذا العرض مفاجأة لي. بحيث لم أتمكن من خلال معرفتي الضئيلة بالفارسية أن أرد عليه، ولذا سارعت إلى تقديم ساعتي كي أدخل البهجة إلى كل من النساء والأطفال على حد سواء. فكرت بأنّ النساء كن أكثر إعجاباً بها من أطفالهن بحيث لم يكن لديهن رغبة في إعادتها لي، وبعد وداع حميم واستفسار منهن فيما إذا كنت سأعود ثانية أم لا، ركبت حصاني وانطلقت صوب أصفهان.

أثناء سيرنا من بوزيه قمنا بانعطاف بسيط حتى نتفقد آثار «إصطخر» حيث وجدنا هناك «تاختي تاوس» آخر (من الجدير بالذكر أن هذا الاسم نفسه يمثل العرش الحجري إلى الغرب من شابرخانة) وحيث وجدنا بالإضافة إليه قواعد الأعمدة وعموداً متكاملاً ما يزال قائماً ويتضمن رأساً كرأس العجل. وهناك أيضاً توجد كتل لجدار مهدم وتنتشر حول الأرض قطع متناثرة من الآنية الفخارية. ويبدو أن الحفريات ستكشف دلائل من باطن الأرض عن وجود مدينة قديمة، مع أنّ المكان مهجور ومعزول في الوقت الراهن. وإلى الجنوب وعلى الطريق الذي تسلكه البغال، توجد بقايا بوابة كبيرة وهي آخر آثار الأخمينيين في المنطقة عدا عن بعض الكوى غير النافذة في الصخرة على مسافة قصيرة. وهكذا وبعد عبورنا المداخل، غادرنا مدينة بيرسي بولس. حينئذ انتابنا شعور

Twitter: @alqareah

بأننا ننتقل من الماضي إلى الحاضر عند مرورنا في المدخل الكائن تحت القنطرة، إنه وهج الماضي يشع أمامنا بكل زهوه ثم عدنا إلى تأمل بلد من الصحارى والقذارة والفساد السياسي والاقتصادي.

ومن أجل أن نقضي على رتابة مسيرنا، قمت في بعض الأحيان ببذل جهود لتدريب الحصان الصغير الذي كنت قد اشتريته بعد مساومة مرهقة من شيراز. لقد كلفني عشر جنيهات إسترلينية ومع إنني أُرهقت بالمساومة حوله ولم أتمكن من فحصه والتأكد منه إلا أنه اثبت بأنه حيوان جدير بالتقدير. تذكرت اليوم بأنني أطلقت النار بمسدسي على الغربان من على ظهره حيث حاول في البداية الجنوح بي ولكنه عاد فاستسلم لي طائعاً.

إنَّ المسيرة الطويلة هي عبارة عن خليط من التأمل والعمل. فالساعات الطويلة من السفر تؤدي إلى الاستغراق في أحلام أو أفكار حالمة عميقة وطويلة بحيث ينجم عنها صدمة للعقل المستغرق فيها عند حدوث أي طارئ خارجي. فالأفكار السائدة حول ما خلفه الأخمينيون في المنطقة قد حُطمت وقُذفت من الأعالي نحو الوجود العدواني لفارسي متطفل أو لحيوان أو لطير غامض.

وللحديث عن المكان الذي أقف عليه فوق حصاني، كان مالكولم قد قَدَّم وصفاً شائقاً لهذا الهبوط المفاجئ من السهول العالية للفلسفة المجردة إلى مستوى العمل المادي. يقول «في اليوم الذي غادرنا فيه الآثار، عَبَّر أغا مير حيث كنا نركب معاً، عن دهشته واستغرابه من الرجال الذين يكرسون وقتهم لمثل هذه الملاحقات أو الأبحاث الآثارية. ما الفائدة من سفر الرجال مسافات بعيدة وتعرضهم لمخاطر جمة من أجل النظر على بيوت خربة وأماكن مهدمة بينما بإمكانهم المكوث في أوطانهم مرتاحين؟ قال مير. وقد أجبته ببعض الاحتقار لحُبِّه للهدوء والراحة: إذا لم تتمكن ظروف الرجل أو أحوال بلده من تهيئة عمل له فيجب أن يجده بنفسه أو ينام ولا يقوم بأي شيء فيكون تافهاً. ثم واصلت: إنّ الآثار القديمة التي ألمحت إليها إذا ما وجُهت إليها الاهتمامات والمواهب ستكشف عن

Twitter: @alqareah

أسماء عظيمة ونصب تذكارية خالدة للأيام السابقة، وستساهم في ترقية ودفع قيمة العواطف وأذواق الأمة بأسرها. وعلاوة على ذلك، فرغم أنني لست دارساً للآثار القديمة، إلا إنني مغرم بدراسة ما يتجاوز حدود الإنسان نفسه حيث أحب أولئك الذين يرتقون بأفكارهم ومشاعرهم بحيث يجعلونني أعيش بغبطة وسرور مع الماضي، كما أتطلع بسعادة وتفاؤل نحو المستقبل. لقد أخبرنا البعض أن مثل هذه الأفكار هي مجرد أوهام ويسعى الفيلسوف العملي، واستناداً إلى ضحالتها وعدم جدواها إلى إزالتها من عقول الرجال من أجل تمهيد الطريق أمام وسائله وطرائقه الخاصة، ولكنه سرعان ما يجادلني حول وجودي ويأخذ مني دليلاً بما تحمله هذه المشاعر لمنشئي وهدفي».

«هناك انطلق حمار بري» قال محمد بيك، المرافق، الذي كان يركب خلفنا. وانطلق سريعاً وراءه تاركاً حديثاً عن الماضي غير مكتمل وكذلك المستقبل الذي سيبدأ.

كانت دار استراحتنا في «سيفاند» وهي قرية صغيرة أخرى تقبع تحت التلال العالية حيث بدأنا منذ طلوع الفجر مسيرنا فوق أرض مغطاة بالصقيع والثلوج صوب باسارجادا، وسرعان ما دخلنا الممر الطويل المعروف باسم «تايخي توركان»، والذي تحدث عنه لوبروين بحماس. تذكرت بأنني فقدت جراب المؤونة هنا. يشعر الإنسان بضيق خاص حين يفقد حتى الأشياء التافهة، وخاصة إذا لم يكن هناك أمل في استعادتها، كما يشعر بفرحة غامرة لا توصف إذا تمكّن من العثور على مثل هذه الأشياء عديمة القيمة التي فقدنا الأمل في العثور عليها. ما يزال العالم هو المرأة رمز الحكاية حينما يكون هناك قطعة فضية مفقودة ومثار تساؤل. وحتى الآن أرى جرابي الأسمر الصغير وسط البرية الفارسية والخراطيش مخضلة بالماء، والخارطة قد أتلفت والكرّاس حول الاقتصاد السياسي الذي جلبته معي لأبعد عن نفسي كآبة الوقت قد فقد ميزته وغارت مادته في الأرض الصحراوية. إذ ربما، على أية حال، ينتظره مصير أفضل

Twitter: @alqareah

ويمكن للخراطيش بعد طول وقت أن تصطاد بطة تقدم عشاءً شهياً لأحد الفرس، وتكون الخارطة لُغزاً يطول النقاش حوله. أما كرّاس الاقتصاد السياسي فلا يفهمه أحد فيصبح عقيدة لديانة إحدى القبائل.

وفي وسط هذا المشهد الرائع والمثير عثرت على ضالتي. فالممر هنا محدد خلال صخور حيوية وينساب النهر إلى الأسفل وتشهق فوقنا تلال ضخمة، وفوق الممر من الجهة المقابلة يطل جبل شاهق ومعتم. لا غرابة إذن بأن القرويين في هذه الأيام يعتقدون بوجود الحيوانات الخرافية في هذا المكان، ولديهم قصص عن حيوانات غريبة تنهش المسافر وتستولي على بضاعته وتأخذها إلى مغارات عميقة داخل الصخور.

سرنا بضع ياردات وفجأة ظهرت أمامنا فتحة لتطل منها على سهل «موغاب» المحاذي من الجهة الشمالية لجبال ثلجية، وهناك وفي ضوء الشمس الآيلة للغروب برزت نقطة بيضاء من ضريح سايروس والآثار الداكنة لمدينة باسارجادا.

لقد وصف اللورد كورزون هذه الآثار بالتفصيل وعلى نحو دقيق (ما عدا حالة واحدة، سأتطرق لها فيما بعد) بحيث أن أية ملاحظة عابرة ستكون عديمة الفائدة.

إنَّ الشيء الوحيد والهام الباقي من مدينة سايروس القديمة هو ضريح الملك نفسه. وينهض معزولاً وفريداً في الصحراء مذبحٌ من سبع مصاطب حجرية حيث يقام الضريح على قمّته، وهو بناء مربع الشكل وسقف حجري دائري. وتنمو شجرة صغيرة مثل ريشة خضراء من بين شقوق الحجر بينما تجثم أخرى تحت ظل الحائط الجنوبي. وتوجد حوله بقايا سياج لم يكن الضريح في مركزه وإنما كان في الجهة الشمالية منه. ليس هناك الآن أي أثر لنقش مع أنه يمكن الاشتباه أو التكهن بأنه عندما زار الاسكندر الضريح قد اكتشف واحداً وترك آخر. ومن المحتمل أن يكون حيث يوجد

Twitter: @alqareah

المحراب الآن، ولكني لم أجد أثراً لثقوب «ستونر» فوق الباب حيث يمكن تثبيت اللوحات المنقوشة. لقد تهدَّم الكثير من الحجر، على أية حال، بحيث لا يمكن التكهن بوجودها فإمَّا أن تكون قد أُزيلت أو طمسها محراب المصلى. ولا يوجد أثاث في الضريح ما عدا مصابيح صغيرة (شيراغا) في محراب آخر، وهناك في النهاية البعيدة خيط معلَّق ومثبت عليه قرابين صغيرة لا حصر لها، وبشكل رئيسي ابنه الصغير. وفي زاوية قريبة يوجد «القرآن» وإلى يمينه محراب للصلاة حُفر من الحجر. وفي الخارج حول السياج هناك بقايا أعمدة وثلاث بوابات لا يقابل أي منها باب الضريح. ولكن البوابة في جهة الشمال كانت في الماضي تُفضي إلى صف من الأعمدة ما تزال بقاياها ظاهرة. وقريباً من جهة الشمال تقع قرية صغيرة بُنيت بين الآثار القديمة.

هذا إذن هو ضريح ملك الملوك في الوقت الراهن. ولكن علينا ألا نعتقد بأن قصته يعرفها سكان البلاد. في الحقيقة لا، فذلك يُمَثِّل مجهوداً كبيراً للفارسي في الوقت الحالي. فهو دائماً يُفَضِّل الأسطورة على التاريخ ويفضل الخيال عنهما، لذلك فإن ضريح سايروس يُعرف اليوم في بلده تحت اسم «تاختي مادر سليمان» أي (ضريح أمْ سليمان).

وعلى العموم، ما هو التاريخ بالنسبة للفارسي اليوم؟ ماذا يمكن أن يكون في الواقع، هل يدركه عدا عن كونه معيباً؟ إنه ليس تشريفاً لأية أمة أن يكون لها ماضٍ مجيد ولا يكون لها حاضر جدير بالاحترام. فإذا كان على الفارسي أن يخرج من الجهل إلى المعرفة ومن اللامبالاة إلى الاهتمام بوثائقه الوطنية فالمؤكد أنّ ذلك سيؤدي إلى تطوير وتقدّم بلده مرة أخرى ويرفعها إلى موقع متميز ومزدهر. ففي الوقت الراهن، لا يعرف الناس ولا يبالون بتاريخهم وكل اهتمامهم يتمحور ليس حول وثائق الماضي ولكن حول خرافات الحاضر. ولذا فإنَّ «أم سليمان» لا تنسب إلى ضريح سايروس وأنّ فكرة الألوهية المهيمنة عليهم تعزى إلى قوة خارقة

Twitter: @alqareah

للطبيعة. ويزور الضريح كل الفتيات والسيدات الفارسيات اللائي فشلن في حبهن ويرغبن في مواصلة حياتهن السعيدة. هؤلاء السيدات الخياليات والمصابات بمرض الحب يقدمن حيلة صغيرة إلى الإله إذا ما حقق رغباتهن، وهؤلاء هن اللائى عَلَّقن القرابين على الحبل داخل الضريح. فالأهداف تتحقق قياساً على نوعية الهدايا أو عقيدة مقدم النذر وإلا فإنها لا تساوي شيئاً ولا تحقق هدفاً.

لقد كانت كلمات الملك البسيطة والمتباهية المنقوشة على الضريح ضرورية ومفيدة: «أنا سايروس ملك الملوك أرقد هنا». كم كانت ضرورية تلك النقوش التي نقشها الاسكندر فيما بعد والمذكورة في بداية هذا الفصل.

ومع ذلك هناك مفارقة احتقار رغبات الرجال العظام، حيث تلاشت النقوش وحُرِم الضريح من مالكه الشرعي وانحدر ليصبح مجرد مزار لتقديم النذور من أناس جهلة. وعندما نظرت إلى أكوام الخرق البالية وأواني الصفيح والأشياء التافهة الأخرى فكرت باستغراب فيما إذا كان سايروس يعرف ذلك، أو يهتم به.

ومن الضريح تمتد الطريق من الشمال الغربي لقصر سايروس. وكل ما بقي منه عمود طويل مهدم وبعض البناء. وهناك عمود آخر مدفون في الجهة الشمالية، وثمة دلائل تشير إلى وجود مجموعة من الأبنية هنا حيث ترتفع الأرض كهضبة صغيرة مما يجعلها تقاوم التقنيات مثل باقي الهضاب الأخرى حيث تقع كثير من الآثار في أجوافها. وفي الشرق تبرز كتلة صخرية معزولة حيث نقش عليها شكل سايروس ذو الأجنحة الأربعة، والذي كان يعلوه نقش يُعرّف الشكل ولكنه زال الآن. والى الشمال من القصر يوجد عمود مربع وحيد وعليه نقش مسماري يدل على أنه من صنع سايروس، وفي الشمال من هذا العمود مرة أخرى، يقف حائط واحد لمبنى عُرِف في الماضي بكونه مماثلاً للبناء الأسطوري الكائن أمام القبور في ناكشي رستم، وفي هذه الحالة فإنَّ الارتفاع الحقيقي يتجاوز أربعين قدماً.

Twitter: @alqareah

تسلقت البوابة التي ما تزال باقية ولكني لم أعثر على أية كوى كتلك الموجودة في البناية القريبة من بيرسي بولس. ولا أية دلائل على وجود الأخاديد المذكورة سابقاً مع أنَّ زاوية الأخدود قرب الباب تبلغ خمساً وأربعين درجة ويرتبط بتصميم حجر الباب والذي يمكن رؤيته يطل بوضوح.

يمكنني أن أذكر إلى أنه بالإضافة إلى اختلافات أخرى ملموسة بين البناءين فإنّ عتبة الدار في البناء الكائن في باسارجادا تقع على مستوى أرض البناء بينما هي على مستوى منخفض أو قد زال نهائياً في بناء ناكشي رستم.

أما اليوم، فثمة حائط وحيد منعزل ما يزال قائماً. وقد دُهشت من ضخامة الكتل الصخرية التي بنيت منها هذه البناية في باسارجادا، والتي تلاشت تماماً مخلفة كمية ضئيلة من الأنقاض يمكن رؤيتها على السهل. هذه الحقيقة هي التي دفعتني للشك بأنَّ الكتل الصلبة للبناء التي تُكوِّن قاعدة المعبد المماثل في ناكشي رستم يمكن أن تخفي غرفة مجهولة. وبالتأكيد إنَّ لغز هاتين البنايتين أمرٌ مثير وفاتن وإنَّ أي تنقيب أو تدقيق لحله سيكون على درجة كبيرة من الإثارة والأهمية.

في الشمال من الآثار التي تَمَّ وصفها توجد مصطبة كبيرة تُسَمَّى اليوم «تاختي سليمان» مدفونة جزئياً في جانب التلة، ولكنها وبرغم عوامل النهب والتخريب من الزمن والإنسان فإنَّها ما تزال عملاً فاخراً. وهنا مرة أخرى ستكشف التنقيبات أموراً أخرى كثيرة.

لم يبق إلا دليل واحد ملحوظ على الأعمال اليدوية القديمة والذي لم يتطرق إليه أحد من قبل. حتى اللورد كورزون لم يذكره في مذكراته الشاملة عن مدينة باسارجادا.

وعلى مسافة ميل من جهة الغرب وخلف تلة صغيرة توجد بنايتان غريبتان قريبتان من أخدود يبدو كأنه اصطناعي. وينساب

Twitter: @alqareah

بينه وبين التلة جدول صغير، وعلى الجانب الآخر منه يقع ما يشبه مذبحين يمكن الوصول إلى أحدهما بوساطة درجات سلم قطعت من حجر ضخم آخر.

وعند تفحصها بعناية فائقة، بدت هذه الآثار الهائلة مجوفة. يتكون الواحد منها من حجر واحد وقد حُفِر داخله وتُرك كما يبدو بدون مدخل حيث قُلِب جانبه إلى الأسفل بعد أن أُجريت التنقيبات عليه. والآن، على أية حال، لقد كسرت قطعة من جانب كل واحد منها الأمر الذي أدى إلى اكتشاف التجويف الداخلي. ومن البقايا المهدمة من الجدران يظهر بأنها كانت تشكل سياجاً كبيراً.

وبعد الاستفسار اكتشفت بأن المكان كان يدعى «تاختي جور» وجور هو اسم سيده.

ومن هذه الأشياء الغريبة وما يحيط بها قمت بعملية فحص دقيقة تبينت منها بأن السهل تغمره بقايا لا يرقى إليها الشك من البنايات القديمة، ومن المؤكد أن هذا المكان كان قد احتوى على قصر أو حتى مدينة في الماضي.

أما بخصوص العمودين: وبدون الادعاء بأية قدرة أو معرفة أثرية، فإني أجرؤ على القول بأنهما كانا مذبحين إمَّا لعبادة النار أو لتقديم الأضاحي.

كان محل إقامتي في الليل بيتاً طينياً صغيراً خارج قرية «ديهي ناو» فقد خرج منه الحصان كي أحصل على مكانه، وكان المنفذ الوحيد للدخان هي الشقوق في الباب فكانت ليلة كئيبة حيث كان الهواء البارد الداخل أكثر من الدخان الخارج. وعلى كل حال، بدأت أميل إلى تقدير وجود أربعة جدران مهما كان نوعها، وأزدادُ تقديراً لوجود سقف حتى وإنْ كان من الطين والقش الأمر الذي يدعو إلى الشكر والامتنان.

Twitter: @alqareah

16

عنصر الجبل

«الرجل السعيد يفقد كل شيء».

جون هيوود

قابلنا هذا اليوم أحد رجال البريد الفارسيين وسلمته رسالة إلى مضيفي السابق في شيراز، والتي كما علمت بعد ذلك قد وصلت دون إطالة أو تأخير حيث سعدت جداً لذلك، إذ لو كَلَّفت «سيف» بإرسالها فإنه سيهتم بها إلى حد كبير وسأكون مديناً له لهذا الاعتبار.

لا فائدة من كتابة الرسائل أثناء الرحلة في بلاد فارس حيث لا يوجد مكان توضع فيه الرسائل. ومع ذلك قد تتوافر فرصة إرسالها بوساطة أحد الذين يحملون الرسائل بين المدن الرئيسية بين الحين والآخر، وإذا لم يكن بوسعك الانتظار لمثل ساعي البريد المستطرق هذا فإنك في هذه الحالة تثق بإرسالها عن طريق مراسلك الخاص. ولكن عليك ألا تثق إطلاقاً بأنَّ رسالتك في بلاد فارس وفي ظل أي الظروف ستصل إلى الجهة المرسلة إليها خلال فترة محددة، ولا تعتقد أبداً بأنك ستستلم رسالة من أي مكان. فمن المحتمل وفي حالات نادرة جداً أن تستلم واحدة. ولكن آخرين انتهزوا الفرصة قبلك وفتحوا غلافها وقرؤوا ما فيها. على أية حال هذه تُعَدُّ

Twitter: @alqareah

تفاصيل عندما تكون الحضارة مجرد ذكرى وإنكلترا مجرد طيف غامض.

كان الطريق من «ديهي ناو» إلى الخان الذي نزلنا فيه في الليل من أشق وأرعب الطرق التي صادفتها في بلاد فارس، حيث يقع بين تموجات داكنة ومعتمة تقطع الرؤيا وتبدو لا متناهية في التفافاتها الرتيبة والمملة. وقد ذكر اللورد كورزون «الجدول المرقط مثل سمك السلمون الذي يجري وسط السهل» ولكني أخطأتُ الطريق إليه لذا تُركت وحيداً مع أفكاري والمنظر البائس.

تمر علينا لحظات، كما أعتقد، تنتابنا فيها وتستحوذ على عقولنا قناعة بتفاهة وعدم جدوى وجودنا. إذ تحل علينا أحياناً في الساعات الأولى من النهار وقبل أن يبدأ النشاط الصاخب وحين يكون البناء العقلي والجسمي أقل من المعدل، كما تنتابنا مرة أخرى في الأماكن القذرة وعديمة الحيوية والنشاط، كما تمر علينا في أحيان أخرى مقرونة بإرهاق شديد في نهاية يوم شاق وعديم النفع. ويبدو أنها تحل على العقل دائماً بحيوية دافقة وعجيبة وإحساس مفاجئ بأنَّ كل تحركاتنا لا جدوى منها وأننا وبدون شك نقترب أكثر فأكثر من الهلاك الحتمي. إنها مثل كابوس مفزع ففي هذه الوديان المرعبة تحت السماء الغائمة تذكرت ذلك الشعور الذي انتابني بنفس الإحساس الغريب بعدم الأُلفة مع أنني أدركت على أنه عدو قديم. ثمة وسيلة واحدة للتخلص منه وهي العمل. والعمل هنا جسمياً وعقلياً لا يهم ولكن المهم هو اللهو الفاعل وكلما كان العمل أعنف كلما كان أفضل. ثم بعد ذلك، تناضل الروح حتى المظهر السطحي وتتنفس مرة أخرى.

ففي هذه الحالة، فعلت الشيء الوحيد الممكن لتخفيف مشقة المشي في هذا الطريق المنعزل خلال مشهد لا نهاية له من الظلمة والكآبة، حيث نزلت وأطعمتُ حصاني وتناولت قطعة من الحلوى. لم يكن لهواً كثيراً ولكنه كان كافياً لتجديد العقل والجسم أثناء الحركة

Twitter: @alqareah

على الطريق. وأخيراً حدث توقف في التتابع المروِّع للانحناءات الأرضية، وسرعان ما هبطت إلى سهل فسيح محزم بتلال من الثلج. وفي الأسفل كان خان «زيغوم» حيث استرحت بعد برهة وجيزة في غرفة جرداء مصبوغة باللون الأبيض.

ومن أعلى الجبل والمساكن الصيفية نزلت إلى هذا الخان قبيلة بكاملها من العنصر الجبلي المسمى (إلياتس). ففي كل ركن أو زاوية يوجد مواطنون ينتمون إليه وممتلكاتهم وحاجياتهم تملأ كل فضاء خال من السكان، هكذا كان المشهد أمامي، إذ عندما جلست في غرفتي الطينية ونظرت إليه كنت مدفوعاً لتدوين انطباعاتي.

«إنه البلاء العظيم».

«أطفال، عجول، غنم، كلاب، صغار الماعز، الكل في وفرة وإسراف والجميع في ريعان الشباب، لذلك السبب كان الصخب أكثر والضوضاء أعم الكل يتدخل ويشارك بحدة ودون هدف مع الآخرين، وأطفال يجرون الكلاب من رقابها وأغنام تضايق الماعز وعجول تدوس على كليهما وكل شيء ينجم عنه قرقعة وصخب واهتياج. كانت الشمس تطل على جدار الخان وتُظهر خليطاً من الألوان شبيهاً باختلاط الأصوات وكان اللون الأسود سائداً: عباءات الرجال، خيام الآليات وأغطية الأواني وعيون الفتيات، ثم هناك اللون الأحمر المتمثِّل في شالات النساء ومناديل الأطفال، ثم بعد ذلك، اللون الآخر بكافة أشكاله والداكن والأصفر الخاص بالإسطبل والبيت والمزرعة وهذا هو مكاني الثابت».

لقد أحببت الـ«إلياتس» أكثر من أية طائفة فارسية أخرى. إنهم عنصر جبلي جاف وغليظ ويتميزون بالاستقلال التام الذي يتمتع به أي رجل حر. فالنساء سافرات وجريئات وفي بعض الأحيان يتمتعن بشراسة الرجال وعدم اكتراث ينم عن غطرسة ووقاحة تحمل روح التحدي، ويبدو هذا الأمر ساراً في بلد يتسم بالخضوع المذل والرذيلة المقنَّعة. فالأطفال شياطين صغار. وكل الأرواح في

Twitter: @alqareah

الشارع تتميز بالوحشية وتمثل عكس أسمائها فهي جسورة وحيوية ولا تعرف الوجل.

لقد كان هؤلاء الأطفال يلعبون لعبة عندما نظرت إليهم. في وسط باحة الخان تكوَّمت أكداس من المعاطف السوداء من مختلف الأصناف والتي لا يخرج الفرس بدونها، وقد انسل منها خيط قصير أمسكه أحد الصبية وأخذ يدور حول المعاطف لمسافة محدودة. وهناك ثلاثة صبية من الـ«إلياتس» يحمل كل واحد منهم سلاحاً يشبه إلى حد كبير حزمة صلبة من القماش مربوطة من نهايتها بحبل طوله قدمان تقريباً، وأخذوا يطوّحون به حول رؤوسهم مثل المقلاع وعلى نحو متواصل، حتى وانتهم الفرصة فقام أحدهم بقذفه بقوة ليضرب المعاطف ضربة عنيفة بسوطه متجنباً محاولات الشخص المقيد للمسه أو الاقتراب منه. استمرت هذه المحاولة لمدة ربع ساعة وبعد أن توقفت كانت الكتلة الجامدة في الوسط قد ارتفعت على نحو إيقاعي مما آثار دهشتي. ماذا سيخرج؟ هل هناك بغل ممدد في الداخل؟ لا، فقد خرج من بين التجاويف الكائنة بين المعاطف غلام رث الثياب ومتسخ بالتراب تنهد وتنفس الصعداء بعد استنشق الهواء النقي، ثم أخذ دوره في الخارج ليزحف إلى داخل الكومة شخص آخر من رفاقه.

قمت بالتقاط صورة للمجموعة بعد مشقة لجمع نماذج من هؤلاء في مكان واحد، حيث امتنعت السيدات في بداية الأمر ولكنهن وافقن في النهاية وحضرن والخجل يعلو وجوههن، مع أن واحدة منهن كانت تشبه الأوروبيات وكانت خجولة بحيث التقطت لها صورة منفردة دون علمها بسبب عنادها وخجلها المفرط.

وعلى الفور قلت «بس شودا أست» أي لقد انتهى. فاندفعوا جميعاً طالبين رؤية الصورة وقد أصيبوا بالإحباط عندما شرحت لهم. كان الرجال حريصين على خروجي إلى الصيد في التلال غداً ولكن لم يكن بوسعي أن أستثني يوماً واحداً. على كل حال، أظهرت بندقيتي لهم فاحضروا واحدة من بنادقهم لأبدي رأيي فيها، ولكنهم

Twitter: @alqareah

أُعجبوا كثيراً ببندقيتي وخاصة عندما أطلقت فأصابت حجراً على قمة الحائط. ثم عرض علي أحد الرجال عرضاً رياضياً. سيقوم بربط دجاجة فإذا استطعت أن أصيبها عن بعد مائة ياردة سآخذها وإلا سأدفع عشر شاهيسات «حوالى خمس وعشرين سنتاً» ومع أن دجاج المزارع لا يراهن عليه لكني اعتبرت الأمر نوعاً من المهارة، إضافة إلى توفير العشاء. وهكذا قبلت الرهان وحصلت فيما بعد على الكتكوت.

لم أتعامل مع قبيلة الآليات هذه الليلة وقد كنت سعيداً لمعرفتي بنمط الحياة الفارسية وإلا لكنت قد أسأت فهمهم وربما كنت جافاً معهم. إذ عندما جلست أكتب في غرفتي الجرداء، فُتح الباب فجأة ودلف إلى الغرفة رجل طويل القامة ووقف صامتاً ينظر إليّ. كنت متيقناً في تلك اللحظة من توقعاتي، ولكني نظرت إليه وسألته: «ما الأمر؟». «هش» هو الجواب الذي أوحي له وواصل محدقاً بي وهو صامت. كنت جاهزاً لمعرفة ما يريد «لا شيء» وأنه لا يقصد إيذائي. وهكذا، وعندما لم يزعجني، فإني لم أحاول جرح أحاسيسه بالطلب منه أن يخرج وواصلت الكتابة. وبعد برهة أخرى فتح الباب فجأة ودخل مراقب أبكم آخر. ومرة أخرى «شيست؟» وكان الجواب ثانية «هش» وعدت إلى الكتابة، وعندما التحق شخص ثالث بهما شعرت حينئذ بأني يجب أن أتدخل وأسألهم على نحو محدد فيما إذا كان باستطاعتي أن أفعل شيئاً لهم، كما استفسرت عن سبب مجيئهم إليّ. نظروا إلى بعضهم البعض وكأنهم يتدبرون أمراً، وأخيراً انفجر أحدهم «تماشا ميكونيم» (لقد جئنا لنشاهد المشهد) عَلّق أحدهم بأني أكتب بصورة جيدة، ثم نهضت وبكلمات فارسية مؤدبة طلبت منهم مغادرة المكان. غادروا في الحال دون أن يظهر على وجوههم أي تعبير وعدت إلى مواصلة الكتابة مرة أخرى.

ولكن ذلك لم يدم طويلاً. دخل عليَّ رجل دون استئذان وكان لديه عمل هذه المرة وأعني كان يشعر بألم في صدره. وبكثير من الاعتبار قدمت له حبة دواء مع تعليمات عن كيفية استعمالها وضرورة استخدام الماء الحار قبل النوم.

Twitter: @alqareah

عدت إلى العمل ثانية. دخل رجل آخر. لا بُدَّ أن شهرتي قد انتشرت. ما الأمر؟ «أدعو الله أن يحميك» عندي ألم في رأسي وأشرب الماء كثيراً. «أم»، أعطيته حبة دواء أخرى مع إرشادات مختلفة قليلاً وقام بالتهامها.

ولكني لم أنعم بالهدوء هذه الليلة. إذ سرعان ما دخل علي رجل طويل ذو وجه مكتئب وحزين وأخبرني بأنه يعاني من الصداع وليست له شهية للأكل.

أصابني الضجر ومع ذلك أعطيته حبتين وطلبت منه أن يشرب ماءً حاراً هذه الليلة وصباح الغد.

وحالما فكرت في أخذ قسط من الراحة، نظرت إلى الأعلى فوجدت امرأة صغيرة السن واقفة أمامي وتحمل طفلاً بين ذراعيها. عليَّ أن أعترف بأني لم أحسب حساباً لذلك، فالنساء الفارسيات لا يقمن في العادة بزيارات إلى غرف المسافرين غير المتزوجين حيث ينظر أقاربهن لهذا الأمر بعين الحيطة والحذر. على كل حال، استعدت تفكيري وحافظت على توازني وبقدر ما أعرف من الكلمات الفارسية طلبت منها أن تجلس. وفي الحال جلست على الأرض بعد أن أغلقت الباب بشكل دقيق، ثم قالت بأن ابنها يشرب الماء بكثرة. ولكن ذلك ليس أمراً خطيراً. فقمت بمراجعة معلوماتي. في البداية سألت عن عمره «عشرون صاحب» وكم سنة مضى على زواجك؟ وعندما أجابت «ثلاثون عاماً»، افترضت أنها اعتقدت بأني سألتها عن عمر زوجها. «كم عمر الطفل؟». «سنة واحدة». ليست لدي معرفة بالأطفال، ولكن بعد تفكير بالأدوية غير الضارة قررت في النهاية أن أعطيه نصف حبة دواء وقرص من الصودا المركَّزة. وبالنسبة للظروف التي تشكل أهمية كبيرة للفارسي، سألتني «متى أعطيه الدواء؟» أخبرتها «هذه الليلة ناوليه كل الدواء». (كيف بحق السماء يمكن أن تتوقع من الطفل أن يبلع الدواء دون سائل يغوص فيه؟) «كيف سأعطيه له؟»، «في أي شيء دافئ». «في الحليب؟». «نعم في أي شيء ترغبين». وعندما تعمق الحديث بيننا حول قوتي في اللغة

Twitter: @alqareah

الفارسية، انحنيت بكل أدب للطفل وأمه حتى خرجا إلى الظلام مستذكراً مشهداً من مسرحية «ستيرن - (الرحلة العاطفية)».

وفي صباح اليوم التالي. هذا كثير جداً في واقع الأمر. كنت عاجزاً عن الاغتسال وكل ما فعلته أن ارتديت ثوباً مبتذلاً من ثياب النوم. ومن سوء الحظ أن الضوء الوحيد الذي ينساب إلى غرفتي يشع من الباب والذي يجب أن يبقى مفتوحاً بشكل جزئي طيلة الوقت. ولكن لا بُدَّ من الإقرار بأني لم أتوقع عندما استدرت لأبحث عن المنشفة أن أواجه نظرات حادة من السيدة الخجولة التي رفضت بعناد أن ألتقط صورة لها، والتي كانت تقف أمامي هادئة داخل الغرفة وتنظر إليّ بشغف. التقطت المنشفة ورجوتها أن تغادر وقد فعلت ذلك مكرهة ولكنها عادت مرة أخرى بعد خروجي من الحمام. ويبدو أن وضعها غير الطبيعي كان بسبب مرض لم أتمكن من تشخيصه أو معرفة أي شيء عنه. وعلى كل حال قدمت لها حبة دواء وطلبت منها ألا تكون كئيبة أو منعزلة.

هذه نماذج من الأحداث التي يواجهها المسافر في حياته اليومية في بلاد فارس، هذه الحياة التي تتميز بالخشونة ولكنها مليئة بالتجارب المفيدة.

لقد شعرت بالحب لكافة رفاقي في الخان وتمنيت لو أخرج للصيد معهم تلبية لدعوة وجهوها لي ولكن وقتي لم يسمح بذلك، وبعد تأكيدات بأني سأكون سعيداً بصحبتهم حتى خصمي الذي تراهنت معه شاركني هذه التأكيدات. ثم اندفعت بقوة عبر السهل.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

17

الشتاء والجو العاصف

«لا جدوى من التذمر والشكوى. فمن السهل واليسر أن تبتهج حينما يصنف الله الجو ويرسل المطر. لأنَّ المطر هو خياري».

جيمس وايتكومب ريلي

لقد وصلنا حسب اعتقادي إلى ما يعرف على المستوى الشعبي أبرد مكان في الهضبة الفارسية، ووفق ما خبأه القدر لنا فقد حَظينا بأسوأ طقس صادفته في كل رحلاتي.

سارت الأمور على نحو حسن في الجزء الأعظم من مسيرتنا الأولى بعد مغادرة أصدقائي من قبيلة الـ«إلياتس». فقد مشينا الأربعة عشر ميلاً كلها على أمل رياضي ولكننا لم نقتنص شيئاً حياً واحداً. إني أجزم بوجود صيد هنا لأنني شاهدت في مطلع النهار أعداداً من الحمام على بُعد وقد اتبعتها ولكنها اختفت، وفي الوقت ذاته عثرت على سرب من البط ولكن مع الأسف بعيداً عن مرمى البندقية. لقد قمت باقتفاء هذا السرب وحالما اقتربت من مكانه أحس بوجودي فانطلق إلى الأمام في الوقت الذي ظهر فيه ذئبان يتسللان بعيداً. كان كيشنا على بعد عشرين ياردة خلفي فأومأت له. فأخذ يركض خلفهما ولكنهما فَرّا بعيداً قبل أن أمسك بندقيتي، وفي

Twitter: @alqareah

تلك اللحظة شعرنا بحدوث شيء حيث خرجت بطة من جدول صغير على بعد خمسين ياردة منا تطرطش وتطلق صوتاً حاداً.

القسم الفارسي أكثر دقة وتنوعاً من القسم الإنكليزي ولكنه ليس متماسكاً ومقنعاً.

كانت بقية الطريق شاقة ومفزعة حيث مشينا فوق صحراء جرداء قارسة البرد، وقد سررت حين وصولنا إلى «دهبيد» لنسكن ليلتنا فيها وقد سررت أكثر عندما وجدت موظفاً كريماً من دائرة التلغراف وزوجته الفاتنة.

تناولنا طعامنا على منضدة مفروشة بقطعة قماش مرة أخرى.

من الواضح أن دهبيد ليس مكاناً مناسباً للعيش فيه. فبالإضافة إلى كونه وكما قال اللورد كورزون، أجرد مكان مأهول في بلاد فارس «فإنه يتميز من الناحية العملية بعدم وجود سكان وإمدادات». ففي الواقع، يعني اسمه (كان هناك قرية). (ده ـ تعني قرية وبيد ـ تعني كان) وكل ما في هذه القرية من أثر بارز يثير الانتباه هو كتلة تبدو للعيان لأول وهلة على أنها صخرة ولكنها تستحيل بعد ذلك إلى بقايا حصن.

أما نمط السكان الموجودين في المنطقة فيبدو أنهم من المتشردين والأوغاد وذلك وفق القصص التي سمعتها عنهم. كان صوت الرصاص يدوي حول دائرة التلغراف وقد سرق كثير من الأوروبيين كما ضُرِب مُبَشِّر قبل فترة قصيرة وجُرِّد من ملابسه وتُرك مرمياً على قارعة الطريق، كما أن المضيفين لي كانوا قد هوجموا ونهبت قافلتهم حيث أُلقي القبض على سارق واحد وأُرسِل إلى شيراز حيث قذف من فوهة المدفع. حقاً إنها منطقة جوار حسنة!

وفي اليوم التالي اكتشفت بأن السكان كانوا يقيمون معرضاً خاصاً لمواهبهم من أجل منفعتي الشخصية. فقد قاموا خلال الليل بكسر الصناديق وفتحها وأخرجوا العديد من المواد منها، وأخذوا

Twitter: @alqareah

حصاني من الإسطبل واستولوا على غطائه وتركوه طليقاً في السهل حيث عَثر عليه «سيف» من حسن الحظ صباح اليوم التالي.

كانت قد أمطرت قليلاً بالأمس ولكنها اليوم تخبئ لنا شيئاً أكثر اشمئزازاً وتنبئ الغيوم في السماء بيوم عاصف ومروّع. هَبَّت ريح قاسية وكانت الغيوم الحبلى بالمطر تتجمع في الجنوب الشرقي وفي اللحظة التي كنت أتجه فيها إلى الطريق بعد مطاردتي للذئب، كُشف الحجاب عن العاصفة. كانت البغال قد انطلقت إلى الأمام وتسير خلال عاصفة ثلجية كاسحة، وبعد فترة لمحت بوادر الأمل عند ظهور أعمدة التلغراف والتي أملت علي تدبير الأمر بتعقل كي لا يكون مصير جماعتي مثل مصير أولئك المسافرين الذين وجدوا أمواتاً على الطريق قبل أسبوع أو أسبوعين. وسرعان ما رأيت أشكالاً باهتة وسط الثلج، إنه سيف وأحد رفاقه من سائقي البغال، كانا قد تخلّفا للاستفسار عن السرقة ولكن لم يكتشف شيء وكنت قد توقعت ذلك.

واصلنا المسير في ممر مروّع وسط العاصفة الهوجاء حتى رأينا مجموعة منعزلة من الأكواخ وخاناً أبيض يدعى «خوتيه خوريه»، وبعد أن وصلناه اكتشفنا أن البغال التي انطلقت قبلنا بساعة لم تصل بعد. لم نتجاوزها ولم نلمحها على الطريق. وإني متأكد من ذلك رغم العاصفة القوية، أين اختفت؟ واستفسرت فيما إذا كان هناك طريقان. بالتأكيد كان هناك طريقان وهكذا شعرنا بالراحة على أمل أنَّ الأمتعة قد سلكت الطريق الآخر، وحاولنا إدخال البهجة إلى نفوسنا داخل الكوخ الطيني قرب النار. كان الثلج في الخارج ما يزال يتساقط بكثافة وقسوة وعندما لم تظهر البغال بعد مرور ساعة أرسلت اثنين من الخيالة للبحث عنها، أحدهما نحو دهبيد التي جئنا منها والآخر إلى الطريق الفرعي المؤدي إلى «يزد».

مَرّت ساعتان ولا أثر للبغال وكان الظلام قد حلّ، ثم مَرّت ثلاث ساعات وعاد الخيالة بدون أخبار. ثم أربع ساعات. وقمت بالإعداد

Twitter: @alqareah

لقضاء ليلة بملابس رطبة وتناول عشاء مما يمكن الحصول عليه من القرية. كان هناك أولاً موضوع التدفئة. تدثرت بملابس مبللة وتمددت في غرفة رطبة يبدو فيها النوم صعباً. وأخيراً حصلت على سجادة وبطانية وأشعلنا النار مما جعل الأمور ليست سيئة. وبالنسبة للطعام، لم يكن هناك شيء في القرية الصغيرة عدا أربع بيضات وبعض الخبز ونوع غريب من الجبن ومادة من قديد اللحم تتكون من لحم مجفف. أمرت بإحضارها وعلى الفور قام الفراش أو ساعي الخان بجلبها لنا. كان الجبن مصنوعاً بالأيدي وكذلك قديد اللحم أما الخبز فكان على شكل أقراص كبيرة وكان مالحاً بدرجة مفرطة. ولم يكن بوسعنا تحديد ومعرفة طبيعة البيض في تلك اللحظة، ولكني أمرت بأن يغلى في الماء وتمنيت أن يكون في حالة جيدة. لقد أصبح العشاء جاهزاً. جلسنا على السجادة وأكلت أنا وكذلك سيف أما كيشنا فقد تذوق الخبز بشيء من الترف. وكان الإجراء كالآتي: أمسك أنا طرف رغيف الخبز ويمسك سيف الطرف الآخر ثم نسحب سوية. قطعت قطعة من الجبن بأصابعي واتبعنا الطريقة نفسها مع القديد، كنا جميعاً في حالة نهم شديد حيث لم نتذوق سوى قطعة من الخبز منذ أربع وعشرين ساعة. كان البيض كما أتذكر في حالة جيدة وقد احتفظنا بواحدة وقطعة خبز لليوم التالي. ثم أشعلنا النار بدرجة أكبر ونزعت حذائي وتهيأت كي ألفَّ نفسي بالسجادة من أجل الليل.

كانت الساعة التاسعة عندما فُتح الباب فجأة وتسرب منه صفير من الريح الثلجي، وكان الصبي الذي أحضر السجادة لي قد دفع رأسه مما عرضني إلى تيار قوي سَبَّبَ أذىً لجسمي (فالباب لا يتناسب مع المدخل ولذلك كان يفتح بين الحين والآخر، ولكنه كان أفضل من لا شيء). «ما الأمر؟» استفسرت. «البغال».

لبست حذائي وخرجت إلى الثلج. لقد كانت البغال بالتأكيد. وبعد لحظات قليلة شرح سائقو البغال ما حصل: لقد اتخذوا طريق «يزد» وساروا مسافة خمسة عشر ميلاً قبل أن يكتشفوا خطأهم.

Twitter: @alqareah

غمرتنا الفرحة لظهورهم ولكونهم قد تحملوا مشقة السير بصعوبة فائقة فإنَّ سيف لم يغضب ولم يسخر منهم لأنهم ضلوا الطريق وسرعان ما آويت إلى فراشي بعد أن شعرت بالطمأنينة والراحة. يجب على الإنسان أن يفقد شيئاً حتى يقدره حق قدره. اندفع المسكين ستمبس جائعاً يرتجف من البرد، فقد أمضى يوماً قاسياً ويستحق وجبة العشاء الشهية التي أعددتها له. ثم (الحمد لله كان جافاً) ألقى بنفسه على فراشي ولم يكد يدس أنفه في فروه حتى استسلم للنوم. وبعد أن حمدت الله لكوني تحت بطانيات صوفية بدلاً من أن أَلِفَّ نفسي في سجادة على الأرض؛ استغرقت في النوم كذلك.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

18

المتسولون

«رحمة بي... رحمة بي، يا محسنون، من أجل الله اعطفوا عليّ...».

بأي اتجاه فكرت وبأي وسيلة تدبرت الأمر ففي النهاية هناك حقيقة واحدة في الحياة، لزيادة سعادة العالم. وبمقدار ما يفعله الإنسان يمكن للهدف أن يتحقق. ومن الممكن إحراز هذا الهدف بطريقة إيجابية أو سلبية لأنه من الممكن إمَّا زيادة السعادة أو تخفيف الألم ولكن لتخفيف الألم وسيلة أخرى لزيادة السعادة.

والأمر المهم هو عندما يصل إلى حد الموت، يمكن للإنسان أن يفكر بأن جانب الائتمان في مستوى السعادة والحزن في العالم قد استفاد من وجوده هنا خلال حياته، أو من الأفضل أنه يضيف شيئاً إلى المخزون الدائم من السعادة البشرية، ثم يغلق حسابه بوعي مقنع بأنَّ حالته في جميع الأحوال توحي بأن الحياة ليست فشلاً.

هناك آلاف الوسائل التي من خلالها نتمكن من زيادة سعادتنا. أولاً يمكن أن نكون سعداء بحد ذاتنا (ألم يخبرنا ستيفنسون بأنَّ من الأفضل أن تجد رجلاً سعيداً أو امرأة سعيدة وليس الحصول على ورقة نقدية بخمس جنيهات)، وإذا كنا كذلك فبإمكاننا أن لا نضيف فقط قطعة نقدية صغيرة إلى المجموع الكلي وإنما نتأكد من عدم

Twitter: @alqareah

فقدان التأثير على الآخرين، لأنَّ السعادة الحقيقية لا يُحصل عليها ولا تتحقق بدون أشياء جيدة أخرى.

ومرة أخرى، قد نكون السبب المباشر في تحقيق السعادة. فقد نخلق أعمالاً فنية راقية أو نكتب كتباً خالدة أو نعزف ونغني موسيقى ساحرة والتي ستترك ليس فقط سروراً للآخرين في أيامنا وإنما تكون مصدراً للفرح للأجيال القادمة أيضاً. وقد نخترع عمليات أو آلات ستُمكن الإنسان من الاستغناء عن الأعمال المتعبة أو التي ستوفر للعالم وسائل للراحة غير معروفة، إذ ليست هناك نهاية للوسائل التي قد يتبعها الإنسان سواء بعقولنا أو بأجسامنا والتي تساعد على توفير حياة أفضل للعالم، وذلك بمضاعفة السعادة وإبعاد شبح الحزن. ولكن لا توجد أدوات فاعلة للمساهمة في رُقي الإنسانية وتحسين ظروف الإنسان سوى الدولة التي تتمكن من تحسين حالة الشعب بكامله، وذلك بوساطة العلوم الطبية التي تخفف عبث الأمراض وتزيل عن كاهل الإنسان الكثير من الآلام والشفاء.

ففي بلاد فارس هناك مجال خصب لكل من الدولة والعالم. فالتفكك الاجتماعي والأمراض الجسمية تحول دون الرعاية الاجتماعية العامة مثل غمامة خانقة حيث تركد روح الشعب وموارد الأرض على حد سواء لا يُهتم بها ولا يُستفاد منها، ثمة عبء ثقيل من الألم الذي لا مبرر له وحزن يجب تخفيفه وإزالته. فهناك العديد من مجالات السعادة لم تُستغل وتنتظر يد الإنسان لتطوير إمكانياتها وأوجه استثمارها. تُعد بلاد فارس من الناحية العملية أرض الفرصة المهملة والانحطاط الراكد. إذ توجد فيها المواد الهائلة للإنسان الذي يرغب في العمل من أجل حياة راقية.

فالحاجة الملحة تكمن في التشريع والإدارة التي يجب أن تتعامل مع الظروف السياسية للشعب، وفي العلوم والصحة لمعالجة الأمراض الجسمانية.

وبخصوص هذه الاحتياجات يبدو بأننا في مركز لا يخولنا

Twitter: @alqareah

توجيه نقد أو نصيحة. وكنتيجة لنظامنا الحضاري، وجدت الأحياء الفقيرة التي يخرج منها المتسول، وكنتيجة لظروفنا الجسمية في الحياة، انتشرت الأمراض التي هي نتاج خاص لظروفنا الخاصة والتي تخلقها أنفسنا في أغلب الأحيان في بعض العمليات التجارية للقرن العشرين، وبكل تأكيد لا يمكننا أن نقترح على بلد حيث الظروف الاجتماعية للشعب، وفي جميع الأحوال، بسيطة وحيث الأمراض السائدة لا تعقدها براعة الإنسان. فعيوبنا على أية حال تنبعث من مشاكلنا وبلاد فارس لا تعاني من هذه المشاكل إلى حد كبير. ففي بلاد فارس ثمة فرصة كبيرة لحالة أكثر سعادة، لأمور كثيرة من تلك الموجودة في إنكلترا ذات المدن الكبيرة والمشاكل المعقدة. إذ أن الأمور أكثر سهولة في بلد يعاني فقط من الجهل واللامبالاة ولا يكافح من أجل ظروف في غاية التعقيد أو مستحيلة التعقيد. مثل هذه البلاد يجب أن تكون في حالة جيدة ويمكن أن تستقيم أمورها بكل بساطة. إنها بحاجة فقط إلى رجال عظام وإلى إجراءات عظيمة قليلة. إنه فقط عدم الشعور بالمسؤولية. ففي هذه الأيام حيث يتوجب وجود مدن صحية نظيفة، هناك أماكن قذرة كيفما سمحت لها ظروفها. فالبيت في هذه البلاد الذي يستمر مدة أطول من البيت في إنكلترا ويتسع لعدد أكبر من السكان فيه يتكون من أكواخ طينية. أما مزايا المناخ الذي يؤثر على الصحة فقد أبطله وألغى تأثيره قذارة الحياة التي أدت إلى شيوع المرض، نظراً لفقدان النظام الصحي المهمل تماماً، وأدى إلى عدم اهتمام الفرد بالمسكن الذي أصبح بؤرة دائمة للعفونة والتلوث. ومع أنه لا توجد قيود مثل تلك المتعلقة بمشاكل أصحاب العمل والعمال، فإنَّ الصناعة معدومة في كل أنحاء بلاد فارس مما يشكل نجاحاً ظاهراً وحتى في ظل غياب الأشياء المرعبة في مدننا الكبيرة، فقد نمت وتطورت طبقة من الفقراء والمفلسين كأدنى طبقة غارقة في الفقر والشقاء. تماثل في شقائها عُشر ما تعانيه الطبقات الدنيا في إنكلترا.

Twitter: @alqareah

إنَّ شمولية الفقر لا يضاهيه إلا كلية الوجود للمرض، ونتيجتها المشتركة هي التسول مثل السرقة والبطالة اللتين أصبحتا مهنة معترفاً بها في بلاد فارس وشَرّاً مستطيراً في كل مدينة وعلى كل قارعة طريق.

فالمتسولون هم الذين يستحوذون كثيراً على خيال وشفقة المسافر، وهم الإعلان البارز والمثير على وجود حالة فساد في بلاد فارس.

فهم يقفون طوال النهار تحت أشعة الشمس أو تحت وابل من المطر يسندون ظهورهم على صف طويل من الجدران. فالمكفوفون ينتظرون طوال النهار يحدقون بوجوههم الشاخصة إلى الأعلى وعيونهم الضريرة في ظلام الظهيرة. أما المعوَّقون فيجلسون وهم يحدّبون ظهورهم، ويتمدد المشلولون حيث يوضعون عراة تحت زاوية تحميهم، أما المُسنون والعجزة فيزحفون ببطء وتثاقل يصرخون مطالبين بالصدقة والإحسان. لقد تذكرت وسأظلُّ أتذكر معرض الصور الذي أقامه «فيرستا شيخيني» في صالة تريتنياكوف في موسكو والذي عُرضت فيه صور على حائط بكامله تمثل هذه الشرائح الفقيرة من بني البشر. أما في الليل، فيتجولون ويتسكعون ويؤخذون إلى بيوتهم ليقبعوا في زاوية فيها ويحلمون أثناء الظلام بيوم آخر.

هذه هي حياتهم وهكذا هم أنفسهم. يحاول العقل عبثاً إدراك المغزى من حياتهم ومعرفة سبب وجود شيء لا فائدة منه ولا متعة فيه. ولا عجب أن عمر الخيام عَبَّرَ عن هذا المبدأ اليائس:

«بذلك الطاس المقلوب تدعو السماء

وتحته نعيش ونموت من ضيق وشقاء.

لا ترفع يديك طلباً للإحسان منه

فهو يترنح عاجزاً مثلك أو مثلي».

Twitter: @alqareah

هل من الممكن أن تكون هناك نتيجة أخرى للمتسول الفارسي (أو حتى المتسول الإنكليزي).

ثمة أمر مفزع يدعو للسخرية بخصوص حياة الفقراء في بلاد فارس. فإذا كنت محروماً فإنك في ذات الوقت سقيم. إن فقدان عين، أو إصابة أحد الأطراف بالشلل أو الوهن بسبب الشيخوخة، كل ذلك مصادر للحصول على النقود. «أشفقوا علي... أشفقوا علي... أيها الأصدقاء» هكذا يدعو المتسول بكل صدق من أجل أن يرزقه الله.

ما أزال أتذكر زيارة قام بها لي فقراء من بلاد فارس. إذ بينما كنت جالساً في شابرخانة في سورمك، الاستراحة الثانية بعد خونيه خوريه، نبح ستمبس فجأة. تطلعت فوجدت في الباب رجلاً ضريراً يقوده مخلوق صغير: فتاة صغيرة جميلة. لقد كانا زوجين غريبين يدعوان إلى الشفقة، الرجل المكفوف ومرافقه الصغير. لم ينطق المخلوق الصغير بشيء ولكنها نظرت بصمت وتوسل من تحت عينيها الواسعتين. كانت ترتجف وكانت شفتاها الورديتان تصطكان ببعضهما من شدة البرد. في الداخل كنت قد أشعلت ناراً وهكذا دخلا بصمت غريب ودون تعليق. ومن البداية إلى النهاية لم تنطق الطفلة بكلمة واحدة، ولكن وبينما كانت تدفئ يديها على لهب النار، تحادث والدها معي بلغة فارسية مؤدبة وسريعة. وأخيراً توقفت شفتا الطفلة عن الارتعاش وزال الخدر عن يديها ثم أعطيتهما «كرانين» وغادرا إلى ضوء الشمس. هذا الضوء الذي لم يره ذلك الرجل في حياته.

لا مكان لرقة القلب في بلاد فارس ففيها الكثير من الأمور التي ينجم عنها الحزن وهذا واضح وظاهر للعيان، ربما يوجد الشيء ذاته وبالمقدار نفسه في إنكلترا ولكنه غير ظاهر ويمر به العالم بأسره ولكن دون أن يسبب قلقاً أو إقلاقاً. ومع ذلك فإنه مسألة مزاج إذ أن صاحب القلب الرقيق لا يستطيع العيش سواء في إنكلترا أو في الشرق، ولكن حياتهم تتسم بقلق مشوب بالحزن. وفي الواقع يبدو أن هذا العالم ليس مكاناً يعيش فيه فرد تمزق أحزان الحياة قلبه،

Twitter: @alqareah

حيث المتسول على قارعة الطريق والمخمور في خمارة مظلمة والمومس على الرصيف، وهذه المظاهر ليست مكشوفة فقط وإنما يتفطر القلب حزناً عليها. فالشخص البدين هو الذي يحصل على معظمها فهو بمظهره الخشن يخفي مآسي الحياة ويعمل ما يحلو له دون أن يؤذي أحداً، ويتابع سيره على الطريق نفسه واثقاً أنَّ «الله في السماء. إذن فالحياة على ما يرام في هذا الكون».

ولكن هل قام هذا الشخص بعمل مفيد للعالم مثل نظيره من الحيوانات الثديية؟ وهل من الممكن أن يعمل صالحاً في ظل غياب إدراك بأنَّ الشر تجب معالجته؟ وهل يمكن نشر السعادة بينما التعاسة لا يعترف بها ولا يهتم فيها؟

ومن المحتمل أيضاً أن الميزان غير متساوٍ بين الجلد السميك والرقيق، إذ ما دام الإنسان يميل إلى الحزن فإنَّ مشاعره تقدَّر عالياً وتستجيب تلقائياً للفرح، وربما في حالة عدم توازنه العاطفي فإن الرجل المفعم بالأحاسيس سيكون أفضل من زميله الآخر الذي تشكل الحياة له مجرد لحم ونبيذ وعيش صاخب أو مكان للعزلة الذاتية.

ومن المحتمل افتراض أن التطرف يمثل شراً في كلا الجانبين، حيث نصل مرة أخرى إلى حالة من الاعتدال الذهني أي إلى شيء بين الخشونة والاضطراب النفسي.

ولكن لنعد ثانية إلى بلاد فارس. ماذا يمكن عمله؟ هل بوسعنا أن نفعل شيئاً؟

إنَّ القاعدة التي تصلح إذا ما وضعها الاستعماريون المتحمسون ودعاة الإنسانية المخلصون نصب أعينهم وفي عقولهم هي أن «الإحسان يبدأ بالوطن أو بالأسرة» فهذا ليس مبدأ ضيقاً، إنه في الواقع جزء من عقيدة أشمل، العقيدة التي تعتبر دافعها الأساسي تقدُّم سعادة البشرية. وكل ما تعنيه هو أن أضمن وسيلة لمضاعفة سعادة البشرية هي مضاعفة سعادة أولئك القريبين وفي متناول اليد، والذين يمكنهم الاستعادة على نحو مؤكد وبدرجة

Twitter: @alqareah

كبيرة. ولا يجب أن ننسى أن القيام بذلك يقدم صدمة فعلية ويسبغ الخير على بقية أنحاء العالم، ويقدم مثلاً رائعاً.

ولا شك في أننا يمكن أن ننتهز أية فرصة لتقديم كل ما أحرزناه من معرفة وتجارب إلى الآخرين. إذ بوسعنا إرسال الأطباء لهم وتوضيح ثمار خبرتنا الطويلة في مجال عمل الدولة، ومن واجبنا تجاه أنفسنا قبل أن نهتم بشؤون الآخرين أن نصلح بيتنا وننظمه على شكل أفضل. علينا أن نساعد أنفسنا أولاً حتى نتأكد من قدرتنا على مساعدة الآخرين.

وعلاوة على ذلك، ومهما كانت النيّات الحسنة للعالم، فإننا لا يمكننا أن نفعل الكثير لإعادة خلق وتكوين بلاد فارس. يجب أن ينبثق ذلك من الداخل. يجب أن يقوم بذلك الرجال الفُرْس والإجراءات الفارسية، ويجب أن يكون مقروناً بتقدم روح جديدة في الشعب الفارسي. أما الشيء الملح والضروري في المرحلة الحالية فهو وجود رجل دولة قوي وحكيم.

فالشعور القومي يحتاج إلى نهضة قوية، وعندما تتم الصحوة بعد سبات فإنها تحتاج إلى مركز أو نقطة استقطاب ليدفعها بقوة. هذه القوة الناهضة وتلك البؤرة المستقطبة يجب وجودها معاً في شخصية رجل عظيم. فالإمكانيات القومية قد تكون كامنة تنتظر فقط الزعيم الذي يثيرها ويحولها إلى فعل.

يبدو أن المرحلة الحالية هي المفتاح إلى ولوج عصر جديد في بلاد فارس، فقد وقعت أحداث مؤخراً تشير إلى بداية حياة جديدة للبلاد إذا ما اقترنت بالحكمة والهمة والنشاط. لقد بدأت بوادر ثورة سلمية بيضاء والتي ستكون نتائجها شاملة وبعيدة المدى، بل إنها ستكون أشمل وأكثر بعداً من الثورة السلمية الكبرى التي حدثت في إنكلترا عام 1832. فالأمة الفارسية عند مفترق الطرق إذ أن أدوات الحكومة المسؤولة تقع في أيدي الشعب. ولم يبق إلا أن يمسك بها الشعب ويستخدمها جيداً. فإذا ما فعلوا ذلك فهناك مستقبل زاهر

Twitter: @alqareah

لبلاد فارس، وإذا لم يفعلوا ذلك فسيفقدون الأمل بوطنهم وبأقطار الشرق عموماً.

إذ يكمن خلف الشعب الفارسي تاريخ طويل من الاستبداد الذاتي. وحولهم يسود الجهل والفقر والمرض. وأمامهم تمتد إمكانيات شاسعة. بالنسبة للمتسول والراعي والتاجر ولكل الطبقات والفئات من أعلى طبقة إلى الأدنى، تتركز أمامهم جميعاً حول التجربة التي ستبرز في السنوات القليلة القادمة. إذ تحتاج هذه التجربة إلى شخصية عظيمة أو إلى أكثر من شخصية حتى تحقق نتيجة ناجحة. ولهذا يجب أن تعمل بلاد فارس من أجل خلاصها، ويتمنى كل العالم بأن الرجال والإجراءات سيعملون بما فيه الكفاية لمصلحة البلاد.

كلمة أخيرة، إذا ما نظرنا إلى مخطط الأشياء سواء من الأعلى أو من الخارج، سنرى بوضوح أنَّ بلاد فارس مثل أقطار أخرى تتلكأ في مسيرتها وتقدمها. ولكن يجب ألا تتوقف المسيرة بسبب ذلك، فأولئك الذين في مقدمة المسؤولية عليهم أن يقدموا ما باستطاعتهم، وأن يقوموا بواجباتهم كطلائع للتقدم. وأهم هذه الواجبات وربما اليد الأكثر حنواً وعطاءً هو العمل الذي يقع على عاتق كل أمة لإيجاد الوسيلة التي تفضي في النهاية إلى تحقيق السعادة للإنسانية.

Twitter: @alqareah

19

الصيد بين التلال

«هناك ألعاب رياضية تجلب الألم».

شكسبير

العاصفة. ف111

كانت أكثر رياضة تمتعت بها هي تلك التي هيأها لي القدر ورِقّة رئيس القرية الفارسي حينما كنت في سورمك. بالتأكيد كانت الأصعب إذ لا يمكن أن أنسى آلام أطرافي التي استمرت حوالى أسبوع بعد المطاردات التي قمت بها لاصطياد الوعل والموفلون بين الجبال.

فعندما وصلت إلى القرية في ساعة متأخرة من النهار استقبلني الخان بحفاوة، وقال لي «إن شاء الله سنذهب إلى الصيد غداً إذا لم يكن لديك مانع». لقد قبلت دعوته بامتنان وابتهاج لأنها ستحقق لي خبرة ومتعة.

سأظل أتذكر تلك الأيام التي قضيتها في ذلك المكان الصغير باعتبارها الأجمل والأروع من كل أسفاري، وسأتذكر ذلك الرجل الشاب الأنيس والطيب النفس البالغ خمسين عاماً (إذ أني مضطر أن أُلقِّب أي شخص يتمتع بحيوية وروح مرحة وشباب القلب هكذا بغض النظر عن عمره الحقيقي) لكونه ألطف وأطيب شخص كَوّنت صداقة معه في بلاد فارس.

Twitter: @alqareah

وعندما كتبت هذه الذكريات حين كانت حية في مخيلتي سردت بالتفصيل متعتي خلال يومين من الصيد، والتي سأذكرها حتى تتحدث عن نفسها.

انبلج الصبح بهياً حيث نهضت مبكراً لأنتظر وفد صديقي الخان. تمشيت جيئة وذهاباً تحت أشعة الشمس فوق السقف الطيني للإسطبلات الواقعة خارج «بالا خانة» ومحدقاً على الخط الرائع للجبال الثلجية ومحاولاً تدفئة نفسي. ثم أطلّ الرجل الشاب المرح. رياضي نشط وصادق رغم ذوقه المتقلب وعمره البالغ خمسين عاماً وشعره الداكن.

سيل من التحيات والمجاملات وفحص متبادل للبنادق، ثم انطلقنا، في الأمام كان ابنه ورجل آخر مسلحان وكأنهما ذاهبان إلى معركة وقد ركب كلاهما حصاناً واحداً. حيوان أبيض قوي يبدو أنه لم يتأثر من ثقل الحمولة على ظهره حيث انطلق مسرعاً غير مكترث. وجاء بعدهما الخان الذي كانت بندقيته تتدلى من كتفه ثم أنا من بعده وبندقيتي في يدي وعلى حصاني وسرنا في طريق لا يمكن لأحد أن يتخيله ويحتاج إلى تكوين طبيعي فريد للجسم. أما في المؤخرة فقد جلب سيف الله شاه الآخرين على «يابو»، وكان كيشنا يركب بغلاً ويحمل بندقيتي في يده، وكان هذا الأخير سبب تأخرنا إذ أن البغل لم يعتد المشي في مثل هذه الطرقات من قبل.

لقد بذلنا في الصباح مجهودات لا طائل منها ونحن نتعقب قطيعاً من الموفلون الذي لمحناه على أطراف الجبل العليا، حيث تبعثرت قوتنا بين التل والسهل على أمل أن نخدع هذه المجموعة من الموفلون. ولكنها كانت أكثر دهاءً منا إذ اندفعت إلى نقطة كانت فيها دفاعاتنا حقيقية، ورغم أننا أطلقنا طلقة أو طلقتين إلا أنها انطلقت مسرعة بأمان.

بعد هذا سأل الخان فيما إذا كان لدي ما يكفي، قائلاً بأن بإمكاننا القيام بمطاردة واحدة خلسة في التلال ولكن الجو سيكون

Twitter: @alqareah

بارداً حين حلول الليل. قلت له «إذا كان ثمة ضوء، دعنا نذهب» وقد ذهبنا فعلاً ـ كلنا عدا «سيف» الذي أرسلته إلى محل إقامتنا لأنه كان ضجراً ومتأففاً.

بعد مسير ساعة بثبات إلى الأعلى، وصلنا إلى أخدود يتجه بانحدار إلى الشمال الشرقي ليغور في جوف الجبل. ترجلنا هنا وقمت مع الخان بفحص الأخدود، أما الابن وكيشنا فقد اقتادا الخيول إلى أسفل التلال. لقد كان الأخدود بديعاً ومن السهل التعامل معه والسير فيه. لم يكن هناك أثر للخضرة وكل ما كان فوقنا شجيرات صغيرة داكنة وجبال معتمة وسكون مطبق، كانت الشمس تشرق خلف التلال من جهة الشمال الغربي ومع أن أشعتها كانت تغطي قمم الجبال عن يميننا إلا أننا واصلنا مسيرنا إلى الأعلى وسط واد من الظلال. توقف مرشدي ـ وأشار إلى الرمال كثيرة الحصى تحت المكان الذي كنا فيه والذي كان في وقت من الأوقات شلال ماء. «أما اليوم فلا يوجد سوى آثار الحيوانات المفترسة» قال الخان مبتسماً.

وفق هذا الوادي القاحل واصلنا سيرنا هنا وهناك بحذر شديد، نتطلع في ظل زاوية وفوق كل صخرة ولكننا لم نر شيئاً حتى وصلنا إلى أكوام من الصخر الطيني والذي رأينا من خلاله تحتنا في ضوء الشمس المائلة للغروب الوادي الكائن في الشمال الشرقي، مما أنبانا بالوصول إلى قمة الأخدود حيث تهيأنا للتراجع. كان علينا أولاً أن نستدير إلى اليمين كي نلقي نظرة على أحد شِعب الوادي الرئيسي. نظر الخان بتمعن ثم أومأ لنا بالتزام الصمت والسكون. تسمَّرتُ في مكاني هادئاً مثل الفأر. ثم همس «شيكار» إلى الأمام فوق التلة، «انظر». نزعت منظاري وحدقت فيه وهناك عند حدود التقاء السماء بالجبل رأيت شكلاً منعزلاً. إنه غزال من نوع آخر. أحنيت نفسي مرة أخرى وأومأت «بعيد جداً»، همس الخان «لا تكترث». «هل يمكننا الصعود إلى الأعلى؟» قلت له هامساً. زحفنا بحذر إلى الأعلى حتى اقتربنا منه وكان الحيوان ما يزال يأكل ثم

Twitter: @alqareah

وصلنا إلى جدار منخفض لكومة صخرية ونظرت من خلال شق فيه حيث كان الحيوان الصغير على بعد مائة ياردة منا. وضعت الطلق في البندقية وبعد أن صوبت بدقة ضغطت على الزناد.

«لم يحدث شيء» لم أتبين سلامة الطريدة. هذا يعالجها، ضغطت على الزناد مرة أخرى وحينما دوت أصداء الطلقات في الوادي انبعثت الحياة على سفوح التلال وبين الممرات الجبلية المعتمة، حيث تراءت لي أشباح سوداء تتحرك. إنه الوعل. لم أكن قد شاهدت قطيعاً من قبل، لذلك اخترت طلقة وصوبتها بكل ما أوتيت من مهارة، على كل حال، لقد رأيتهم الآن، وعلى أية حال، الحمد والشكر لله لأنها لم تكتشف من أين انطلقت الإطلاقة إذ بدلاً من اختفائها فوق الحافة الأمامية اتجهت نحو التلة الواقعة إلى اليسار. كان الضوء رديئاً للغاية حيث كانت الشمس خلف التلة مباشرة، ولهذا كانت الأشكال الباهتة تعدو مسرعة فوق الصخور المنحدرة وكنا بالكاد نراها بوضوح. ومن أجل مواصلة ملاحقتها، أطلقت طلقة إثر طلقة على الوعل الصاعد إلى الأعلى حتى صرفت نصف دستة من الخراطيش وكانت النتيجة المرئية قتل وعل وإصابة آخر بجروح وقد حاول التسلل جهة الشرق، ولكني وجهت اهتمامي إليه، إلا أنه تمكن من الإفلات واختفى فوق قمة الجبل، ثم نهضت وركضت لأجهز على الحيوان الممدد بين الصخور. «تمهَّل يا صاحبي تمهَّل» قال الخان المضطرب الذي أطلق النار وأخطأ الهدف. «تمهَّل، ألم تر منظره؟» ثم أخذ السكين وذبح الحيوان المسكين ذبحاً حلالاً.

نظرنا حولنا، كمية كبيرة من الدم، ويؤدي بعض منه إلى خلف التلة، اقتفيت الأثر ولكني لم أذهب بعيداً. إذ وجدت الضحية حول زاوية صخرية صلبة. كان ممدداً على بعد ياردة واحدة من فوهة داخل الصخور، كان فمه مفتوحاً وعيناه مغلقتين ورأسه ملقى على مكبه. حسبته ميتاً وأوشكت أن أخبر الخان ولكن وبعد نظرة مروعة إليه، قفز حول الزاوية.

ولكنه ظهر ثانية على بعد مائة ياردة تقريباً وفي ضوء بديع،

Twitter: @alqareah

وجهت له طلقة خلف كتفه والتي جعلته يترنح بين صخرة وأخرى ليسقط تحت حافة التلة ويستقر مستكيناً هامداً تحت شجيرة على بُعد خمسين قدماً إلى الأسفل.

لقد أصبت وعلاً آخر وقمنا بالبحث عنه بين الصخور حتى أصيب الخان بالإعياء الشديد، وقد أوضح بأنه يعاني من مرض القلب مما أجبرنا على فقدان الأمل في العثور على الحيوان، وعدنا نناقش مشكلة توزيع الاثنين اللذين اصطدناهما. فقد قتلت كليهما، الأول في صدره وساقه والآخر كسرت فكيه وأصبته في قلبه.

وبمساعدة «تصرفانكجي» قمنا بتنظيف الحيوانين ونقلناهما إلى أسفل التلة حيث جلبت الخيول وحملهما بغل «كيشنا».

التقطت صورة للغنيمة ثم انطلقنا في الوقت الذي كانت فيه الشمس قد غربت خلف خط من الجبال الثلجية، بعد أن تحولت من جدار أبيض إلى أسود تظلله ظلال بنفسجية وتشوبه انخفاضات واضحة مقابل السماء الصفراء.

اليوم التالي:

قررت أن أمكث هنا اليوم إذ قد لا تتوافر لي فرصة أخرى للتمتع بمثل هذا النوع من الصيد والقنص، وكنت متلهفاً للحصول على المزيد من المتعة منه، ولذلك عندما قدم الخان ممتلئاً ومبتهجاً اقترحت أن نبدأ على الفور بالتوجه إلى التلال. أراد مني أن أصطاد حيوانات صغيرة ولكنه استجاب بكل أدب لأفكاري مشيراً بضرورة الانطلاق مبكرين وقد أدركت هذه الحقيقة قبل ساعة. على كل حال، ركبنا على الفور وانطلقنا فوق السهل مصطحبين معنا هذه المرة سائق البغل كامبا الذي كان يخطو أسرع من أي حيوان.

لقد أطلق الخان إطلاقة طائشة لم تصب الغراب مما حفزنا لمواصلة المسير نحو التلال. سنذهب هذا اليوم مسافة أبعد من تلك التي وصلناها يوم أمس وسنمشي مترجلين فوق الجبال.

Twitter: @alqareah

وعندما مررنا على منظر المكان الذي جئناه بالأمس والغني بحيوان الموفلون، قفز الخان دون أن ينطق بكلمة وحَشا بندقيته واتجه إلى أسفل المنحدر على بعد مائة ياردة، ثم ترجل عن حصانه وصوب وأطلق وأسفل التلة تدحرجت حجلة. إنها تكفي إناءً واحداً ولكن وجبة من طيور الصيد تستحق مطاردة الغنيمة.

«سيف ليس هنا اليوم ولذلك سأنطلق إلى أبعد ما أستطيع» قلت بلغتي الفارسية المحدودة.

وبينما كنا منطلقين إلى الأمام أخبرت الخان بأني قد تركت قلنسوتي، فكان التعليق الفارسي المتميز ماذا تدفع؟ ثم تبع ذلك لمسة فارسية أخرى بعدما قابلت سائقاً يسوق بغلة ويدخن «شيبوك» أو غليوناً صغيراً إذ أوقفه صديقنا الذي كان أعلى مقاماً من السائق وسحب نفساً من الغليون وواصل المسير بعد أن قال «يحفظك الله» (على أية حال، لقد تعلمت ألا أفكر فيمن شرب أخيراً من قدح شاي فارسي).

انطلقنا صوب التلال وبعد قليل نظر الخان إلى الأمام وانفجر صائحاً «شيكار! شيكار!».

كانت هناك على قمة التلة المنعزلة أشباح ضئيلة باهتة. ومن خلال منظار الميدان اكتشفت بأنها حيوان الوعل ترعى غير مكترثة على حافة جرف. لقد استقر رأينا في الحال واتجهت إلى الجبال مشياً على الأقدام من جهة الشرق، ثم زحفت بهدوء إلى قمة مقابلة للجرف الذي كانت عليه الحيوانات في الوقت الذي كان فيه الخان يعدو ليلتف خلف التلة نفسها. سيحاول دفعهم واستفزازهم بطلقة حتى تتجه نحوي.

لقد مشيت ميلاً في الوادي بين التلال قبل أن أصل إلى القمة واخفي نفسي بحيث أتمكن من مشاهدة السهل ولا تتمكن الحيوانات من رؤيتي.

«لا آثار للوعول» لقد عاد الخان من نهاية التلة البعيدة بشكله

Twitter: @alqareah

الظريف والضئيل. توقف ثم أطلق العنان لحصانه فجأة وانطلق نحوي. «لم أشاهد فريسة». هل جاء يخبرني بأن الحيوانات قد اختفت.

اقترب مني ثم اقترب أكثر حتى سمعت حوافر حصانه، ومن ثم رأيت فجأة وعلى بعد ألف ياردة قطيعاً متناثراً من الحيوانات السمراء تركض خلال السهل وتتجه إلى الجهة الجنوبية مني.

لا مجال للتحرك الآن، استدرت بهدوء بحيث يكون السهل على يساري ثم انتظرت. هاهي قادمة وكانت ضربات حوافر الحصان أكثر صخباً من صوت حركتها وهاهي تدق الأرض لتكون على بعد ثلاثمائة ياردة. هل أجرب طلقة يائسة؟ ألقيت نظرة سريعة عليها. لم يكن هناك قرن بارز بينها ولذلك قررت ألا أفقد خرطوشة في الهواء، أما إذا حققت نجاحاً فإن الغنيمة لا تساوي ثمن الخرطوشة عدا عن احتلالها مكاناً لحفظ الأطعمة. وهكذا انتظرت جهود الخان كي يغلق الطريق عليها حتى صعدت على حافة الجبل واختفت بين الصخور.

هبطت حتى أقابل مضيفي الذي أخبرني بأني لو أطلقت النار بتأنٍ بالتأكيد سأصيب هدفي وكان قوله هذا مديحاً أكثر منه قناعة، ولكني أعتقد بأنه كان يرغب أن أحاول إطلاق طلقة واحدة.

ظهر الآن ابنه وركبنا جميعاً مسافة ميل حتى وصلنا إلى أسفل الأخدود المنحدر، حيث ترجلنا وقمت أنا والخان باختراق التلة تسلقاً جهنمياً حيث كانت أقدامنا تتزحلق على الحصى المفتت فنفقد توازننا. أخذ العرق يتصبب من جسمي ففكرت باكتئاب في مشكلة الحلزون الذي يصعد يومياً قدمين ثم يعود ليلاً لينزل قدماً، وفكرت ملياً متى سأصل إلى القمة.

لم يبق إلا جهد واحد فقط كي نجتاز الحافة، وكانت بادرة خير أن كان تحتنا منظر يفوق الوصف ولا يضاهى. لقد كان السهل مثل بحر واسع يمتد جهة الشرق وبعتمة شاسعة لا يقطعها سوى بقع

Twitter: @alqareah

صفراء تقبع فيها قرية صغيرة وتتلاشى في الأفق الضبابي الأزرق والقرنفلي المغطى بالثلوج حيث تقع خلفه مدينة «يزد». أما خلفنا وعبر الوادي الذي جئنا منه فقد برزت قمم مكسوة باللون الأبيض وكانت الشمس تسطع فوق التلال مما أعطى الثلوج لمعاناً وصفاءً فريداً. وعن يميننا ويسارنا امتدت سلسلة جبلية جرداء داكنة والتي نقف عليها ثم تنزل بانحدار سريع نحو السهول المجدبة تحتنا حيث كنا نشاهد خيولنا وكأنها بقع صغيرة.

توقفنا كي يلتقط الخان أنفاسه وحتى أمتع نظري وأروي ظمئي من المنظر الفاتن. وفي ذات الوقت أخذ الخان منظاري وأخذ ينظر إلى القمم التي حولنا. «لا شيكار» دمدم. ثم اتجهنا شمالاً على طول القمة الجبلية وبين الحين والآخر نتوقف لنأخذ قسطاً من الراحة ونتفحص المنحدرات الجرفية. إنه مسير شاق ومضنٍ وغير آمن ولكنه ليس محفوفاً بالمخاطر.

لقد قطعنا ميلاً تقريباً وأصبحنا فوق المنحدر الغربي المشمس، وعندما صرنا على الحافة تماماً، رأينا في وقت واحد وعلين يختفيان حول زاوية أمامنا. أحدهما كان له رأس جميل. قفزنا معاً واتخذت طريقاً لي في المنحدر الشرقي للتلة بينما اتجه الخان صوب الغرب حيث انطلق الوعلان. كان انطلاقي سيئاً للغاية ولكنني واصلت الحركة حتى شاهدت الخان فوقي على قمة التلة. أشار لي بالتحرك إلى الأمام فواصلت التقدم حتى صار التسلق أكثر صعوبة وإرهاقاً مما اضطرني إلى التراجع مرة أو مرتين حيث صرت معلقاً تماماً.

وأخيراً انتابتني نوبة مفاجئة من القلق. إلى الأسفل هناك مسافة تبلغ خمسمائة قدم لا بُدَّ من اجتيازها مع نتوءات لا تكاد تكفي لموطئ قدم، وهذه مغطاة بقطع صغيرة من الحجارة مما يجعلها متقلقلة ومحفوفة بالمخاطر. على كل حال بقيت متسمِّراً أنظر إلى الصخرة ولا أنظر إلى أي شيء آخر، وزحفت ببطء على الأرض الممهدة قليلاً حتى سمعت صخباً أمامي ولمحت شكلين يختفيان حول الزاوية.

Twitter: @alqareah

لقد قُطِعَ نفسي ولكني حاولت الثبات بقدر ما أستطيع في مكاني الآمن، وانتظرت لأرى فيما إذا كان بوسعي إطلاق طلقة عليهما. وبعد لحظة ظهر أحدهما عن بعد. لقد كانا اثنين وإني أُقسم على ذلك. وبينما كنت أفكر وبكل تأكيد ظهر فوقي وعلى بعد مائة يارده تقريباً وعلٌ يتسلق التلة. كان عليّ أن أطلق النار واقفاً وبدون انتظار للتأكد من حقيقة وجود الحيوان، وأعترف بأني يجب أن أطلق النار على أي شيء حي ومهما كان نوعه. واصلت التحرك لاهثاً لأتأكد من رد فعل طريدتي على الطلقة، ولكني تسلقت إلى الأعلى. أطلقت الخرطوشة وأعدت الزناد إلى مكانه ثم حشوت خرطوشة أخرى لقد أخطأته واختفى على الفور.

أعرف بأني قد أصبته ولكنه كان شيطاناً من الصعب الوصول إلى مكانه، وهكذا تراجعت.

عدت مرة أخرى إلى الأسفل والأعلى، لا أعرف كيف ولكن ما إنْ استقرَّت قدماي على الأرض حتى ارتجفت، إنه قادم، إنها المكافأة. لقد رأيت أخيراً وعلاً أمامي مباشرة، نعم لقد أصبته لأنه ترك أثراً من الدم وراءه. انحنيت إلى الأسفل ورغم حالتي المرهقة أطلقت رصاصة على كتفه فخر أسفل الصخور جثة هامدة. صاح الخان جذلاً بعد أن نزل من أعلى قمة التلة «الحمد لله»، وأشار بأنَّ الحيوان سيكون طعاماً دسماً.

إنَّ أي تقدم في رحلتنا بحثاً عن صيد سيكون عبثاً ولا طائل منه ومن أية محاولة لتسلق قمة التلال الصخرية، إذ سيؤدي ذلك إلى هلاكي المؤكد. وهكذا عدت لأجد الخان جالساً قرب ضحيتي.

قال بأنَّ علينا أن نأخذ الجثة إلى القمة ثم إلى الجانب الآخر، وبعد أن قدَّم لي البندقيتين انطلق والوعل يتدلى من على كتفيه. هل حاولت ذات مرة أنٍ تتسلق جرفاً وأنت تحمل بندقية في كل يد؟ إنها تجربة ليست سارة. لقد اعتمدت عدة مرات على الارتكاز على أخمص البندقية أثناء تسلقي الصخور أو عبور الأخدود لأقي نفسي شر

Twitter: @alqareah

التعثر والسقوط. لأنه لم يكن لدي يدان طليقتان وقد شعرت براحة لا توصف عندما وصلت أخيراً إلى القمة. كان الهبوط من الجانب الآخر مملاً ولكنه ليس خطراً، وأخيراً وصلنا إلى الخيول في الجدول الصغير إلى الأسفل.

أحمَدُ الله أنني أحمل قربة ماء. وعلى طول الطريق كان الأنبوب المطاطي لمصباح آلة التصوير يعمل على امتصاص الماء من القربة بينما كانت مشدودة على الحصان، حيث كان لابد من فك هذه الأحزمة في كل مرة نشرب فيها الماء. قدمت الاختراع الجديد إلى الخان وبعد أن مص الماء قرَّر بأنه غير صالح، وأعاده لي قائلا «لا أستطيع شربه» وهكذا لا بُدَّ من فك الأحزمة لنشرب من القربة.

ولكن لا وقت للقيام بذلك حيث من الضروري التمتع بصيدنا حتى نقوم برحلات صيد أخرى، ولهذا اندفعنا نحو محل إقامتنا عبر وهاد وبمحاذاة حصن فوق جرف شديد الانحدار حتى خرجنا إلى السهل من جهة الشرق. وهنا قفز أمامنا أرنب بري حيث أخطأناه «رأيته نائماً» قال الخان بعد أن ركب مرة ثانية. نعم رأيته نائماً تحت شجيرة، أتمنى لو كان لي مثل هاتين العينين.

وبعد ذلك بفترة وجيزة قفز أرنب آخر، أخذ يعدو بسرعة وحانت فرصة لإضاعة المزيد من الذخيرة من الفارسيين هذه المرة، ثم سرنا مسافة أطول وكان الليل قد خَيَّم وتلاشت التلال الأرجوانية وسط الظلام.

تناول الخان وابنه الشاي وقدَّمت له بعض الخراطيش. أراد أن يعرف اسمي بالكامل ولكنه لم ينطق إلا «ويليموس»، أمَّا أنا فقد تعرفت على اسمه الكامل «أكبر خان من سورمك».

قبل العشاء غادرنا، وهكذا انتهت (دعنا نأمل في الحاضر) تجربة الصيد الكبيرة وتعرفي على أظرف رجل وأفضل صياد عرفته في بلاد فارس.

Twitter: @alqareah

20

حادثة «الباب» وأشياء أخرى

«الأشياء الغامضة ليست بالضرورة معجزات».

غوته

قبل خمسين عاماً، سنحت الفرصة لرجل بتنفيذ معجزة حقيقية ثابتة ومن الدرجة الأولى.

ففي منتصف القرن التاسع عشر وفي بلاد يتم فيها نسيان أسرار وأحجيات الشرق ولا تعرف فيها العجائب الغرب، تتبدد الطبيعة البشرية وتستحيل فراغاً، ثم تبعث من جديد حية مماثلة لما كانت عليه وبدون أدنى شك. إذ بعد اختفاء مثير ومطلق، تعود مرة أخرى متى وأينما شاءت ليس لمدة ساعة أو يوم وإنما لما تبقّى من الحياة الطبيعية. والأكثر من ذلك، أنَّ الفكر الديني في الشرق متأثر على نحو عميق بهذه المعجزة، لأن بطل هذه المعجزة الدينية الممكنة هو نفسه النبي الغيور والقوي لهذه الجماعة الدينية. فهذه الأمة المضطهدة والشجاعة في آن واحد بَشَّرت بعقيدة أكثر تقدماً وجاذبية من سلفها، ولهذا لاقت الدعوة الإسلامية تشجيعاً واعترافاً مقدساً بسبب الأعمال الخارقة لنبيهم، والتي لا يمكن قهرها أو الشك فيها ليس فقط في بلاد فارس ولكن في بقاع أخرى أشمل وأوسع.

ساد كلُّ هذا في القرن التاسع عشر. لكن المعجزة بحد ذاتها

Twitter: @alqareah

غير قابلة للتحقيق، إذ بعد فترة وجيزة من التردد، والحركة الخاطئة ينتهي الأمر، وما يمكن تسميته حادثة جوهرية لعقيدة قوية يصبح خاتمة عملية لاهتياج طائفي لا أهمية له.

وإن الرجل الذي سنحت له الفرصة الفريدة من نوعها للقيام بالمعجزة الخارقة بسبب اختفائه وبعثه من جديد كان «الباب»، حيث ما يزال أتباعه ومريدوه يتمركزون في «أباديه» وهي قرية صغيرة سافرت إليها من سورمك أثناء رحلتي هذه.

كان «الباب» هو لقب «الميرزا علي محمد» وتعني «البوابة».

لقد ادعى هذا النبي كغيره ممن سبقوه بأنه الباب المؤدي إلى الطريق الممتاز نحو السماء، حيث تحوَّل من التجارة إلى معالجة وشفاء النفوس، يقول الأستاذ «جاكسون» بهذا الصدد «كانت آراؤه الدينية شاذة نوعاً ما حيث استندت عقيدته على إيمان باطني بوحدة الوجود (أي أن الله والطبيعة شيء واحد وأنَّ الكون المادي والإنسان ليسا إلا مظاهر الذات الإلهية) إضافة إلى الاعتقاد بأنَّ المادة شر وأنَّ الخلاص يأتي عن طريق المعرفة الروحية، كما كانت أفكاره ذات نظام أخلاقي وتحرري بحيث تضمنت خطوات نحو تحرير المرأة».

على كل حال، لن يَسمح الإسلام بمثل هذا النوع من العقائد، فعندما اتسعت دائرة هذا المبدأ وجذب إليه أعداداً من الفرس الذين التفوا حول المبشر به، هرع الملالي لتدارك الأمر والعمل على قطع دابر الفتنة من جذورها وقبل أن يستفحل أمرها.

لقد عَلَّمت الصراعاتُ وأعمالُ القمعِ المصلحين بأنَّ النار والسيف هما شعار المسلمين. ففي النهاية أُلقي القبض على «الباب» واقتيد إلى «تبريز» وحكم عليه بالإعدام أمام حشد كبير من الجمهور، فقد عُلِّقَ بحبل من على حائط فوق دكان في ميدان المدينة وقامت كوكبة من الجنود بالسير أمامه. ثم صدرت الأوامر بإطلاق النار عليه. وبعد لحظات عَمَّ الدخان مكان هذا المشهد المأساوي، وعندما انقشع الدخان لم يكن «الباب» موجوداً في المكان.

Twitter: @alqareah

ماذا لو أنَّ أتباعه ادعوا بأنه صعد إلى السماء بعيداً عن الأرض والحياة والشؤون العادية؟ وماذا لو أنهم ابتهلوا جذلين لأيام أو لأسابيع قليلة بعد عودة سيدهم المقدس؟ بكل تأكيد، إن التبشير ليس فقط لمدة ساعة أو يوم وإنما لما بقي من الحياة، وليس فقط لمناسبات محدودة وبعدد قليل من المستمعين والأتباع ولكن على نحو متواصل ولكل المهتمين بالأمر. ولكن بالنسبة لشخص لا يشك أحد بأنه قد أُعدم بالنار وعاد مرة أخرى ليبعث من جديد فإنَّ التبشير سينجم عنه تأثير مذهل على العقل الشرقي. وهذا ما حدث تقريباً.

عندما أطلق الجنود النار على من ادعى بأنه معجزة، أصابت الرصاصات الحبال التي كان «الباب» مربوطاً بها فسقط على الأرض سليماً لم يصب بأذى وتحت غطاء من الدخان، التجأ إلى دكان صغير واختبأ فيه، فلو كان لديه متسع من الوقت للتفكير والهرب من زقاق خلفي فإنَّ الحظ سيكون إلى جانبه ويساعده على النجاة من الخطر المحدِّق به وليجعل منه قوة في الحياة وقديساً طوال الزمن. ولكن عندما كان القدر يحدِّد مصيره، فإنه فَشِلَ في انتهاز الفرصة ومناصرة جهود القدر نحوه. إذ بعد أن أُصيب بالدوار بسبب سقوطه، مكث في الدكان حتى اُكتشف أمره واقتيد مرة أخرى ليطلق عليه وابل من الرصاص وليفعل فعله فيه وينتهي أمره.

وهكذا كانت نهاية الباب المفجعة، وهكذا فقدت الإنسانية معجزة لو أنها حصلت في أيامنا هذه حيث الاتصالات والصحف، لأُثبت بأنها حادثة مذهلة ولو أنها حدثت قبل ألف عام فإنها ستكون دليلاً قاطعاً وأزلياً على القوة اللاهوتية السامية.

وتعد «البابية» اليوم عقيدة حية ويدين بها الكثيرون في بلاد فارس وفي منطقة الشرق الأدنى، وحتى في أمريكا حيث يلجأ معتنقو العقائد المضطهدة.

بالإضافة إلى البابية، تتميز أباديه بعنوان آخر. ففي أسواقها

Twitter: @alqareah

يجلس رجال ينقشون ملاعق غريبة وصناديق رائعة من الخشب والتي تشتهر القرية بصناعتها، ويرتبط اسمها بهاتين المادتين وتتميز كذلك ببيوتها المنعزلة وسط الصحراء الجرداء التي ترتفع آلاف الأقدام فوق مستوى سطح البحر.

ليس لدينا ما نقوله حول دار استراحتنا التالية «شولجستان» سوى ذلك الحصن الطيني القديم والقبة الزرقاء المهدمة «لإمام زاده» والتي تقع خلفها كتلة ثلجية.

قادتني مسيرتي الثالثة من سورمك إلى مكان يستحق الذكر والملاحظة إنه «يزدي خاست».

يقول مثل فارسي قديم «تشتهر شيراز بالنبيذ ويزدي خاست بالخبز ويزد بالنساء» ولكن هناك أكثر من الخبز يمكن مشاهدته في يزدي خاست. في الحقيقة إنها من أكثر قرى العالم تميُّزاً وأروعها موقعاً. إذ عندما يتجه المسافر إليها من شولجستان يبرز خط ضئيل من البيوت الطينية أقيمت على السهل على بعد أميال قليلة إلى الأمام. يستمر المنظر حتى يصل المسافر على بعد مئات الياردات من القرية نفسها. ثم يشاهد الموقع الحقيقي لها. إنَّ مستوى القرية الطينية مع الأرض سيتغير فجأة إلى مجموعة من البيوت تشبه برج الحمام منتصبة فوق قمة صخرة هائلة تبرز مثل جزيرة في وسط واد ضيق ينساب أسفله نهير ربما كان ذات مرة أساساً لسيل جارف، وعلى كلا الجانبين ارتفعت التلال الصخرية مسافة مائة ياردة لتشكل جداراً للوادي الصغير الذي تغمره الحدائق والمساحات الخضراء الخصبة الغائرة تحت مستوى السهل.

في الواقع يمثل المنظر بأكمله ثغرة غريبة مبهجة وسط الصحراء الجرداء الرتيبة، وإلى أسفل ممر منحدر يصعد إلى التلة الصخرية. اتخذت طريقي إلى أعماق الوادي وركبت حصاني عبره نحو القرية الصغيرة، كنت متقدماً على بغالي لذا قضيت الوقت في اكتشاف المكان حتى وصولها.

ونتيجة اكتشافاتي هذه وجدت مدوَّناً في مفكرتي:

Twitter: @alqareah

تتصل هذه القرية البديعة بالبر الرئيسي بجسر صغير وتتكدس فوق الجزيرة الصخرية صفوف من البيوت الطينية وتحتها توجد كهوف لتربية الأغنام. وفي القرية شارع واحد أو زقاق أكثر منه طريق يشبه إلى حد كبير الأنفاق تحت الأرض في وطني. وتتفرَّع من هذا الشريان الرئيسي أزقة أخرى تنتهي إلى أعماق مظلمة وصاخبة. ذهبت إلى المسجد حيث توجد لوحة منقوش عليها بالحروف العربية، ثم صعدتُ إلى السطح حيث واجهت منظراً في غاية الروعة. ثم تبعني حشد من الأولاد أعجبتهم آلة التصوير في يدي فكان علي أن أستدير حتى أتخلص من هذا الحشد وأفرغ لمشاهدة المنظر وأتمتع به.

ثم نزلتُ إلى الخارج مرة أخرى حتى تجمَّع حولي الصبية وقد أصرَّ رجل على تفريقهم ومتابعتي وكأنه مرافق لي فقدمت له كرانين، ثم ذهبنا إلى شابرخانة أسفل القرية. لقد وصل سيف تواً وبعد برهة وجيزة شاهدت بغالي على القمة المقابلة للقرية.

وفيما بعد:

خرجتُ إلى السطح الطيني عند الشفق. لقد كان مساءً بهياً وكان الصقيع يخطف الأبصار بجاذبية، وكانت السماء منسجمة في ألوانها الخضراء والزرقاء مع عتمة التلال المكسوة بالثلوج التي كانت تقاوم في وضوحها غروب الشمس وأفول أشعتها، وإلى الأعلى كانت تشهق قلاع يزدي خاست مثل سفينة حربية مدببة المقدمة تطل على الوادي وفيها صفوف فوق صفوف من الفتحات، وعلى مسافة بعيدة عنها توجد مسارب وتجاويف عديدة وحصن للسلاح.

حَلَّ الظلام واستمر المشهد يتراءى أمامنا مع خرير الماء المنساب من الجدول أمامنا شاقّاً طريقه عبر يزدي خاست باندفاع خلال الليل.

لقد علَّمتني التجربة في مثل هذه الحالات شيئاً واحداً وهو ألا تستيقظ من فراشك قبل أن يقوم رجالك بتحميل البغال لأن ذلك يعني

Twitter: @alqareah

البقاء واقفاً في البرد القارس، أما إذا نهضت في الوقت الذي يقومون بتحميل الحيوانات وقد وصلوا في عملهم إلى المادة الأخيرة حيث أكون قد انتهيت من تناول فطوري ويكونون قد أتوا على تحميل آخر بغل، فهذا هو عين الصواب والحكمة.

تضمَّن تفكيري حول الترتيبات الداخلية أن أدوِّن في مفكرتي بعض المبادئ حول رحلتي في هذا الوقت.

بعد أن أكدت على ضرورة الحصول أولاً على معرفة دقيقة عن كيفية القيام بعمل أي شيء قبل محاولة مراقبة الآخرين في العمل، واصلت كتابة مذكراتي:

عندما تكتشف ذات يوم أفضل طريقة لعمل شيء سواء بوساطة الآخرين أو أن تقوم به بنفسك فعليك الإصرار على القيام بهذه الطريقة الفضلى.

لا تكن قاسياً على الآخرين من مرؤوسيك ولكن عندما تقرِّر ما هو الأمر الصواب والمنطقي فلا تتجاوز أو تنتقص عن هذا المقياس. يجب ألا تكون حاداً ولكن عليك في جميع الأحوال أن تكون مراقباً فقط.

لا تبدو قلقاً وتعامل مع الأمور بروح مرحة ولكن كن حازماً وعقلانياً. وعلى العموم، عليك أن تدرك بأنه إذا كان المحيطون بك مؤمنين بأنك عادل ومنطقي ومحق ولديك وعي منبثق من معرفة وتجربة لا من عناد أحمق فإنك ستحرز ثقتهم وسيقومون بواجباتهم تجاهك على نحو أفضل. وسيخلصون في عملهم إلى أبعد الحدود.

في الصباح توجهت إلى مشهد. كل ما حدث لي هو مقابلة الدرويش. لم يكن مفزعاً وكانت مقابلتي معه ودية وسلمية، فقد كان نموذجاً تقليدياً للرجال المقدسين من الطبقات الدنيا في بلاد فارس، وكان يصحبه غلام صغير وحمار أصغر كان يركب عليه دون شفقة أو رحمة. بطبيعة الحال طلب نقوداً ولكن يبدو أنه لم يأبه إذا لم يحصل عليها، ثم انطلقنا معاً نتبادل أطراف الحديث بقدر ما سمحت

Twitter: @alqareah

لي به معرفتي البسيطة باللغة الفارسية. وفجأة انفجر الدرويش محدثاً ضجة وصخباً والذي لم يمكن أن أسميه غناءً. لم أكن أدرك ما يفعل أو ما يقول وهكذا نزلت لأطعم الحصان وأطعم نفسي. ولسوء الحظ يبدو أنَّ ذلك جذب الرجل الصالح على نحو غريب، إذ قضى ربع ساعة يراقبني ويحدق فِيَّ بينما كنا نأكل الشوفان والبسكويت ويقبع إلى جانبي الكلب الذي كان يلهث ويرفض الابتعاد عني طوال الطريق.

وصلنا مدينة مشهد وهي عبارة عن مجموعة متراصة من الجدران الطينية وفيها «شابرخانه» المنعزل عن بيوتها والذي كان مؤثثاً بطاولة وكرسي، والذي جلست عليه لأكتب مذكراتي هذه. كان الكلب يبدو مريضاً وكنت أخشى بأنه قد أرهق نفسه.

وفي كوميشاه محطتنا قبل الأخيرة للوصول إلى أصفهان صادفت مفتشاً كريماً من دائرة التلغراف الذي احتفى بي بكل صدق وزوّدني بأخبار عن العالم الخارجي. على أية حال، عندما يسافر الإنسان إلى مناطق صحراوية دون حصوله على أخبار فإنه يتوقع أن يكون العالم الآخر مستقراً وساكناً ولا يهتم كثيراً بما يحصل فيه. وعندما يصل إلى مركز حضاري يكتشف بأن حدثاً خطيراً قد وقع دون أن يعلم، وفي هذه الحالة تتساوى دهشته مع عدم اكتراثه لأن هذه الأمور ليست ضمن عالمه الخاص.

كانت هناك في الواقع أنباء حين وصلت إلى كوميشاه. وقعت حوادث هائلة لأرواح الناس، ولكني أتذكر بأني سمعت بعدم اكتراث عن حوادث نشرت بالتفصيل في صحف لندن الصباحية وأثارت القلق لدى قطاعات واسعة من الناس. إنه لأمر غريب أن يعيش الإنسان حياته مقطوعاً عن العالم حوله ولا يشعر بالأسى لفقدان هذا الاتصال. فهذا يغري المرء كي يفكر بأنَّ كتاب الشعر الكائن تحت فرع نظرية الحياة ليس باطلاً، وأنَّ الصحيفة اليومية وأسلاك التلغراف هي مجرد شياطين في الجنة الدنيوية. وهذا، على أية حال، متطابق مع رأي الإنسان في بلاد فارس وليس في إنكلترا.

Twitter: @alqareah

فخلال الأزقة المتعرجة ذات الجدران الطويلة، يجلس المتسولون تحت الشمس بمحاذاة القبب الزرقاء للمسجد، وبعد أن خرجتُ إلى السهل مرة أخرى اتخذت طريقي في اليوم التالي لأكمل مسيرتي الأخيرة تلك التي ستنهي رحلتي الحالية على الأقدام وعلى سروج الخيل.

وبعد ليلة سيئة كنت في غاية الإرهاق. عند منتصف الطريق الممتدة أميالاً طويلة اندفعت بالحصان إلى حجر منعزل على رابية واطئة، وهناك تمددت تحت أشعة الشمس في الهواء الطلق لأغفو ساعة.

لقد غفوت أروع إغفاءة في الهواء الطلق وتحت الشمس وبين المناظر الطبيعية، وكان نومي هذا أفضل من نومي في الليل تحت النجوم حيث تمتعت بالنعومة والوقار والنوم العميق. فبعد أن يتحوّل النعاس إلى حالة من اللاوعي الغامض والرقيق ويلاعب النسيم الخفيف عينيك تشعر بالخدر ورقة الإحساس حين تستيقظان من تحت الجفنين. وهذا النمط من النوم يعني أن تغوص في عش دافئ ولذيذ وناعم يغمرك بالراحة والسكينة بحيث إذا استيقظت لا تنتابك موجة عارمة أو اندفاع قوي إلى الوعي، وإنما إلى حالة انتقالية من الأحلام إلى التوازن اليقظ. وبعد ذلك لا تشعر بثقل الرأس ولا إغماض العينين أو تمدد للأطراف، ففي لحظة يصبح الجسم جاهزاً والعقل متقداً. إنه الأساس النقي للنوم، قشدة السلام والهدوء.

وهكذا نمت على قارعة الطريق أتوسد التراب وألتحف الهواء العليل حتى أعادني حصاني إلى العالم حين مسح أنفه بحجر قريب مني، ثم انطلقنا مرة أخرى ولكن ليس على طول الطريق وإنما انحدرنا إلى مجرى مائي صغير محاط بأشجار الصفصاف حتى لاحت لنا عن بعد أكواخ طينية وخانة «شاه عباس»، حيث اتجهت إلى «مايار».

Twitter: @alqareah

لم يكن ثمة «شابرخانة». وبعد أن قابلت «سيف» تركته ليجلب البغال وانطلقت سبعة أميال أخرى إلى مكان معزول في السهل حيث توقفت العربات لتبادل الخيول.

لقد كانت خانة كئيبة حقاً. ثمة غرفة طينية مظلمة حيث أشعلت فيها ناراً بينما كنت منتظراً القافلة. وفجأة حدثت ضجة في الخارج إذ وصلت عربة البريد. وهي عربة بدائية تجرها أربعة خيول تتوقف ربع ساعة أثناء ذهابها إلى شيراز. (يمكنك السفر مع عربة البريد برسائلك إذا رغبت في ذلك ولكن يُفضل ألا تفعل ذلك لأنَّ المرء بحاجة إلى الراحة أكثر منه إلى المراسلة).

وأخيراً وصلت البغال المتعبة، يا لها من حيوانات مسكينة وبائسة.

اعترضنا ممر صغير في مسيرنا الأخير إلى أصفهان، ولكنه لم يُسَبِّب لنا أي مشاكل نظراً لقلة انحداره وقربنا من الهدف.

قرب «مارج شابرخانة» التقيت ببعض الفرس حيث تحادثت معهم أحاديث متنوعة، وقاموا بالسؤال عن ثمن أي شيء بحوزتي وقد اعتبروا اقتيادي للحصان بدلاً من الركوب عليه إهانة شخصية. ففي بلاد فارس لا يمكن للمرء أن يدرك سبب مشي الرجل على قدميه إذا كان بمقدوره الركوب على حيوان. فالإنسانية هناك فضيلة لم تُكتشف بعد والنشاط رذيلة مجهولة. وعلاوة على ذلك ثمة شيء مفقود في الحاسة الفكاهية الفارسية، تلك الحاسة في إنكلترا تحول دون حصول الغرائب في ركوب الخيل وعلى نحو كبير. فإذا ما رأيت رجلاً في الخمسين من عمره طويل القامة وحسن الهندام يركب حماراً قصيراً بحيث تتدلى رجلاه لتصل إلى الأرض فإنَّ هذا المنظر يثير ملاحظات وتعليقات لاذعة، أما في بلاد فارس فهذا المنظر لا يستدعي تعليقات لأن المهم لديهم ألا يمشي المرء على قدميه.

وفجأة وفي وقت الظهيرة صعدت إلى قمة وكأن أصفهان ممتدة أمامي.

Twitter: @alqareah

إنَّه منظر من البيوت الداكنة والقبب الزرقاء تحيط بها حدائق ممتدة حتى تصل إلى السهل الفسيح الذي تحيط به على مسافة بعيدة جبال ثلجية شاهقة.

توقفنا قليلاً قرب جدول ماء لأمنح فمي وعيني فرصة الارتواء من الماء والمنظر البديع ثم دخلنا مدينة أصفهان.

Twitter: @alqareah

21

أصفهان

«بهذه الوسيلة أخذنا نظرة فاحصة على المدينة التي تحتل نصف سهل فسيح بمبانيها القليلة (إضافة إلى الأبراج العالية والمساجد وبوابات القصر) والتي يغلب عليها الطابع الصيني، ومع ذلك تبدو التلال على مقربة منها حيث عبرنا جزءاً من حقل فسيح قبل أن نلج بحفاوة إلى المدينة وسط صفين من أشجار الدردار على جانبي الطريق الممهد بمحاذاة جدول مائي، حتى اخترقنا شارعاً طويلاً أوصلنا إلى النهر».

تحدث تافيرنير عن «أصفهان، صفهان، أو صفان» كما ينطقها الفرس، والتي أكّد المسافرون إليها بأنها مدينة جميلة. ويسود الاعتقاد اليوم وبقدر ما يتعلق الأمر بالأجنبي بوجود المعاناة نفسها الخاصة بنطقها وكذلك النفور من الإذعان لرأي أولئك الذين يطلقون العنان لشهواتهم الخاصة حول المدينة.

أما بخصوص النطق، فهي لا تُنطق كما تكتب أصفهان. ولكن كلمة أصفهان هي الوسيلة التي تنطق بها وهي نفسها التي سأكتبها بها معتبراً ذلك أمراً مسموحاً به في حالة وجود اختلاف على نطق اسم معروف.

وبالنسبة للمدينة نفسها، فهي تستجيب كثيراً للوصف الذي سبق أن قدمه تافيرنير عنها.

Twitter: @alqareah

في حقبة زمنية ماضية كانت في الواقع عاصمة بلاد فارس. المدينة الملكية التي يقول عنها تافيرنير في أيامه بأنها كانت تشكل محيطاً لأصفهان وبضمنها الضواحي المحيطة بها، لكنها لم تكن مثل باريس حيث كان سكان باريس يفوقون سكان أصفهان عشر مرات.

ولكن النسبة تغيرت الآن إلا أن أصفهان بقيت كما هي بطبيعتها نفسها. فمنذ قرنين من الزمن كانت شوارعها ضيقة وغير مستوية ومظلمة في معظم أجزائها. ما تزال الرائحة الكريهة والمناظر القذرة والجدران الطينية نفسها حتى القلاع والمنصات والثكنات العسكرية والحصون فهي في حقيقة الأمر مدينة شرقية والمدن الشرقية عادة تحافظ على ميزاتها وخصائصها ولأكثر من مائتي عام.

إن الصرحين الرئيسيين في أصفهان هما جسر «علي فردي خان» الكبير الذي يمر من فوقه الطريق المؤدي إلى المدينة من شيراز، والميدان المركزي الفسيح (الميدان) حيث تتفرع عنه الأسواق الرئيسية. يعد الجسر بناءً فخماً يحتوي على صَفَّين من الأقواس ويمتد إلى «زند رود» العريض. ويبلغ طوله حوالى نصف ميل ومتكون من ثلاثة طوابق متميزة وكل طابق توجد فيه ثلاثة طرق منفصلة أمَّا الطابق العلوي فلا يستعمل الآن.

وقد تم عقد الممر السفلي ليخترق الأقواس المركزية السفلى، أما الطريق الأوسط فيشكل وسيلة النقل الرئيسية ويستخدم لثلاثة أمور ويتضمن على جانبيه ممراً مقنطراً، أما المتنزه العلوي الذي يخترق قمم الصف الثاني من الأقواس فلم يعد يستخدم الآن.

وهناك ما لا يقل عن أربعة جسور تخترق «زند رود» وتتميز جميعها بجمال أخَّاذ.

أذكر بأني خرجت عصر أحد الأيام لأتجول جنوب المدينة على طول النهر، وعندما اقتربنا من أحد هذه الجسور كانت الشمس ترسل أشعتها الذهبية وكان تأثيرها مذهلاً على نحوٍ لا يوصف، إذ

Twitter: @alqareah

كانت الأقواس تشع إشعاعاً ذهبياً خالصاً من مكانها الداكن، ويمتزج هذا الإشعاع بزرقة السماء بينما انتصبت على مسافة بعيدة سفوح الجبال المكسوّة بالثلج الأبيض المتألق من شدة الضياء.

بعد هذا المنظر الفائق الجمال، كانت طريقنا إلى الأسواق مظلمة عدا بعض الشهب التي كانت تلمع باهتة تُشَكِّل تناقضاً مع الظلمة المخيمة.

ومما لا شك فيه فإنَّ «ميدان شاه» كما يقول «لورد كورزون» يعد من أبرز وأهم الميادين في العالم، حيث يبلغ طوله خمسمائة ياردة وعرضه مائة وسبعين، وكل ما حوله يحيط به بإحكام، بحيث يشبه خاناً ضخماً. وتمتد على جوانبه أبنية طويلة منتظمة ويعقبها عدة مداخل مقنطرة على صفين، وفوق الأفق تنتصب قباب مزخرفة وأشجار الصفصاف الخضراء المعتمة. إنها صورة شرقية بديعة.

في العصور الغابرة كان هذا الميدان مشهداً لحالات عديدة من العربدة والمرح الصاخب. حتى في الوقت الراهن ما تزال المواقع الحجرية الثابتة التي كانت تستخدم لمباريات البولو (وهي لعبة رياضية شبيهة بالهوكي تمارس على متون الخيل بمضارب طويلة وكرة خشبية)، حيث كان اللاعب يرتعش عندما يفكر بالاندفاع السريع نحو الهدف.

كما كان هناك زمن تافيرنير ألعاب كثيرة أخرى «ففي وسط الميدان» يقول تافيرنير: «ينتصب عمود مُزَيَّن بالأشرطة أو سارية حيث يمارس الناس رياضة صيد الطيور، وعندما كان الملك يحضر لممارسة هذه الرياضة كان الناس يضعون قدحاً ذهبياً فوق قمة السارية، والذي كان عليه إصابته بأسهم. ولتحقيق هذا الهدف كان يتحتم عليه ركوب حصانه والإنطلاق بأقصى سرعة وليس مسموحاً له إطلاق السهم حتى يصل إلى العمود المزين بالأشرطة أو الأزهار، ثم يديرونه على كفل حصانه، وهذه العادة القديمة مأخوذة عن سكان «بارثيا» الذين كانوا يقتلون أعداءهم وهم على متون خيولهم المنطلقة بأقصى سرعة».

Twitter: @alqareah

ويصبح الكأس ملكاً للذي يصيبه ويوقعه على الأرض وقد رأيت بنفسي «الشاه سيفي» جد الملك الحالي يوقع ثلاثة كؤوس بعد أن أطلق عليها خمسة سهام.

ومن العمود المزيَّن وحتى المسجد توجد ساعة شمسية يتجمع حولها بائعو الدجاج والطيور، أما بقية الميدان جهة القصر فهو مكان نظيف دائماً وخالٍ من المحلات التجارية، لأن الملك يخرج عند حلول المساء ليشاهد الأسود والدببة والعجول والخراف والديكة ومخلوقات أخرى تُجلب إلى المكان.

وهناك بعض الألعاب البهلوانية يقوم بها بعض الممثلين بعد العشاء على مسارح معدة خصيصاً لذلك في الميدان، حيث يتجمع جمهور كبير عند حلول المساء لمشاهدة حركات بهلوانية مسلية وتمثيليات تمثل حيلاً ومناظر ساخرة ومضحكة. وبعد الانتهاء من تأدية أدوارهم يتقدم المؤدون لهذه الأعمال إلى الجمهور لطلب النقود حيث تقدم لهم المكافآت المناسبة لأدائهم.

وعبر النهر توجد مدينة «جولسا» الأرمينية. وفي مذكراته عن هذا المكان أعطى اللورد كورزون انطباعاً سيئاً عن شخصيتها وسكانها. إذ يقول بأنَّ «المكان ضيق مثل المعلف ومحصور ومحدد»، ولكن الصورة التي عَبَّرت عنها كلماته وخَلَّفت وراءها سلسلة من الأحياء الفقيرة والقذرة التي يجوبها المخمورون والمومسات ليست صورة صحيحة وعادلة. فعلى العكس من ذلك، فالشوارع منظمة تنظيماً جيداً والروائح ضئيلة والمحلات التجارية أكثر رُقياً من غيرها في المدن الفارسية الأخرى، أما السكان فهم في حالة صحية جيدة ويبدو عليهم الثراء وحسن الهندام ويلبس تلاميذ المدارس زياً موحداً وقبَّعة على الرأس، كما أن النساء اللائي لا يُظهرن وجوههن علانية وإنما يمكن رؤيتهن حين ينظرن خلسة من أبواب بيوتهن فهن في وضع جيد وممتع.

تتمثَّل خطيئة الأرميني في كونه يمتلك قدرة تجارية مثل

Twitter: @alqareah

اليهودي إضافة إلى خبثه وحبه لاكتساب المال واختزانه، ولهذا السبب فهو مضطهد في كل أنحاء العالم. ولهذا السبب أيضاً استحوذ الروس على أملاك وأراضي كنيسته، ولهذا أقدم الأتراك على ارتكاب المجازر ضدهم. فهو بدون شك يستحق التوبيخ وجشع إلى حد كبير وابتزازي، ومع ذلك فهو يكسب المال لأن قدراته العقلية أعلى من قدرات الآخرين. وهو يكسب ماله بطرق مشروعة. وبسبب هذه الجريمة فليس من حقه أن يعيش.

وفي الوقت الذي كنت فيه في أصفهان، سنحت لي الفرصة لمقابلة حاكم المنطقة «زيلي سلطان».

يعد زيلي سلطان من أهم الرجال المرموقين في بلاد فارس. إذ يحكي تاريخه أموراً خيالية كتلك الواردة في أحاديث «الليالي العربية» أو «ألف ليلة وليلة». فبعد أن مُنع من احتلال موقعه الطبيعي في خلافة ناصر الدين لكونه أكبر أولاده لأن أمه كانت من عامة الناس، عَمِل منذ البداية على بذل جهوده ليجمع بين يديه القوة والنفوذ اللذين يجمعهما من خلال المركز فقط. وإنما حَظي حكمه بالاحترام والخشية في جنوب بلاد فارس بسبب ذكائه وشجاعته وقسوته حيث امتدت سلطته لتشمل نصف بلاد فارس، كما أنّ الجيش الذي كَوَّنه اتّصف بالقدرة والكفاءة. وقد تعددت مشاريعه واتسعت سياسته واتسم بالعلم والذكاء والقوة والسطوة، ولهذا يمكن القول بأنه كان أعظم شخصية في بلاد فارس بأسرها.

لكن واحسرتاه! في بلاد الشرق ليس من الحكمة أن يرفع المواطن رأسه عالياً، ففي العام 1888 حلّ السقوط المفاجئ. فقد اقتطعت منه محافظة بعد محافظة كما حرم من جيشه كتيبة بعد كتيبة حتى انهار مجده وانحدر إلى الهاوية نفوذه، ولم يبقَ منه إلا النزر اليسير. فقد جُرِّد من قوته وسطوته وبقي مجرد حاكم أعزل لا حول له ولا قوة بدلاً من حاكم قوي يهابه الجميع. وقد أذعن لكل ذلك دون تردد حيث لم يستخدم قدراته العقلية وقوته ورجاله ليمنع السقوط، ولم يقم بأي عمل بعد خضوعه واستسلامه.

Twitter: @alqareah

فعندما ذهبت إلى أصفهان كان هناك حاد الذهن ومتقد الذكاء كعهده سابقاً، ولكن في خضم ظروف خارجية ليس رجلاً ذلك الذي يحكم الجنوب. أتذكّرُ جيداً اليوم الذي التقيت به. كان يوماً خريفياً ساطعاً حين اندفعت عصراً خلال الشوارع الضيقة والأسواق إلى «الباغ» أو الحديقة حيث سيستقبلني زيلي سلطان.

بعد فترة من الانتظار عند المدخل سمح لي بالدخول، حيث امتد أمامي رواق ضيق مثل مستنبت زجاجي محاط بالزجاج من كل جوانبه. وفي نهاية الرواق كان زيلي سلطان الممتلئ الجسم يجلس بوجهه الصارم والبغيض وشاربيه الغليظين وندبة على عينه اليسرى وشفتين سميكتين، ولكن المظهر الحقيقي قد ارتسم على وجهه ليمثل كل حياته إذ لم يكن هناك مظهر الشراسة التي يتسم بها الحكام الشرقيون وإنما علت وجهه سيماء المرح والحيوية. ولكن تبدو الشراسة من علو شأنه إذا ما أراد التعبير عنها، وقد أظهر لي أدباً مقروناً بذكاء وروح فكاهة. فقد أطلق النكات واستمع إلى نكات ودوَّت ضحكاته عالياً وقَدَّم الثناء والمديح وتحدث في السياسة. وقد فوجئت ودُهشت باهتماماته السياسية والأوضاع الحالية، وهو أمر غريب على العقل الفارسي العادي الذي لا يستوعب هذه الأمور، كما أبدى مهارة في مناقشة المشاكل خارج إطار مسرحها الحالي. لقد تمتَّع زيلي سلطان بعقل غربي إضافة إلى احتفاظه بأخلاقه الشرقية. فبلاد فارس أرض الأدب الملتزم والحريص. فالوسيلة التي يتم فيها القيام بعمل شيء هي أكثر أهمية من الشيء نفسه. إذا أردت أن تنجح في بلاد الشرق، يجب أن تكون قادراً على القيام بالأعمال البغيضة والمقبولة على حد سواء إضافة إلى تمتعك بروح المجاملة مع أعدائك اللدودين ومع أصدقائك الأوفياء.

وهكذا وبعد مناقشة الأمور السياسية، تحوَّل الموضوع إلى الأمور الشخصية الخاصة، حيث استفسر عن ملبسي وعن عمري، وعَبَّر عن ثنائه وإطرائه بحيث لم أكن في وضع يؤهلني للرد أو منافسته في إطلاق عبارات المديح. ثم جاء دور الصيد حيث كان

Twitter: @alqareah

سموه صياداً ماهراً كما ناقشنا رياضة الصيد الهندية، وأخيراً تجاذبنا حديثاً مقتضباً حول المعتقدات الخرافية.

كان زيلي سلطان على أهبة الاستعداد للقيام برحلة وهو أمر يتم في بلاد الشرق في مناسبة ميمونة ومبشِّرة بالخير «لم تخطر هذه الأمور ببالي» قال. «ولكن النساء والناس من حولي لن يدعوني أبداً حتى أحصل علي نجمة مبشرة بالخير أمامي، وأخرى على كلا الجانبين، وواحدة خلف الجبل، إضافة إلى ميزة معبرة وضحكة».

حان وقت المغادرة، وبدأنا مقدمات ضرورية لمغادرتي والتي استمرت دون تردد أو توقف.

أعتقد اعتقاداً جازماً بأنني لم أتأثر خلال سفراتي بمنظر مثلما تأثرت بمنظر هذا الرجل القوي المقتدر ذي الماضي التليد والإمكانيات الهائلة والقابع هناك منهكاً ذاوياً، مطلعاً على أمور حصلت وأخرى لم تحدث. وعن تفاصيل حياته، لم يكن لدي دراية بها. كل ما شاهدته وعلمته هو الرجل نفسه وكل ما بمقدوري التحدث عنه استنبطته وحصلت عليه من صفحات التاريخ ومن انطباعاتي أثناء المقابلة. فالتاريخ والانطباع يُظهران، على أية حال، شخصية مملوءة بالوعي والاهتمام وتستحق الاحترام وحياة حافلة بأمجادها العظيمة ولكنها بائسة في نتائجها وحزينة في نهايتها.

خلال مكوثي في أصفهان وكما كان في شيراز، كان من حسن حظي أن تعرفت على رجل قروي لم يقدم لي راحة وحسن وفادة فقط، وإنما كَرَّس نفسه بكل طيب خاطر لمساعدتي في الحصول على معلومات مما أضاف إلى خبرتي فيما يتعلق بالأخلاق والعادات الفارسية.

ففي بيته المضياف والمتميز عن غيره من البيوت في بلاد فارس قابلت مقيمين من الإنكليز لديهم معرفة متراكمة، وكذلك فرس يتسمون بالتهذيب والحرص طوال حياتهم من أجل إبراز سلوك

Twitter: @alqareah

ومواهب مواطنيهم. فالحفلات المحدودة والأحاديث الارتجالية التي تجري تحت رعاية مضيفي الكريم وبمشاركتي فعلت الكثير ليتبين لي الوجه الفارسي للحياة، وبطريقة لا تتم عادة لأي غريب أو مستطرق. إذ تغمرني السعادة والعرفان بالجميل حين أتذكر تلك الأيام التي قضيتها في أصفهان مع شخص كانت صداقته بي عاملاً لاقترابي من الوطن.

كما أتذكر مشهداً تقليدياً بسيطاً للحياة في أصفهان. بالنسبة لنا، بعد الاسترخاء عصراً في يوم وضاء، وفي ظل بذخ ظاهر لغرفة مؤثثة بالسجاد الفارسي الناعم الملمس والكراسي المريحة، دخل علينا مقيم إنكليزي بصحبة صديق فارسي. ألقى الفارسي التحية بمرح «ليلتكم سعيدة» عند دخوله وأخذ يتحدث معنا وكما هي العادة في مثل هذه الحالة باللغة الإنكليزية التي أثارت ضحكنا. ثم انتقل للحديث عن الدين والذي أتمنى لو أتمكن من إعادته. وأذكر أنه ردد خليطاً من الوصايا مبتدئاً بـ«يجب ألا أسرق، يجب ألا أعتدي على زوجة جاري» ومنتهياً بـ «يجب ألا أشرب الخمر حين يراني أحد». لقد اشتد النقاش بعد هذا الاندفاع ثم تجاذب الآخرون الأحاديث وقَدِمَ آخرون وبينهم رجل إنكليزي وأمير فارسي هو ابن زيلي سلطان. حيث قضينا تلك الأمسية التي ما أزال أتذكرها والتي لن تعود مرة أخرى. وهكذا تعاقبت الأيام الممتعة والبهيجة حتى قررت التوجه إلى طهران.

من أصفهان، ومن مسافة أبعد تجاه شيراز، أصبحت الطريق المحتملة والملائمة بسبب حركة المرور عليها ممهدة أكثر للعربات. وهكذا ومن أجل اختصار الوقت، قررت أن أترك بغالي هنا والقسم الأكبر من حاشيتي وبضمنهم سيف، إذ صرت الآن ملمًّا باللغة الفارسية بحيث أتمكن من فهمها بنفسي، وبوسعي أن أضع لوازمي واحتياجاتي في مركبة مكشوفة يستخدمها الرحالة عندما تكون رحلاته محدودة، ومن ثم أنطلق إلى طهران بصحبة خادم هندي واحد والكلب ستمبس وبعض الأمتعة الضرورية.

Twitter: @alqareah

بعد زيارتي إلى عاصمة بلاد فارس، كنت آمل العودة وأتخذ طريقي مرة أخرى صوب الجنوب من طريق آخر ربما إلى الأهواز، ولكن خططي تغيرت بعد ذلك، ومع كل أسفي لم أر أولئك الذين خلفتهم ورائي في أصفهان.

أصبح ضرورياً الآن عمل الترتيبات للحصول على «دورشكي»، المركبة المذكورة آنفاً، والتي سأتوجه فيها صوب الشمال. هذا النوع من المركبات ليس متوافراً دائماً، وعلى المسافر أن ينتظر حتى يتمكن من تهيئة أموره مقدَّماً للقيام برحلته. وأخيراً علمت بأن هناك مركبة يمكن الحصول عليها، وعند المساء قمت مكرهاً بحزم أمتعتي استعداداً للانطلاق مبكرين في صباح اليوم التالي.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

22

مائتان وخمسون ميلاً من المسير

«هيا يجب ألا نتوقف هنا
مهما كانت المحلات جميلة ومهما كان السكن مريحاً،
فليس بوسعنا البقاء هنا
ومهما كان هذا الميناء آمناً
ومهما كانت هذه المياه هادئة
يجب ألا نرسو هنا،
ومهما كان كرم الضيافة حولنا
علينا أن نرحب بها لفترة وجيزة».

والت ويتمان

إنَّ السفر بالعربة في بلاد فارس يثير الدهشة والمتعة كالسفر مع القافلة. بالنسبة للحوادث العادية على الطريق فإنَّ الطبيعة الفارسية سواء على هذا الطريق أو بالنسبة للمسؤولين عن الرحلة تضيف تنوعاً وشكوكاً قد يؤدي استمرارها إلى الإحباط إذا ما تفاقمت.

لا أعتقد أن بإمكاني القيام بوصف رحلتي التي استغرقت مائتين وخمسين ميلاً دون الرجوع إلى مفكراتي لأنهل منها.

نهضت عند بزوغ الشمس وبدأت في ترتيب أمور مغادرتي

Twitter: @alqareah

أصفهان. بطبيعة الحال، لم يكن ثمة عربة ولكن في الوقت الذي أنهيت فيه حزم أمتعتي وحوائجي وأصبحت جاهزاً وصلت العربة بعد تأخير ساعتين ونصف.

ولكن لا تتخيل بأني قد انطلقت على الفور فهذه ليست ميزة فارسية.

في الحقيقة إنَّ الأحداث التي تعاقبت هي من خصائص الأمة البارزة، ولذلك لا بُدَّ من ذكرها بالتفصيل.

أُخبرت الليلة الماضية بأن أجرة «الدروشكي» إلى طهران هي ثمانون تومان (أي ستة عشر جنيهاً إسترلينياً)، ونتيجة لذلك أخبرت الرجل الذي جلب العربة بأني سأدفع هذا المبلغ. ولكنه سرعان ما اعترض قائلاً بأن لا أحد يذهب في هذا الطريق بأقل من مائة تومان، وللتأكد من كلامه أحالني إلى «راسي بأنك» الذي كان نائماً ولا يمكن الاستفسار منه، على كل حال، لقد سببت له صدمة عندما أخبرته بأن «راسي بأنك» هو الذي أخبرني بألا أدفع أكثر من ثمانين توماناً.

ثم تخلى عن «راسي بأنك» وكرَّر القول بأن لا أحد يذهب إلى طهران بأقل من مائة تومان، ولكني عَلَّقت على ذلك بأنه أخبرني أن أجرة العربة بأربع عجلات ذات غطاء هي مائة وعشرون توماناً، وأنَّ العربة بعجلتين ومكشوفة مائة تومان، بينما ذهب صديق لي في العربة المغطاة بمائة تومان. ولهذا فإنَّ أجرة الدروشكي يجب أن تكون ثمانين توماناً.

بعد أن أطرق مفكراً اخترع قصة بأن ذلك الصديق سبق أن دفع مبلغاً أكثر في مرة سابقة ولهذا خفضوا له الأجرة هذه المرة، ثم أنهى كلامه بأن وسائل الراحة الموجودة في الدروشكي موجودة كذلك في «الكاليسكا»، وأنه من الناحية الواقعية لا فرق بين العربتين. ومن العبث سؤاله عن اختلاف الأجرة بين العربتين ولذلك ذهبت إلى مضيفي الذي كان نائماً وبكل رقة حضر ليشارك في النزاع. الآن عرض علينا الرجل نوعاً من الترخيص يقول بأن

Twitter: @alqareah

«العربة إلى طهران أجرتها مائة وعشر تومان». ويفسر هذا بقوله بأنَّ ذلك لا يعني الكاليسكا أو الدروشكي ولكن المتوسط بينهما هو مائة وعشر تومان. وعلى كل حال، وبعد أن ضاعت ساعة كاملة في جدل عقيم وافقت على الحل الوسط.

ثم ذهبنا إلى غرفتي لإتمام الصفقة ولكن حتى الآن فالأمور ليست على ما يرام، إذ اشتملت المصالحة بيننا علي احتمال عودتي إلى أصفهان وهو يريد أجرة الذهاب والعودة معاً، ولكني رفضت ذلك بطبيعة الحال. وقدمت له تسعين توماناً ولكنه رفض وتوقفت المفاوضات بيننا، إلا أنه وافق أخيراً على التسعين توماناً حيث دفعتها له وخرجنا. وهنا حدث شرخ آخر بيننا إذ قال بأن أمتعتي تفوق الوزن المعتاد فأخبرته بأني استأجرت العربة بكاملها وبإمكاني تحميل ما أشاء عليها، وأصرَّ على أن أحمل معي ما قيمته عشر مندات (المند وحدة وزن هندية تعادل 82 باونداً).

انزعجت ورفضت بإصرار أن أدفع توماناً واحداً، واستفسرت من سيف الله شاه عن موعد مغادرة عربة البريد وعن إمكانية السفر بها. كان لهذا تأثيره المطلوب حيث قال الرجل بأنه على استعداد لأخذي إلى أي مكان أرغب إذا ما قمت بعملية الوزن هنا، وفي تلك اللحظة أخبرني خادم مضيفي بأن الفطور جاهز. وهكذا قطعت الحديث وتركتهم يقومون بعملية الوزن وانطلقت. التحق بي مضيفي (وهو يلبس بيجامته) وبمجرد الانتهاء من تناول الفطور أخبرونا بأنَّ كل شيء قد تم على ما يرام. وأخيراً انطلقنا بعد أن واجهت صعوبة الركوب إلى العربة لكثرة المتسولين الملتفين حول العربة، وأديت التحية الوداعية لمضيفي ولسيف اللذين تركتهما ورائي ثم انطلقنا بخفة ونشاط نحو «شاهار باغ» يصحبني في العربة كيشنا والسيد ستمبس.

أعتقد بأنني الآن في طريقي إلى طهران، ولكن قد يكون هذا الاعتقاد خاطئاً إذ ما دام السائق فارسياً فمن المحتمل أنه لا يعرف الطريق. فبعد شهرين ونصف من الخبرة بهذه البلاد تولَّدت لدي

Twitter: @alqareah

قناعة أشعر بالخجل منها الآن لأني وضعت فيه ثقتي، فكانت النتيجة أننا وبعد أن غادرنا جذلين وسرنا مسافة ثلاثة أميال على الأقل اكتشفنا وبعد سؤال عرضي أنَّ سائقنا قد ضلَّ الطريق. وهذا يعني بطبيعة الحال أن نعود أدراجنا لنأخذ الطريق الصحيح، وعند الساعة الحادية عشرة أصبحت مدينة أصفهان تتضاءل تدريجياً خلفنا.

بعد هذا صارت المناظر والأحداث متشابهة وعادية. وقطعنا الأميال بضجر وإرهاق. فقد كانت البيوت الطينية لقرية «جيز» على مسافة اثني عشر ميلاً وقرية «أمير آباد» على بعد عشرين ميلاً مجرد مراكز للقاذورات والنفايات ولا تثير أي اهتمام.

لم أكن راغباً في السفر طوال الليل ولهذا قررت الإقامة في شابرخانة في «مورشكار» بعد قطع مسافة أربعين ميلاً، وملاحظاتي التي دوَّنتها تشير إلى انطلاقنا مبكرين صباح اليوم التالي من هذا المكان البائس والكئيب، وتقدِّم في ذات الوقت فكرة عن الظروف المادية للسفر بوساطة العربة في بلاد فارس.

رغم نهوضي المبكر وإيقاظي للآخرين في ساعة مبكرة أيضاً، كانت الشمس ساطعة عند مغادرتنا القرية بثلاثة خيول، ومن المفترض أن عربتي تجرها أربعة خيول ولكنها تَجُرُّ أحياناً بثلاثة وفي أحيان أخرى يجرها حصانان، حيث كان السائق (الذي يفترض به السيطرة على الخيول وفق ما هو معروف عنه في بلاد فارس) يمارس قوته المحدودة جداً من موقعه داخل العربة.

يبدو أنَّ سائق العربة هذه الأيام عاجز أكثر من المعتاد بينما يقود العربة بكل عنف داخل المدينة.

يمكنني أن أذكر ذلك إذا ما حصل ما لا يحمد عقباه مثل انحدار نحو حفرة أو ارتطام بحائط أو في حالة استدارة خاطئة، أو إذا ما قررت الخيول السير في طريق غير طريقنا الصحيح. ففي مثل هذه الحالات تُحَتِّم الإجراءات نزولنا عند وقوف العربة في المكان

Twitter: @alqareah

المطلوب ثم يعود السائق ليركب مرة أخرى وعليه القيام بذلك دون إزعاج الخيول. فإذا ما فعل ذلك فإنَّ الخيول تتجه إلى طريق آخر، وهكذا يصبح تكرار هذا الأداء ضرورياً. فالمناورة التي يجب القيام بها في مثل هذه الحالة إمَّا دفع العربة أو الخيول بقوتنا الجسمية، خاصة في حالة أي عطل أو كسر يصيب العربة وفي حالة صعودها تلة. فالإجراء المتبع أن يقوم بضرب الخيول بالسوط ضرباً مبرحاً حتى يدفعها إلى الحركة.

تتميز التلة عن المنحدر في كون المنحدر حاداً ويمكن النزول عنه بالوثب أما التلة فيمكن النزول عنها مشياً.

وحيث أننا محاصرون الآن بجدار صخري من الأمام فإنَّ على العربة العودة إلى الطريق ولابد من سحب الخيول معها، ولما كانت ثقتنا بقوتنا ضئيلة قام السائق بفك رباط أحد الخيول وطلب من كيشنا اقتياده إلى نقطة تبعد عن المكان عشرة أميال، ولم نكن على بيِّنة فيما إذا كان الطريق صالحاً أم لا. حيث سيخترق مرجاً فسيحاً مستوياً وقد سرنا فيه بعد ذلك فرحين بعد عناء ومشقة، وكان الحصان الثالث في انتظارنا ومن ثم واصلنا المسير.

مشينا أربعة فراسخ بثبات فوق السهل الذي كان يشبه شاطئاً رملياً أسفل الجبال حتى وصلنا إلى «نسمة آباد» حيث استبدلنا سائقنا بسائق أسوأ، والذي ما إنْ أوصلنا إلى باب الخان حتى أوقعنا في خندق كبير والذي تمكنا من الخلاص منه بعد أن قمنا بدفع العمود معاً وضرب الخيول على أنوفها. على كل حال، واصلنا المسير على نحو أسرع من السابق. وحيث إن الطريق امتد بنا بيسر وجاذبية فقد كان ما تبقى من المرج مريحاً وهذا بكل تأكيد شَكَّل تحسُّناً لرحلتنا.

سرعان ما انحرفنا نحو التلال، وبعد ثلاثة فراسخ وصلنا «تارج» حيث تناولنا كوباً من الشاي وبعض البسكويت وسمك السردين وقمنا بتبديل آخر للخيول، فقد استبدلنا حصانين

Twitter: @alqareah

وأصبحت الطريق سيئة للغاية هذه المرة. فقد أصبح لدينا حصانان لبعض الوقت، وعندما بدأنا الهبوط إلى «تارج» فك رباط الحصان الثالث وانطلق يعدو أمامنا، وعدنا مرة أخرى إلى الدفع من الخلف ومارس السائق استياءه بضرب الخيول بوحشية.

ما زلنا بين الجبال التي تصلح أن تكون أمكنة مناسبة للصيد مع أنني لم أشاهد شيئاً بدون نظارتي، حتى وصلنا بعد ثلاثة فراسخ إلى «أبيازان» وهو دائرة بريد قرب قبة بيضاء.

هنا تلقينا خبراً مثيراً بأنَّ الخيول قد اختفت. إذ يمكن استعادة بعضها خلال ساعات قليلة. هل سننتظر؟ قلت لا بالتأكيد لن ننتظر، أطعموا ما بقي منها وسنأخذها إلى المرحلة القادمة. وهكذا انتظرنا خمسة وأربعين دقيقة.

عندما واصلنا المسير، اكتشفنا رجلاً إضافياً في صندوق العربة سرعان ما عرفنا هدفه. عندما انحدرنا أسفل التلة كان هو الذي أرعب الخيول في الطريق الذي سبق أن وصفته. وهناك العديد من التلال ما تزال أمامنا. فنحن الآن وسط مشهد موحش ومقفر حيث تنتصب حولنا جبال كئيبة ومهجورة ذات حواف شاهقة، فتلك التي على يسارنا تُبَيِّنُ لنا المنحدرات الشمالية الشرقية المكسوة بالثلج، أما تلك التي على يميننا فهي مجرد جروف جرداء متموجة وتبرز أمامنا حافة صخرية مسنَّنة تنتصب حادة في الهواء تمثل حاجزاً من المستحيل تجاوزه حتى يستدير الطريق فجأة وينحرف نحو واد ضيق منحدر الجنبات. إنها صورة ذات بهاء أجرد وجلال باهت ومما زاد من وقعها ذلك الضوء الداكن حيث غارت الشمس خلف التلال وغطَّت الغيوم السماء التي انعكست على بعضها حمرة الشمس الآفلة إضافة إلى غلالة ضبابية خَيَّمت على المكان الهادئ. لم أكن آسفاً حين مررت عن سبع أشجار من الصفصاف تنهض جذورها اللامعة خلال الغسق مثل أعمدة معبد خرب، وعندما خَيَّم الظلام وصلنا إلى «خفر» بعد أن قطعنا ثلاثة فراسخ كئيبة. كان

Twitter: @alqareah

الطريق أمامنا مثيراً للقلق والإرهاق ثم صار مروعا ولذا مكثنا ليلتنا هنا.

انبلج الفجر في صباح اليوم التالي مرسلاً أشعته الذهبية فوق التلال الثلجية، وعندما سرت في الهواء الطلق تحت ضياء الشمس صادفني منظر في غاية الروعة والجمال امتد من الخط الفاصل لقمم الجبال إلى الجنوب فوق الوادي ليشمخ مثل شاطئ كبير إلى سلسلة جبلية أخرى ممتدة بعيداً نحو الشمال.

لقد كان سكان «خفر» كرماء حيث يعتبر الفرس من سكانها المرح والسرور وحسن الضيافة أكثر قيمة من الجشع والنهم واختزان المال، إذ أتذكر بأني دفعت للرجل الذي جلب كل طلباتي ولم يقم بأية عملية ابتزاز أو مضاعفة المبلغ كما اعتدت أن أدفع للمحتالين الذين يعتقدون بأنَّ «الصاحب» أي «الأجنبي» قد خُلِق ليدفع نقوداً لهم ويحصل مقابل ذلك على أقل شيء منهم.

اندفعنا أسفل التلة وبعد مائتي ياردة صادفنا توقُّف حيث اصطدمت العربة بحفرة طينية. خرجنا جميعاً وبدفع قوي للعجلات قام به كيشنا تمكن السائق من سحب الخيول بعد جهود مضنية، وبعد ضربها وركلها استطعنا أخيراً من التخلص من الحفرة وانطلقنا مرة أخرى إلى المركز البريدي في «ديها آباد» على بعد ستة عشر ميلا داخل الوادي.

حين توقفنا هناك جرى حديث بيني وبين فارسي مقبول وكيِّس الذي سألني عن الوقت ليحصل على فرصة يعرض فيها ساعة كان فخوراً بها، وبعد أن حملها ووضعها على أذنه ليتأكد من صلاحيتها للعمل مسحها برقة عدة مرات وقدمها لي طالباً رأيي فيها. كانت عقاربها تشير إلى الرابعة والنصف بينما كان الوقت الحقيقي العاشرة قبل الظهر. تذكرت في تلك اللحظة وبصورة ملحة الحفلة الصاخبة في «آليس في بلاد العجائب» وحين فتحت المؤخرة توقعت أن أجد أفضل الزبد في الداخل.

Twitter: @alqareah

بعد أن تجاوزنا مركز البريد في «المحمدية وجاز» لاح لنا منظر كاشان فوق الرمال المتموجة، وسرعان ما اتخذنا طريقنا عبر ممرات ضيقة والتي تُعتبر من أهم مراكز التجارة في عموم بلاد فارس. أما الشيء الممتع والمثير، على أية حال، الذي اكتشفته بخصوص كاشان هو الحديث الذي رواه عنها شاردان:

يقول: «إنَّ مدينة كاشان تقع في الهواء الطلق ولكنها حارة بحيث يصيبك الاختناق في الصيف، وسبب ارتفاع درجة حرارتها يعود إلى موقعها حيث تقع قريباً من جبل مقابل للجهة الجنوبية، وتؤدي عملية انعكاس الهواء إلى رفع درجة الحرارة في الفترة بين أوائل تموز وأوائل أيلول والتي تتميز بجوها القائظ الشديد هناك. وعلاوة على ذلك، ثمة أمر مزعج أكثر مضايقة وأعظم خطراً وهو وجود أعداد هائلة من العقارب في تلك المنطقة وفي كل الأوقات، وخاصة عندما تكون الشمس في برج العقرب وهي تسبب تهديداً خطيراً للمسافرين، أما بالنسبة لي (الشكر والحمد لله) فإني لم أر في كل رحلاتي وجولاتي في البلاد أياً منها كما لم أسمع عن ضرر أصاب الآخرين بسببها. يقال بأنَّ «عباس» المنجم الكبير اخترع عام 1623 طلسماً لتخليص المدينة من هذه الحشرات الضارة والطفيلية. ومنذ ذلك الوقت لم تظهر أبداً. ولكن ليس هناك دليل موثوق يؤكد صحة هذه الروايات التافهة وكل الأمر يتعلق بتداولها، وخاصة أمام المسافرين الذين يتوقفون في كاشان، إذ عليهم عند دخولهم الفنادق أن ينطقوا هذه الكلمات: أيتها العقارب أنا غريب لا تتطفلي علي ولا تسببي لي ضرراً. وبهذا لن تقترب العقارب منهم».

أمّا بالنسبة لي شخصياً فإني لم أمنح العقارب فرصة إثبات أو عدم إثبات دماثة خلقها، ولكن عندما غابت الشمس اندفعت نحو نصر آباد وآويت إلى دار الاستراحة الليلية في «صن صن» حيث كان ضوء القمر الساطع يغمر المكان بأسره.

وفي صباح اليوم التالي، ألقيت نظرة على جبل «ديمافند» الذي

Twitter: @alqareah

يشهق على ارتفاع «19000» قدم على شكل عملاق هائل وسط قمم سلسلة «إلبورز» الجبلية.

الطريق هنا لا يستحوذ على اهتمام المسافرين عدا رجال البريد الذين يجدون في هذه الجبال فرصتهم للصيد، ففي «صن صن» قام سائقي بجر حيوانين من زاوية كان قد اصطادهما، إنهما نوع من النمور كما أعتقد.

وهناك في الأفق البعيد الممتد أمامنا لمعت في ضوء شمس النهار بقعة ذهبية تبدو وكأنها نجمة معزولة أُقيمت وسط السهل لإرشاد المسافر المرهق. ترشده ـ نعم... إنها في الواقع ترشده ـ وفقاً للدين الإسلامي، ليس إلى نبيه فقط وإنما إلى الله، لأن هذه البقعة الذهبية هي قبة أعظم وأقدس جامع في قم.

مدينة قم هي واحدة من تلك المدن المشهورة بقدسيتها حيث يحتشد فيها الحجاج في رحلات دنيوية بهدف الفوز بالجنة، إذ يوجد فيها قبر «فاطمة» شقيقة الأمام العظيم والمقدس «الرضا» الإمام الثامن من الأئمة الأحد عشر. كما دُفن في قم أعداد كبيرة من القديسين والملوك والأمراء، ويشبه المكان دير وستمنستر في إنكلترا. وعلى كل حال، ترتبط القداسة والتمرد ارتباطاً وثيقاً في بلاد يتميز فيها رجال الدين بالقوة والشعب بالخرافية. وتعد قم أحدى الأماكن التي تخيف الملك الدستوري في المملكة، إذ قد تنبعث من هذا المكان المقدس في يوم ما نار الثورة التي ستكتسح البلاد كلها.

كبرت البقعة الذهبية وازدادت توهجاً، وأخيراً وبعد أن فككنا مختلف أمتعتنا وترجّل الأشخاص، اندفعنا عبر الأسواق البهية وشوارع مدينة القديسين.

أمّا مسجدها ذو القبة الجميلة والمآذن الصغيرة فلا يمكن تمييزه عن بقية المساجد الأخرى، وبعد أن ألقينا نظرة خاطفة على الأضرحة المقدسة، انطلقنا عبر الجسر الكبير الذي يمتد فوق طريق «رودي آناربار» إلى الصحراء مرة أخرى.

Twitter: @alqareah

عندما وصلنا إلى «المنزلية» خيم الظلام ولكن كان علينا أن نسير مسافة عشرين ميلاً قبل أن نأوي إلى الفراش. لذلك وبعد أن دعوت إلى التوقف من أجل الراحة وتناول الطعام والشراب، دخلت مقهى صغيراً حتى أحتسي كوباً من الشاي وأجرب لغتي الفارسية في مناقشة سياسية حول التأثير الروسي.

لقد كان النفوذ الروسي كبيراً في هذا الجزء من بلاد فارس وهو يستحقه بجدارة (ما دام الروس قد فعلوا كل ما في وسعهم لإدخال الحضارة إليه) ومع ذلك فإنَّ السكان لا يحبون الروس كثيراً، وليس هذا إلا دليلاً على وجود روح وطنية لدى المواطن الفارسي الذي يرغب أن يحكم شعبه بلاده دون تدخل من القوى المجاورة له.

إنَّ هذه العاطفة سواء كانت موجهة ضد الروس أو الأتراك أو الإنكليز هي طبيعية تماماً وتستحق الثناء المطلق. وهنا كما أعتقد يكمن الحل لإحدى المشاكل المستعصية في الشرق الأدنى، ولا مصير أفضل سواء لبلاد فارس أو لبقية العالم يمكن تحقيقه أو الوصول إليه إلا على أساس هذه الروح حتى ينهض بلد مزدهر وشعب مستقل.

أذكر أنَّ أهم شيء استرعى انتباه صديقي الفارسي في المقهى المعلومات التي ذكرتها عن الراتب الذي يتقاضاه الجندي الإنكليزي، حيث أصيب بالدهشة وبالذهول إذ أن أصدقاءه من الجنود لا يتقاضون رواتباً، ويحصل الواحد منهم على بدلة واحدة كل سنة. فالأجور على العموم نسبية إذ أنَّ الشلن الإنكليزي يومياً يعد ثروة بالنسبة للفارسي الذي يتقاضى «تومي» واحد فقط. ومع ذلك فإن بلاد فارس ليست إنكلترا.

الآن، أصبحت الخيول جاهزة وقد انتعش السائق، وبعد وداع قلبي حار من صديقي الجديد انطلقنا مرة أخرى.

Twitter: @alqareah

أما نهاية هذا المشهد لرحلتنا الطويلة هذا اليوم فإني قد عَبَّرت عنها بهذه الكلمات.

بعيداً سرنا خلال الليل وثرثرنا والقمر المتلألئ والنجوم الساطعة فوقنا، وواصلنا القهقهة والصخب في مسيرة العشرين ميلاً الأخيرة حتى أصابني الدوار والنعاس رغم اهتزاز العربة العنيف وحركتها المتثاقلة. شعرت بالنسيان المطبق وفجأة نهضت على اصطدام وارتطام وحركة تمايل عنيفة، ولكن ما يزال الضوء باهتاً والطريق الأبيض لا ينتهي. كان كيشنا يقبع نائماً عن يساري والسائق نائم في صندوقه وأعتقد بأنَّ حصانين على الأقل قد استغرقا في النوم أيضاً. أيقظت السائق ولكنه سرعان ما عاد إلى نومه مرة أخرى، وهكذا اندفعنا في سيرنا خلال الليل حتى وصلنا أخيراً إلى محل إقامتنا قرب مركز البريد في «خوشك».

نظرت إلى الخارج وبعيداً أسفل الوادي امتد بحر داخلي شاسع وسط الليل البهيم ويبرز قريباً منه جبال تنفجر منها عيون ماء تكوِّن جدولاً ينساب قرب أقدامنا. ومن هنا وفي ضوء القمر الساطع يمكن رؤية منظر فارسي رائع.

في السبعة عشر ميلاً الأخيرة من رحلتي إلى طهران لم أصادف أية مغامرات أو مفاجآت أو ما يثير الانتباه.

في «قلهي محمد علي خان» التي يبلغ حجمها حجم اسمها كان أطول منظر لعملية صيد السمك بالصنارة أثار اهتمامي طوال حياتي السابقة. لقد كان سائقنا وقحاً وكسولاً، ولكن في «حسين آباد» تنازل رجل أنيق فظ يلبس قبعة عسكرية مزدانة بريشة ليستعجله (اكتشفت بأنه قادم من تفليس وأعتقد بأنه ليس فارسياً حقيقياً).

وبعد صعود طويل وشاق ظهر أمامنا سهل فسيح ورأينا مدينة طهران تقبع عن بعد تحت الجبال الثلجية. لم يبق أمامنا الآن سوى مرحلة واحدة تمتد من «قاهرزاق» حتى هدف رحلتنا ولمسافة عشرين ميلاً فقط. ولكن وبالرغم من إصرار سائقي السابق فقد قَدَّرَ

Twitter: @alqareah

لنا، وكما يقول الفرس، أن ننتزع كأس الحقيقة من شفاه الحدس. إذ اندفعنا بسرعة، شَجَّعتُ عليها بتقديمي مكافأة إذا ما قطعنا المسافة في ساعة ونصف، ولكن السائق المتعب والراغب في المكافأة قال بأنه لا يستطيع التحكم بالخيول. ولكني أخيراً أغريته ببذل جهد إضافي إذ أقوم أنا في البداية بقيادة العربة لعدة ياردات لأتأكد بنفسي من قدرتها (اكتشفت أن من السهل قيادتها والتحكم بها إذا ما سُحِبَ اللجام على نحو جيد). وعند اصطدامه بجسر رفض السائق التقدُّم قائلاً بأن الخيول لا يمكن التحكم بها وعلينا البحث عن خيول أخرى، وبعد تأخير حسمنا الأمر.

وعندما بدأنا منطلقين بسرعة جنونية إلى الأمام باءت محاولات السائق لإيقافها بالفشل. وعلى كل حال حالما اتجهنا في الطريق الصحيح أثبتت الخيول بأنها حيوانات ممتازة، وبعد ساعة ونصف كنا تخترق شوارع طهران المتحضرة نسبياً.

Twitter: @alqareah

23

الشرق والغرب

«الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا».

روديارد كيبلينغ

قصيدة الشرق والغرب

إنَّ المكان الوحيد الذي وجدته مناقضاً لما قاله الشاعر حول استحالة الانسجام بين الشرق والغرب هو موسكو، حيث يتمثل هناك الاندماج الغريب بين الشرق والغرب والذي جعلني أشك بصحة هذا القول. ولكن الانسجام في طهرانٍ جيد فهي تجمع بين الشرق والغرب ولكنه ليس مزيجاً، فالخطّان متوازيان ويمتزجان قليلاً مثلما تلتقي مياه النيل الأبيض بالنيل الأزرق. فهناك خطوط الترام الغربية وهناك الأسواق الشرقية. وثمة دلائل حديثة غير منسجمة تنبعث من البيوت الطينية الصغيرة. وفيها طرق أوروبية تصطف على جوانبها بيوت آسيوية وتمتد إلى تراكمات شرقية من الأكواخ وأكوام النفايات. وتشتمل على بوابات متلألئة ذات زخارف باهرة وأعمال فنية رائعة ونماذج مبهرجة على أرض طينية داكنة، وحول الزوايا تتكدس القاذورات وتنبعث الروائح وتُرتكب الأعمال المروعة والتي تميز أية مدينة تقع شرق السويس.

إنَّ الرجال البيض الذين يرتادون المراسم في لندن أو

Twitter: @alqareah

صالونات باريس يمسحون أكتافهم بالغوغاء والرعاع الذين يحتشدون في الأزقة والأسواق، وتنتصب البيوت الحجرية المزخرفة وسط الحدائق الفارسية. إنها خليط لكنها ليست مزيجاً. فالشرق هو الشرق والغرب ما يزال هو الغرب.

وحول هذا الموضوع، هناك انطباع مضحك بخصوص ملك من أكلة لحم البشر الذي زيَّن نفسه بقبعة على رأسه وسترة طويلة كرمز لحضارته، ولكنه نسي أو تجاهل الثياب الأخرى. على العموم ليس هذا نجاحاً.

ليس هناك من شك، على أية حال، فإنَّ الشرق يسود في طهران. فالمظهر العام شرقي تميزه القباب الزرقاء والجدران السمراء والأشجار المنتشرة هنا وهناك في معظم المدن الفارسية.

ليس ثمة حاجة لوصف المدينة، فقد تم وصفها بالتفصيل وأكثر من أي مكان آخر في بلاد فارس، ولكن عندما كنت في طهران كانت الحفاوة التي قدمها مضيفي ورقته المتناهية قد جعلت من إقامتي مفيدة ومبهجة في آن واحد حيث هيأ لي الفرصة لرؤية العديد من المظاهر والاحتفالات والحوادث التي كانت مثيرة لاهتمامي.

كانت أولى هذه المظاهر التضحية بالجمل ويصادف هذا التقليد إحياء ذكرى التضحية على جبل «موريه»، وبسبب أهميته الدينية كان رجل الدين المنفذ لا يقل جلالاً عن الملك. يقول لو بروين بهذا الصدد: كان رسول المحكمة أو الملك نفسه يوجه الضربة الأولى مستخدماً رمحاً طويلاً ثم ينهال عليه بسيف وحيد الحد، وبالسكاكين. وبعد ذلك يتم تقطيعه إلى قطع ويوزعونه على الضباط في مختلف أنحاء المدينة، وحيث إنَّ كل فرد يروم الحصول على نصيبه، مما يؤدي إلى حدوث اضطرابات يقع ضحيتها كثير من الموتى في المكان. مثلما كانت تحدث في ذلك الوقت إذ يذهب كل فرد مسلحاً إمَّا بسيف أو بالهراوات ويتواجد حشد كبير من الخيالة يستحيل تفريقهم.

Twitter: @alqareah

لقد دفعتني هذه الحادثة للاطلاع على ما يجري في طهران خلال زيارتي لها. فقد كانت شوارعها مكتظة بالمارة في يوم عطلة عامة وقد وجدت صعوبة في اتخاذ طريق لي بين حشود الناس بينما كنت راكباً على ظهر حصاني.

الجماهير هي نفسها في كل أنحاء العالم ولكن الجمهور الفارسي له خصائصه المميزة. فالملابس النسائية ترتبط بنفور الرجال الشرقيين وعدم مبالاتهم بحيث تكون حركة الفرد في غاية الصعوبة.

وعندما وصلت إلى هدفي، إلى بيت على جانب الميدان حيث سيجري احتفال التضحية، قادني فرّاش إلى الطابق العلوي وأدخلني غرفة صغيرة تطل على الساحة الفسيحة إلى الأمام. كانت هذه الساحة تكتظ بالناس الذين قام بعضهم بالتسلق والبعض الآخر مايزال يواصل تسلق الأشجار التي تحيط بالميدان، وفيما وراء ذلك احتشد عدد كبير من الفرس، وبين الحشدين وُجِد الممر الخاص بالموكب.

حضر في البداية بعض الجنود الفرس (مسيرة عسكرية هي الكلمة المناسبة لوصف طريقتهم في السير) يسيرون حسب دقات الطبل ثم دخل بعض الفرسان على ظهور خيولهم، والفرقة النحاسية التي كانت تطلق أصواتاً صاخبة يعتبرها الفرس موسيقى. ثم حضر بعد ذلك آكلو اللحم يلبسون قبعات غريبة مزينة بريش الطيور. وبعد ذلك أُدخل البطل البائس لهذا الاحتفال وهو الجمل الذي لُفَّ بغطاء أحمر مزركش، ولا يدري شيئاً عن الفترة الوجيزة الباقية من حياته. وخلفه تقدم الجلاد يلبس الملابس الحمراء لأسباب واضحة، وأخيراً احتشدت مجاميع على ظهور الخيل والبغال والحمير ومن لم يركب على وسيلة أخرى وقف على قدميه. لم أشاهد التضحية الحقيقية التي وقعت على بُعد مائتي ياردة من الطريق ولكن بعد انتظار دام ربع ساعة، عاد الموكب نفسه مرة أخرى ولكن بدلاً من الجمل كانت أجزاء مقطعة تُحمل على أسنة الرماح وفي الأيدي، ويُعتقد بأن الفرد

Twitter: @alqareah

الذي يحصل على قطعة من الجمل سيكون محظوظاً السنة القادمة، وهكذا قُطع الجمل إرباً إربا. الآن انتهى الاحتفال وتفرّق الجمهور وتمت طقوس التضحية.

أمّا الحادثة التالية التي كان لي نصيب في حضورها فهي الاستعراض الملكي في القصر نفسه، وسأُقدِّم تقريراً عنها مما كتبته في مفكرتي:

حوالى الساعة الحادية عشرة صباحاً توجهنا بصحبة مرافق إلى القصر، وعند وصولنا أُدخلنا إلى حديقة ذات أشجار باسقة وأحواض حجرية تزينها على حوافها تماثيل لفتيات شابات يتميزن بمظهرهن المبهرج والجذاب. وبعكس القصور التي شاهدتها في أمكنة أخرى في بلاد فارس، فهنا كل شيء متقن إذ حين تنظر إلى البنايات فإنَّ الانطباع التي يتملك المرء يوحي بالإثارة والإعجاب لكل ما هو فارسي داخل القصر. ففي طهران تظهر وجه العملة: الرفاهية والترف والأبهة، وهو عكس ما سبق أن رأيته في الأماكن القذرة والفقيرة من البلاد أثناء طريقي من بوشهر.

صعدنا إلى الطابق العلوي إلى غرفة فخمة تزينها مرايا على الجدران وزخارف متنوعة ويكسو أرضيتها السجاد الفاخر وتزخرفها مزهريات ضخمة، فقد كان أثاثها مثيراً للإعجاب حيث نظرنا من خلال الشبابيك الزجاجية الواسعة نحو عيون الماء المتدفقة وأحواض السباحة التي عبرنا منها قبل لحظات.

وفي الأسفل، سيقام العرض الذي جئنا لمشاهدته. ولكن وبكل أسف فإنَّ الشخصية الأساسية ستكون مختفية عنا، لأن الشاه سيظهر في الشرفة أو على دكة تمتد بمحاذاة غرفتنا بحيث سنرى الجميع ما عدا الملك نفسه.

وبينما كنت أنتظر قمت بتفحص غرفة جميلة من القرميد تستخدم كمستودع للهدايا التي يجمعها الشاه، وهي ليست موجودة في المتحف الكبير.

Twitter: @alqareah

إنها مجموعة جذابة من سقط المتاع الرائع، فهي موضوعة بدون ترتيب. أشياء ثمينة جداً مبعثرة قرب نفايات وأثاث قديم ولوحات فنية بديعة تقبع في ظل أثاث محلي. إنها بحد ذاتها مثال لبلاد فارس وللفرس في عدم تناسقها وانسجامها واضطرابها وعدم انتظامها وجمعها بين المجد الزائل والانحطاط الحالي. وتتكدس في إحدى الزوايا أكوام من الأشياء المخملية والفرو غير المنتظمة وبجانبها مجموعة متناثرة من الصور، وفي الزاوية المقابلة توجد آلة لصنع الجعة يعلوها صورة زيتية.

وهناك حقيبة كتب مملوءة بالمجلدات أمام طاولة مغطاة بكتب نادرة حول التاريخ الإنساني والطبيعي، ومرة أخرى يبدو عدم التناسق بوجود آنية فخارية أثرية كما توجد آلة موسيقية. وآلات كاتبة مهملة وأكواب شاي رائعة وأواني زجاجية وشراشف ومزهريات تغطيها الأتربة منذ سنوات، وهناك خارطة للجزر البريطانية معلقة منذ زمن، بحيث فقدت جمالها وقيمتها، وثمة آلات الكمان الموسيقية التي تتوجه لليد التي تعزف عليها والأصابع التي تتلاعب بأوتارها في ضوء القمر والأجواء السحرية لتبعث ألحاناً شجية وموسيقى عذبة تعوضها عن سكونها المطبق وإهمالها المقيت طوال الفترة الماضية.

وفي غرفة مجاورة هناك المزيد من التحف الصينية والأواني الزجاجية مهملة وغير مستعملة. الكل في فوضى واضطراب وعدم انتظام، الكل مهمل ومتروك ويدعو للحزن والإشفاق.

غادرت والألم يعصر قلبي. كل هذه الثروة لا فائدة منها وفي الخارج يسود الفقر والعزلة وشعب بائس.

وفي غرفة كبيرة متلألئة قرب هذا المتحف توجد حقائب زجاجية مملوءة بمجموعة متراصة مثل تلك التي شاهدتها، وفي نهايتها يوجد عرش الطاووس وهذا هو اسمه، والذي يمثّل أثراً فريداً من دلهي أكثر من كونه كرسياً كالذي أجلس عليه الآن لأكتب

Twitter: @alqareah

مذكراتي. ومع ذلك فهو فخم وذو قيمة تاريخية بسبب جواهره وفروه اللذين يثيران الحواس والخيال ويجعلان المرء يسرح في عوالم أخرى.

وهناك طير محنط يغرد في قفص مقابل خزانة تحتوي على أكواب زجاجية بعضها مكسور المقابض. لقد سبق لي أن علمت بوجود أشياء نادرة، ولكني لم أشاهد فرشاة أسنان اللورد كورزون رغم احتمال وجودها هناك..

أمَّا الشيء المثير للبهجة وسعادة الحاضرين فهو وجود آلة موسيقية تتحرك أوتارها لتبعث لحناً شجياً، أما أنا فقد أُعجبت بالمرايا البسيطة.

سرعان ما نبهتنا الأصوات إلى غرفتنا الأولى حيث افتتاح الحفلة، بالإضافة إلى ضابط قوقازي وممثلة فرنسية من فرقة كانت تجوب بلاد فارس مما أثار استغرابنا ودهشتنا.

الآن بدأ العرض الذي يتكون من جنود، وأعتقد أنه يهدف إلى إراحة عقل الشاه وطمأنته حين يرى أمامه أدلة توحي بقوته المطلقة. فهو سيقوم بزيارة إلى المنطقة الجنوبية.

يتميز كل فوج من الجنود بفرقته الخاصة مع أن الجميع يلبسون ملابس متشابهة ويحملون نوعاً من السلاح.

وهذه الفرق هي المفزعة فهي تمتد على مسافة المائتي ياردة التي يحتلها الفوج محدثة صخباً متواصلاً بصرف النظر عن صخب الفرق الأخرى المنافسة لها وبدون توقف (عدا توقف يحدث نتيجة التعثر ببعض المراتب على الدرجات الصغيرة والتي تسبب قطع الجهد وعدم التناغم) حتى تصل إلى مكان الاستراحة في الحديقة.

لا يمكنني التأكيد فيما إذا كانت الفرق تعزف النغمة نفسها في أوقات مختلفة أو أنها تعزف أنغاماً مختلفة في الوقت نفسه، ولكن في الحالتين كلتيهما فإن النتيجة هي مزيج من عدم التناسق يفوق

Twitter: @alqareah

الجهود السقيمة لفرد يعزف على آلات يجهلها، وهو أمر لم أصادف مثله في كل بلاد فارس.

لقد ذكرت الصعوبة الناجمة عن عدم انتظام الخطوات وهناك صعوبة أخرى أدت إلى تعثر الجنود بسبب ارتطام جرابهم بأغصان الأشجار، وقد يؤدي ذلك إلى اضطراب واهتياج وخاصة عند سقوط خوذة أحد الرجال ومحاولاته اليائسة لالتقاطها حتى لا تدوسها الأقدام.

ويلبس الرجال زياً موحداً عدا بعض الأفواج التي يلبس رجالها زياً شبيهاً برجال المطافئ بسبب التكوين المتميز لخوذاتهم. وعند التفحص الدقيق والمعاينة الفردية يبدو هذا شبيه بالتوأمين، هل هما توأمان؟ وكل واحد منهما يضع غطاء كالدلو على رأسه. وهذه الوسيلة التقليدية لغطاء الرأس يبدو أنها من أجل تعديلها وضبطها إلى الخلف قدر الإمكان، ومع أن ذلك يوحي بمظهر خليع لمن يلبسه، إلا أنها وبدون شك مفيدة لحماية الرأس من الفصل عن الجسم. (وهي إحدى الأمور الخطيرة التي أعتقد أنها تحدث لأي فرد في المعركة).

هناك ثلاثة آلاف جندي استمروا يتدفقون لفترة ساعة ونصف ليأخذوا أماكنهم في الحديقة، وقد لاحظت البعض يسيرون بين الأفواج المستعرضة.

وفي ذات الوقت مَرَّ أناسٌ من فئات مختلفة تحت شباكنا مباشرة.

في البداية تقدَّم ضابط في غاية الأناقة والتألق بحيث فاقت الأوسمة والزخرفة على جسمه الوشاح الأزرق المتوهج الذي كان يلبسه، مع أنَّ الجزء العلوي من جسمه كان مخصصاً لعرض النجوم والأوسمة والأنواط.

ثم تبعه شاعر من أشهر الشعراء الذين رأيتهم. كان شَعره طويلاً ويلبس رداءاً طويلاً داكناً ويضع على رأسه قُبَّعة غريبة الشكل

Twitter: @alqareah

ويحمل في يده لفافة من الورق مدون عليها قصيدته التي سيقرأها في حضرة الشاه (والتي أعتقد بأنها مكرَّسة لمديح صاحب الجلالة الإمبراطوري).

ويتقدَّم بعده مجموعة من الموظفين يلبسون الملابس الزاهية ويضعون قبعات على رؤوسهم، بينما تظهر عن بعد شخصية ملكية هرمة ومقعدة على كرسي الحمام.

هنا يتقدم من يمثلون قمة العرض، القوقازيون. وكان في المقدمة فرقة موسيقية مختلفة تعزف لحناً عسكرياً مشهوراً، وتتكوَّن من رجال في غاية الأناقة يخطون ويتمايلون في هيئة مثيرة ويشكلون في حركاتهم تناقضاً مع المشهد الذي سبق لي أن شاهدته.

ثم يتقدم ضباطهم من تحت شباك غرفتنا في صفوف متناسقة من الرجال الذين يلبسون الملابس الداكنة والمعاطف السمراء، ويسيرون بخطى منتظمة وسكون تام. بالتأكيد يُعد القوقازيون ميزة خاصة لذلك اليوم.

توقَّف الاستعراض ووقف الجميع في أماكنهم. وفجأة نُفخ بالبوق وظهر صاحب الجلالة الإمبراطوري في شرفة عن يسارنا.

خَيَّم السكون، ثم تقدَّم الشاعر إلى الأمام، وبصوت موسيقي عالٍ ألقى من على المنصة قصيدة في مديح الملك والثناء عليه بكلمات معسولة ووصفه بألقاب فخمة ونعوت عربية مفرطة، جلالة الملك المقدَّس.

لقد تكرَّرت هذه العبارة مرتين أثناء الإلقاء وتكرَّرت عبارات الطاعة والولاء المطلق. وبعد ذلك وبكل احترام وخشوع اتجه الشاعر جانباً حيث دقَّت الطبول دقات صاخبة، ثم تدفقت القوات أمام نظرات الملك المحدقة فيها والتي مرَّت تحت شباكنا.

انتهى الاستعراض.

لقد قمت بزيارة طهران في بداية هذا العام وقبل أن يعتلي الشاه

Twitter: @alqareah

الجديد العرش. وعندما توجهت إلى حديقة الحيوانات الكائنة خارج طهران قابلت مظفر الدين، الملك الذي يتولى الحكم. وأمامنا على الطريق ظهر موكب من الفرسان يتقدمه رجال يحملون الصولجان وخلفهم شاهدنا سيارة تمثل زينة الدنيا الشاه، توقف حتى يتحدث معنا مما أتاح لي فرصة التمتع برؤية جلالته. لقد كان رجلاً وسيماً متجهماً ذا شارب كثيف يشبه الصورة على طابع البريد. والى جانبه في السيارة كان هناك صبي صغير، وبعد حديث قصير معنا عاد ثانية إلى المدينة.

لقد كانت حديقة الحيوانات خليطاً من حديقة فارسية ونسخة متدنية ومتخلفة من حديقة ريجنت.

هناك ممر تحده من الجانبين أعمدة ضوئية حمراء وزرقاء، وفيها صف طويل من الأقفاص تسكن فيها النمور والأسود، وفي الخارج يوجد ثلاثة دببة كبار ودب صغير وحمار وماعز بري وكانوا في حالة بائسة يرثى لها أثناء زيارتي للحديقة.

تُشَكِّل الزيارات إلى الأحياء الصيفية التي تتواجد فيها البعثات الأجنبية وإلى منطقة «ري» المشتملة على آثار «راجيز» القديمة ومناطق أخرى مناسبات سعيدة وسارة لنا، وليس في نيتي أن أقدم وصفاً تفصيلياً لها يضاف إلى ما سبق أن قدَّمته.

يوجد بالقرب من «ري» برج السكون العائد إلى الزرادشتيين القدماء، وعند تسلق التلة يمكن النظر إلى داخل مكان الدفن حيث تُعرض الجثث التي تأكلها الطيور وآفات أخرى.

لقد وصلت رحلاتي في بلاد فارس إلى نهايتها تقريباً حيث يفصلني عن روسيا عدة مئات من الأميال في البر والبحر، وإذا ما رغبت فإن باستطاعتي الوصول إلى باكو خلال أيام قليلة حيث يوجد طريق معبد للمركبات من رشت وحتى بحر قزوين حيث أستخدم سفينة من هناك.

كان هذا الأمر مملاً بالنسبة لي ومع أننا كنا في بداية العام إلا

Twitter: @alqareah

أنني قررت أن أتخذ طريقي بوساطة القافلة عبر ممرات «إلبورز» الجبلية وأن أصل إلى البحر عند ميناء «مشهدي سير» الصغير. لقد تخليت عن فكرة العودة إلى أصفهان وفق الضرورة الملحة ورغبتي الذاتية، وبعد عدة أيام من الترتيبات وجدت نفسي وخدمي وكلبي ننطلق في طريقنا ثانية وسط صخب وتهليل القافلة.

Twitter: @alqareah

24

فوق التلال وما بعدها

«بتكاتف الأيدي تُعبَّد الطرق
ويمشي الناس عليها بحماسة.
حيثما سرنا على الطرق السريعة
ثق بأنه لن يصادفك شيء،
ستتبعك حيثما اتجهت
الجبال الشاهقة نحو السماء.
دع المزاج المتحضر
يوجه اختيارك على الطريق.
الفرد والجميع الغني والفقير على حد سواء
سيرشدونك في سفرك أينما رغبت
والكل بدون استثناء يسافرون ليلاً أو نهاراً».

فوق التلال وما بعدها
ر. ل. ستيفنسون

هاأنذا أعود ثانية إلى الطريق (لأني لم أحسب رحلتي بالعربة).
ومرة أخرى انتابتني أحاسيس قديمة غريبة، الإعجاب الجديد بالفضاء والزمن والشعور بالعودة إلى عُمُر آخر، الاضطهاد الناجم عن السكون المخيف والذي لا يقطعه سوى الأفكار، ودائماً كرفيق

Twitter: @alqareah

متواصل، التلال الداكنة والسهول السمراء والسحر الغريب للكثافة الرئيسية الجرداء ويكمن فيها جميعاً الإحساس بالكآبة والضجر.

نحو الشرق انطلقنا، أولاً على طول الساحل الفسيح خارج طهران نسير بمحاذاة السلسلة الجبلية المكسوة بالثلوج، ثم فجأة توغلنا داخل التلال. كان مرافقي الجديد من أفضل الشباب الذين قابلتهم في بلاد فارس، وكان قد انتظر في المؤخرة عندما انطلقت بقيَّةُ القافلة ثم صار يتبعهم ويلحق بهم معي. وسرعان ما تكوَّنت صداقة بيننا (الصداقة التي تستحق التكوين هي الصداقة التي تتكون سريعاً)، وقبل وصولنا إلى البغال توطدت الألفة بيننا، وكما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين اللغة الفارسية الركيكة والجهل باللغة الإنكليزية.

سرنا بالتواء وتعرج بين الجبال الجرداء وواصلنا الصعود حتى ظهر أمامنا منظر رائع من التلال اللامعة المغطاة بالثلوج، حيث وصلنا إلى بدايات سلسلة جبال «إلبورز» الضخمة التي تمتد كجدران صخرية شامخة على امتداد الشواطئ الجنوبية لبحر قزوين، والتي تبلغ أوجها عند الشكل المخروطي الأبيض الشامخ لجبال ديمافند.

بعد صعود أكثر من ألف قدم كان ما يزال أمامنا كثِير من الانحناءات والصعود والتراجع والهبوط في سلاسل منخفضة.

ومن هذه القمة الأولى والذروة الزائفة لمسيرنا طوال النهار، نزلنا ممراً منحدراً على جانب جرف جبلي حيث كان هناك كلب يقضم جثة. (لماذا يلقي الفارسي جثة ميتة في المجرى ما دامت الطبيعة قد هيأت مكاناً لها؟) وهناك عند أسفل المنحدر، بدا لنا منظرٌ رائع من القطع الأرضية الخضراء المحروثة والخطوط الخضراء الداكنة التي تُبَيِّنُ الزراعة الدقيقة للحديقة الفارسية.

إنَّ أغلب الأماكن التي نتوقف فيها لحظات ضمن مسيرتنا الطويلة تثير فينا البهجة والمتعة والحبور ولكننا نتركها خلفنا

Twitter: @alqareah

ونواصل المسير، ولهذا شعرنا بالحزن والأسى عندما ألقينا النظرة الأخيرة على هذا المنظر الفاتن الكائن بين التلال حيث عبرنا النهر المعتدل العمق عند أسفل الوادي، وتسلقنا الطريق المتعرج الذي ارتفع إلى جانب رافد نحو الشرق.

قضينا الليل في غرفة واطئة قذرة لا شبابيك لها ولا حتى باب في قرية «كمر» الصغيرة، وفي الصباح واصلنا مسيرتنا الشاقة والحق أقول بأني لم أكن ليّناً في هذه الرحلة الأخيرة. كنا في مطلع العام وكانت الممرات صعبة الاجتياز وكنت قد قَدَّرت لنفسي مسيراً محدداً كل يوم حتى موعد وصول الباخرة التي سأستقلها من «مشهدي سر». لقد كان سباقاً ضد الزمن وصراعاً مع الطبيعة والقدر المتحكِّمين بالطقس.

امتدت الأميال الأولى لهذا اليوم من رحلتنا داخل وخارج التلال المرتفعة المنعزلة، مع إتاحة فرصة لنا بين الحين والآخر لإلقاء نظرة على منظر القمم المتوَّجة بالثلوج. وعندما صعدنا اشتدَّ البرد وتحوَّل الطقس إلى موجة ضربات قاسية أفقدتنا راحتنا ومتعتنا.

وهكذا أخذنا نتجول بين المساحات المغطاة بالثلج أسفل الممرات المنحدرة عبر سلاسل بيضاء قذرة حتى وصلنا أخيراً إلى مقهى استدرنا نحوه لنأخذ قسطاً من الراحة أثناء العاصفة الثلجية. ثم غادرنا ملاذنا الآمن إلى العراء البارد صوب الشمال وانحرفنا من الطريق الرئيسي إلى فيروزكو، واتخذنا طريقنا عبر الجبال متجهين مباشرة إلى بارفيروش. لقد أصبحنا الآن في ممرات لا يطأها الرجال حيث صار الممر طريقاً للبغل فقط، تمايل فيه إلى الأعلى وسط ثلج متزايد حتى وصلنا أخيراً إلى ممر يتسع لقدم واحد وعمقه قدم واحد أيضاً حُفر بين الثلوج التي يبلغ سمكها قدمين أو ثلاثة، وأخيراً اقتربت قمة الممر التي تمثل أوجاً خيالياً، حيث ما تزال السلسلة الحقيقية لجبال إلبورز تمتد أمامنا. ثم هبطنا بثبات إلى وادي جذاب وفي غاية الروعة والجمال حيث الأشجار وأسطح المنازل الطينية السمراء والقبة الزرقاء تشير إلى موقع قرية

Twitter: @alqareah

ديمافند. كان هذا المكان من الأمكنة التي لا مجال لوصفها ولذلك استدرنا حول زاوية أسفل ممر ضئيل وحقير ثم اتجهنا شرقاً ودخلنا قرية أحمد آباد.

وهنا صادفتنا مفاجأة سارة إذ ما إنْ اقتربنا حتى خرج إلينا «ميرزا علي» ابن «كاربالي إسماعيل» رئيس القرية الذي أصرَّ بكرم جم على استضافتنا في داره وأن نقضي ليلتنا في ضيافته.

كان مضيفنا شاباً فارسياً ودوداً وأنيقاً، وسأظل أذكر بتقدير وامتنان تلك الليلة التي قضيتها تحت سقف منزله. هذا كل ما وجدتُه في مذكراتي حول هذا الأمر.

كانت الغرفة التي اقتادوني إليها مؤثثة تأثيثاً جيداً وفيها أواني فخارية رخيصة ومصابيح مما يعطي الانطباع بأنها مسكن على شاطئ البحر، وقد فُرِشَت أرضيتها بالسجاجيد والوسائد والأفرشة البسيطة، حيث صُفَّتْ الوسائد قرب الجدران ووُضِعت الستائر على الباب والشبابيك، وفيها رفوف مرصوف عليها آنية فخارية، وهناك وردة اصطناعية موضوعة في مزهرية على قطعة قماش وقد استذكر حينئذ شارع الملك في برايتون.

خلعتُ حذائي ودخلت. وعندما رأيت الوسائد اعتراني خوفٌ غامض ولكني حصلت على تأكيد بأنني سأكون وحدي في الغرفة، حتى الكلب ستمبس الذي أُعجبوا به لم يسمحوا له بالدخول. وهكذا جلبوا لي حوائجي وأصبحت مستعداً لقضاء ليلتي. وبينما كنت في الأسفل من الدار لاحظت بأنَّ صديقي لديه عين نافذة على الجمال، حين رأيت العديد من زوجاته اللاّئي لم يكنَّ خجولات ولكنهن وقفن سافرات يحدقن في المنظر الغريب عليهن. وكانت أصغرهن في السابعة عشرة من عمرها وعلى جانب كبير من الجمال، أما الأخريات فلم يكن قبيحات ولم يكن لهن شفاه غليظة، وكانت وجوههن مختلفة عن وجوه النساء الفارسيات العاديات.

Twitter: @alqareah

وفي الطابق العلوي نزعت جواربي ولبست شبشب الحمام وكل واحد منهما يمثل منظراً أمامي.

على أية حال، كانت قدماي أنظف مما توقعت معتبراً كل الأشياء التي لا تخدش كرامتي وذات تأثير على الجماهير، ولهذا تذكرت بقوة «السيقان البيضاء الجميلة» في مسرحية «مناجم الملك سليمان» عندما سمعت شخصاً يقول «إنها مثل الحليب أليس كذلك؟».

ثم قمت بتعديل فراشي وهيأته للنوم. قلت بأنَّ البطانيات وغيرها تثير متعتهم فالجو في الهند حار ولكنه هنا بارد، كما أن المنضدة تثير الاهتمام مثل مسدسي ونظارتي وساعتي وسكيني، ولكن الأهم من كل ذلك عندما فتحت طاولة القراءة وأخرجت دفتر مذكراتي.

لقد فحصوا سلسلة ساعتي، وورق الكتابة ودفاتر الملاحظات والحبر ونظروا إليها بشغف وآخر ما فعلوه أن صبياً قلب المحبرة رأساً على عقب وسكب الحبر عندما حاول الاقتراب من المحبرة والنظر إلى قعرها. وعلى الفور طُرِد من الغرفة ولكنه عاد بعد تدخلي، ولم يدرك الرجل الذي على يميني سبب إحجامي عن الانفجار غضباً ولهذا أعاد ترتيب الأمور بهدوء وقال بلمسة فيها مفارقة وخشية، ولم أكن متأكداً مما يعنيه، «إنه رجل طيب حقاً».

قدمت أوراقاً لمختلف الناس الذين ابتهجوا بها وأبدوا إعجابهم بها. كذلك قسمت رغيفاً أبيض بينهم فهم لا يعرفون الخبز الأبيض. أما السيدات اللاّئي نظرن لي كفرد من العائلة فقد جلسن سافرات، وقد تجرأت إحداهن لتأخذ قطعة من الخبز قبل دورها مما جعل مضيفي يصرخ «اخرجي يا بنت الكلب» الأمر الذي دفع الفتاة البائسة للخروج من الباب.

وبطبيعة الحال، هذا هو الموقف الطبيعي تجاه النساء في بلاد فارس. فهن مخلوقات أدنى درجة ليس لهن عقول وقد خُلِقن من أجل إمتاع الرجل وحتى يحافظن على بيوتهن وينجبن الأطفال فقط.

Twitter: @alqareah

ومن بين الأشياء التي كانت في مكتبي صورة شخصية لي والتي طلبها مني ميرزا علي، وهكذا قدمتها له أخيراً بعد أن كتبت اسمي عليها بالفارسية، حيث أخذ يقرأه بعناية وتردد مثل طفل يتعلم درساً. ثم وضعها في مكان بارز تحت المزهرية على قطعة القماش بعد أن ردَّد اسمي عدة مرات «اليات كرامشاهي ولياس ثم اليات كرار شاهي وليارمز».

من المثير للقلق أحياناً أن ترى أناساً ينفجرون أمامك في كل لحظة وأن إبعادهم أو طردهم سيسبب إهانة لهم، فهم لا يقصدون إلحاق الأذى ولا يفهمون عدم رغبة المرء في رؤيتهم، وبالإضافة إلى ذلك فإني أحببت أن أرى الفارسي على طبيعته وكما هو في الحقيقة.

ولهذا لم أتذمر أو أتبرم عندما حضر ميرزا علي وأدى التحية وجلس عند مرفقي أثناء الكتابة، وأخذ يحدق وهو صامت على الكتاب والكلمات التي أدونها فيه. ثم تلاه شخص آخر «إنه يكتب جيداً» قال أحدهم، «أم» همهم آخر. ثم ساد سكون تام. وبعد عشر دقائق سألني أحدهم لماذا أكتب؟ ثم بعد خمس دقائق سألني ماذا أكتب؟ أخيراً خَيَّم الصمت حتى وصول العشاء فخرجوا الواحد تلو الآخر.

وبعد العشاء حضرت حفل استقبال حيث تشرف بمقابلتي جميع الزوجات و«ميرزا علي» ورجلان آخران والصبي الذي سكب الحبر على المنضدة. تحدثنا عن مختلف المواضيع، وعندما علموا بأني ذاهب إلى روسيا سألني أحدهم «هل هناك حرب بين إنكلترا وروسيا» قلت «لا». وحاولت بكل مقدرتي اللغوية أن أشرح لهم الموقف السياسي. أخيراً شعرت بحاجتي إلى النوم فقد كنت تعباً جداً ولدي صداع شديد وعلي أن أنهض الساعة الرابعة صباحاً. وهكذا أخبرتهم وسُمح لهم بالمغادرة وهذه الميزة موجودة في بلاد فارس، فعندما يؤمرون بأدب يفعلون ذلك على الفور، ولهذا خرج الجميع.

Twitter: @alqareah

من بين الأيام التي عشتها لم أصادف يوماً أكثر مشقة وإرهاقاً ومزجاً بين القوة العقلية والجسمية من اليوم الذي غادرت فيه قرية أحمد آباد. لقد استيقظت الساعة الثالثة والنصف وكانت أحداث ذلك اليوم تستدعي مغادرة مبكرة.

كان علينا هذا اليوم أن نشق طريقنا عبر أعلى ممر بين طهران وبحر قزوين وكان الممر مكسواً بالثلوج السميكة العمق. فلو سطعت الشمس فإن اجتياز الممر عند الظهر سيكون صعباً للغاية بسبب تراكم الثلوج التي لا بُدَّ من السير عليها.

وهكذا ارتديت ملابسي ورتبت البطانيات والفراش وحزمت حوائجي، وتناولت وجبة سريعة من الثريد والبيض.

في مثل هذا الوقت، ساد الضياء (وبمناسبة الضياء، عندما ذهبت لإغلاق شباكي الليلة الماضية، قبل أن آوي إلى فراشي، نظرت إلى الخارج فرأيت نوراً في الغرفة السفلى، وكانت كل السيدات جالسات وأرجلهن تحت غطاء واحد كبير، وكانت هناك مدفأة تتوهج فيها النار من الفحم الحجري وهي طريقة أفضل وأرخص للتدفئة).

لقد تساقط الثلج بكثافة خلال الليل وما يزال يتساقط دون انقطاع. وكان الفجر المعتم قد زاد من كآبة المكان وعليّ أن أعترف بأني لم أكن مسروراً بما سنقوم به، فالرحلة لن تكون طبيعية وستكون سيئة للغاية، وفي ظل الظروف الحالية ستكون مرعبة إذا لم تكن خطيرة حقاً.

قمنا بالتحميل وسط الثلج الكثيف وانطلقنا على الأقدام حوالى الساعة السادسة والنصف. كان البرد قارساً وكانت الأرض مجرد فراش من الثلوج، ولم يكن هناك أي مظهر للحياة السهلة. وبعد مسيرنا قليلاً قال مرافقي بأنه لن يواصل السير بدون مرشد. فكرت بأن ضياعنا أمر محتمل وحادثة بغيضة، وهكذا وافقت على طلبه وانطلقنا لا نزيد عن ثلاثة. كان الطريق موحشاً ولا يمكن تمييزه عن

Twitter: @alqareah

بقية الأرض الأخرى، وبسبب العاصفة الثلجية الجارفة اختلطت الأرض بالسماء ولهذا كان الميل الأول من صعودنا منحدراً حاداً مرهقاً وكئيباً. لا ركوب هذا اليوم لأن الطريق كان مشؤوماً حيث كان لابد من توجيه كل الجهود لإراحة الحيوانات والحفاظ على الأمتعة قدر الإمكان، إذ كانت الأمتعة موزعة على كل الحيوانات.

بعد ساعة أو ساعتين توقف هطول الثلج فجأة وانقشعت الغيوم وانبلج خلفنا منظر بهي جذاب يمتد بعيداً فوق القمم المكسوة بالثلوج التي ارتفعت إلى عنان السماء الملبدة بالغيوم. لقد زال عنا تعب الصعود وعناء الارتفاع والهبوط وتعثر حوافر الخيول على الممر الضيق وغمرنا إحساس بالراحة والنشوة والتفاؤل. لقد كنا على سطح العالم وتراءى لنا بأن كل الأرض والبحار والأشياء تمتد أمامنا. ولكن سرعان ما نزل الثلج مرة أخرى وعاد التيه ثانية، وخيم اللون الأبيض بحيث لا يمكن التمييز بين الأشياء، وضاعت آثار حوافر البغال وسط الثلوج، وبين الحين والآخر تبرز أمامنا نقطة سوداء ناتئة من صخرة. وواصلنا الصعود والسير والتمايل والصعود دون أن نرى هدفاً أمامنا ودون دليل على وجود قمة، وأخيراً لاحت حدود وسط العتمة، إنه كوخ ضئيل يشير إلى القمة ويُظهرها. وبدأنا الآن في الهبوط.

أثناء صعودنا الشاق والطويل لممر «بولور» وعدا عن رؤيتنا لقمة سطح العالم فقد صادفنا حالة واحدة بددت الرتابة المملة والكآبة المخيفة. من المضحك أن نسميها موسيقى لأنها فارسية ولكنها كانت ضجة مُبَشِّرة بالخير، فقد كان أحد المرشدين معنا مغنياً، وبالرغم من حالته اليائسة والمرهقة وعدم قدرته على التنفس إلا أنه أخذ يلهث ويتنهد ويغني مقطعاً من أغنية محلية من أجل إشاعة الأمل في نفوسنا ويشجعنا للوصول إلى القمة. لم تكن أغنية رديئة ولكنها كانت صاخبة، وعندما صدح بأعلى صوته أخذ يلهث ولم يتمكن من إتمام المقطع الغنائي، ورغم عدم التناسق فيها إلا أنها أحدثت وقعاً حسناً.

Twitter: @alqareah

أعاد الآن ترديد أغنيته مرة أخرى مثل مُكَبِّر صوت غير منتظم، وأحياناً عند الصعود كان يتوقف الصوت ليلهث أو يجري نفساً بسبب الإرهاق والتعب. لقد كان فناننا شخصية مرحة عمل كل ما في وسعه لإشاعة المرح وروح التفاؤل والألفة بين أفراد القافلة، ورغم الطقس حافظ على معنوياته وأبهج كل فرد ودَفَع وجَرَّ البغال هنا أو هناك، وكان على العموم باعثاً للحياة في القافلة. مثل هذا الشخص يستحق الشكر والثناء وخاصة في رحلاتنا وسط الأماكن المعتمة سواء في جبال إلبورز أو على طول طريق السلامة.

وهنا سأتناول ما أوردته مذكراتي:

واصلنا النزول وكان مدى الرؤية أقل من ست ياردات في جميع الاتجاهات، وكانت رقائق الثلج الصماء والسريعة ترتطم بوجهي وتصل إلى أذني وحتى أسفل ياقتي، وأصبح أنفي شيئاً لا أشعر بوجوده إلا إذا تحسسته بيدي، وصارت قدماي مجرد وسيلتين للتقدم وتثيران الإحساس بهما. وهكذا واصلنا شق طريقنا وسط العاصفة الثلجية الهوجاء عبر الممر الضيق المحاط بحواف من الثلج حين سمعنا صرخة أمامنا مما دعانا للتوقف.

ظهرت أشباح مكسوة بالأبيض من المجهول، لقد التقينا بقافلة أخرى. يبدو أن لا شيء يؤدي إلى الفزع، علينا أن ننتظر. لم يكن الممر الذي نسير عليه أرضاً صلبة، بل على العكس كان مجرد غلاف صلب فوق أعماق مجهولة من الثلج وعرضه قدمان تقريباً. حتى يمر الفرد منا على الآخر أن يتنحَّى له جانباً بعد أن يستدير متكئاً على عصا، والتي أصبحت مرتكزاً أساسياً لنا خلال سيرنا على الثلج إضافة إلى اختلاط الأصوات غير المتناغمة ببعضها البعض (يتحدث الفرس جميعهم في وقت واحد، ويحاول كل واحد أن يصرخ بأعلى صوته ولا ينتظر حتى ينتهي الآخر من كلامه، وخاصة إذا ما اشتمل الحديث على أكثر من اثنين).

وأخيراً كان على أعضاء القافلة الأخرى أن يتنحوا جانباً.

Twitter: @alqareah

خرج بغلان على الفور واخترقا الثلوج وأصيبا بالوهن والعجز وهما يتخبطان وسط الثلوج وقد أدى ذلك إلى إطلاق مختلف النعوت والسباب والجدل الحاد، وعندما شعرت أن الأمر سيتطور ويستمر، أخرجت بعض البسكويت والحلوى وأدرت ظهري للعاصفة وبذلت جهداً لتناول «الغذاء». إنه أمر محزن حقاً أن يتحول البسكويت إلى قطع صغيرة بفضل الثلج المندفع، وتصبح أصابعي عاجزة عن الإمساك بالمنديل الذي وضعت الحلوى فيه. حتى البطانيات تناثرت من على ظهور البغال واستحالت قبعتي إلى كتلة جليدية، لقد تحول كل شيء إلى عزلة وكآبة ولم نعد نفكر بالأميال الخمسة عشر الباقية أمامنا.

عندما نظرت إلى ستمبس المسكين وهو يحاول الاحتماء بحافة ثلجية محاولاً النوم بلغ الأمر ذروته لدي. لبست قفازين (مجرد ثقوب كبيرة في يدي) واستدرت لأقدم المساعدة للبغال.

وأخيراً انطلقنا في جو أكثر برودة من ذي قبل حيث قابلنا بعد ميل قافلة أخرى. وفي هذه المرة كان علينا أن نبتعد عن الطريق حيث صارت كل بغالنا سوى واحد تتقدم متعثرة ومتمايلة في الثلوج. قمنا بسحبها وانطلقنا مرة أخرى كي نقابل مجموعة أخرى من البغال، ومن الضروري التأكيد بأننا مررنا على ثلاثمائة بغل في اليوم، وكلها تحمل بضائع روسية من مشهدي سر وخاصة السكر. ثم أرسل الله الرحيم بصيصاً من ضوء الشمس وعلى هذا الضوء عبرنا من خلال مداخل حادة الانحدار تحت كتل ضخمة ملساء من الثلج، حيث من حين لآخر تتدحرج كتل ثلجية صغيرة حتى لاحت لنا فجأة كتلة مخروطية الشكل بيضاء ويخيم عليها دخان مثل غلالة سمراء، إنها ديماڤند.

في البداية أثار المنظر مخاوفنا لئلا تكون جزيرة في الغيوم بعيدة عن الأرض، ولكن سرعان ما انقشع الغمام وبانت ملامحها البيضاء الواحدة تلو الأخرى حتى ظهرت الكتلة كلها جلية ناصعة

Twitter: @alqareah

أمامنا. ومع أن مظهرها يبدو مثل قالب السكر إلا أن تركيبها الضخم ومكانتها الرفيعة كان له وقع كبير وطَيِّب علينا. لقد كنا هنا على ارتفاع عال ومع ذلك كان بمقدورنا أن نزحف لبوصة أو بوصتين على أكثر تقدير. وإلى الأسفل وصلنا إلى مقهى منعزل حَظي بتقديرنا، وعندما نظرنا إلى الخلف نحو هوة مظلمة كنا قد خرجنا منها، رشفت قدحاً من الشاي وحمدت الله أننا إن شاء الله لن نعود ثانية لتجارب اليوم.

ولكنها مع ذلك انتهت، فبعد نصف ساعة من الراحة وعند منتصف النهار انطلقنا حيث لم يبق أمامنا سوى عشرة أميال.

عند أسفل التلة صادفنا جسراً فوق جدول صغير، ثم صعوداً آخر إلى مدخل جذاب حيث يندفع سيل بين جدارين صخريين. عبرنا فوق جسر حجري وبدأنا صعوداً طويلا متوقعين الثلج يكسو القمم حولنا والتي تشهق حول السهول البيضاء، وكانت أشعة الشمس الباهتة تغمر كل شيء. ولكن ذلك لم يدم مع الأسف.

وفوق القمة وبينما كنا نعبر لمسافة طويلة كانت هناك هضبة منعزلة من الثلج وقد اختفت الشمس فجأة، وكان لدي متسع من الوقت كي أُلقي نظرة على سلسلة جبلية شبيهة بجبال الهيمالايا تتوسطها وديان سحيقة. وما إن تقدمنا حتى سمعنا زمجرة وصخباً فقد واجهنا عاصفة ثلجية عنيفة أخرى.

وضعت وشاحاً حول أذني وأخذنا نناضل فوق العزلة الجرداء خلال الثلوج المندفعة بقوة حتى وصلنا إلى مكان جرف يتصل بجدار صخري يبرز عالياً وحاداً من الجانب الداخلي للممر، حيث توجد هوة مخيفة تهبط حوالى ألف قدم ثم تختفي في ظلام دامس، ولا تسمع سوى أزيز السيل وتهب منها دفقات من الريح تقذف كرات ثلجية بعنف لتصدم وجوهنا عند تقدمنا ومحاولاتنا الجهيدة للاندفاع إلى الأمام.

Twitter: @alqareah

واصلنا السير ميلاً بعد ميل حتى خَفَّت الريح أخيراً وانقشعت الغيوم، وقبل أن نصل «رينيه» ـ مكان استراحتنا ـ بزغت الشمس وأضاءت المنظر البهي حولنا.

نحن الآن على حافة جبل كبير يشهق إلى الأعلى فوقنا وتبرز خلفنا قمم تلمع من الثلج، أمّا إلى الأمام فهناك قمم حادة تنحدر انحداراً سريعاً إلى حيث يُزبد النهر ويهدر. وتحتنا قرب المجرى المائي تصطف الأسطح الطينية متراصفة يبرز من بينها جامع يشبه الخيمة، إنها قرية «آسك». وبعدها مباشرة وعلى هضبة تقع قرية «رينيه» التي هي مكاننا المقصود. لقد وصلناها حوالى الساعة الرابعة والنصف بعد مسير شاق، وأعتقد أنني سرت ستة وعشرين ميلاً من أقسى وأشد المسافات التي سبق أن سرتها ولكن إرادة الله ولطفه بنا أوصلتنا إلى هدفنا بسلام.

سرعان ما أعددت فراشي في كوخ طيني صغير (في الحقيقة لم يكن قذراً كما اعتدنا على ذلك) ثم خلعت حذائي وجواربي وجلست قرب ضوء المصباح. كنت في غاية الإرهاق بحيث خشيت أن تكون النتيجة ليست على ما يرام. وهكذا أخذت في كتابة مذكراتي ما دامت عيناي قادرتين على ذلك، وعند الثامنة مساءً حضر العشاء الذي تكوّن من حساء لا طعم له وبعض اللحم المشوي والرز إضافة إلى تفاحتين حارتين.

آويت إلى فراشي عند التاسعة، وساد السكون.

Twitter: @alqareah

25

نهاية الطريق

«أعتقد أن المآثر كلها تتحقق في الهواء الطلق
وكذلك القصائد الحرة.
وأعتقد أن بإمكاني التوقف هنا والقيام بالمعجزات،
وأعتقد أن كل ما أصادفه على الطريق سأحبه
وكل من يشاهدني سيحبني
وأعتقد كذلك أن الذين أقابلهم سيتمتعون بالسعادة.
إني أستنشق رشفات من الفضاء
فالشرق والغرب ملك لي والشمال والجنوب بين يدي».

والت وايتمان

قادني الطريق المفتوح إلى أرض جديدة، إلى بلاد فارس أخرى، إلى عالم مختلف تماماً عن ذلك الذي غادرته. لقد حدث تغيير كامل في المشهد. تغير الهواء تماماً واكتست الأشجار حلة خضراء كتلك الموجودة في العالم الغربي، وأخذت تزين بخضرتها سفوح الجبال، وبدأت الأرض القاحلة المخيفة والعزلة والكآبة للهضبة الفارسية تتلاشى تدريجياً، ومع الأرض الجديدة والهواء الجديد نمت حياة جديدة وخلقت قوة روحية جديدة. إذ بدلاً من شدة القحط والحرارة للصحارى المرتفعة حَلَّ الخير الوفير ونبض القلوب

Twitter: @alqareah

البهيجة، وبدلاً من السكون المتغطرس ساد التوهج النابض بالحيوية والنشاط كذلك الشعور الذي ينبئ بقدوم فصل الربيع في إنكلترا. إنه وجه آخر ومظهر آخر لهذا العالم الكبير والعجيب والذي حيثما استدرت فيه يقدم لنا معجزة جديدة. لقد اختلط المزاج الشرقي بالمزاج الغربي وصار كلاهما متألقين وجذابين، وعلاوة على ذلك كان الطريق المفتوح مستمراً في دفق عطائه وإدخال البهجة والأمل، على نحوٍ لم يقدمه خلال المسير الطويل المضني؛ في الفضاءات الرملية الشاسعة، وفوق الجبال الجرداء، وقريباً من الآثار القديمة، وخلال المدن الغريبة.

لقد شعرت بالأسى لاقتراب فراقي لصديق قديم شاركني رحلاتي اليومية المنصرمة.

نهضنا صباح اليوم التالي الساعة الرابعة لأننا سنسير هذا اليوم مسافة سبعة فراسخ من رحلتنا. والفرسخ مقياس معمول به وخاص بالشخصية الفارسية. إذ بإمكان شخص أن يقول فرسخ بينما يقول الآخر فرسخين وقد يكون الاثنان محقين أو مخطئين. وعلى العموم، يساوي الفرسخ أربعة أميال تقريباً ولكن الفرسخ هنا يساوي أكثر من الفرسخ الجنوبي، ويبدو أنه يصل إلى خمسة أميال. فالأشياء هنا تأخذ قيمة وحجماً أكبر، فأولئك الذين يتكلمون بحماسة بالغة عن مصاعب الممرات الجبلية في الجنوب عليهم أن يجربوا ممر «بولور». أراهن بأنهم سينظرون إلى هذه الممرات على أنها طريق معبد للعربات.

بزغت الخيوط الأولى لأشعة الشمس حين انطلقنا أخيراً وكانت قمم التلال المقابلة لنا المغطاة بالثلوج قد غمرتها أشعة الشمس، ولكننا هنا كنا ما نزال في الظل البارد. لقد كان المنظر ممتعاً حقاً. وإلى الجنوب كانت القمم البيضاء تلمع بعد شروق الشمس عليها وأظهرت منظراً خلاباً كنا قد حرمنا من رؤيته بالأمس بسبب العاصفة، وبان أسفل التلال النهر الذي تنساب مياهه البيضاء والخضراء بين حواف التلال وجدرانها الحادة. إنه يذكرنا بتلك

Twitter: @alqareah

المناظر قرب المنحدرات السفلى لجبال الهيمالايا في نايني تال أو فيما بعد سيملا في مهاسو أو ماشوبرا.

كان الهواء بارداً منعشاً وصافياً ولم تكن الفراسخ السبعة مرعبة. انحدرنا إلى الأسفل ثم استدرنا حول زاوية لنفاجأ بمنظر عجيب ومدهش. فقد شاهدت عن بعد فوق الجبال نقاطاً سوداء غريبة تزين سفح التلة الصخرية التي تمتد بزاوية قائمة عبر ممرنا. والآن أدركت تفسيراً لما كان قد أدهشنا على مسافة منا. لقد كانت مجموعة من المساكن الصخرية وقفت أحدق فيها بذهول، ثم أحصيتها فكانت أكثر من خمسين مسكناً في الجدار الصخري. شعرت بأني لا يمكن أن أمر على هذا المكان دون القيام بتفحص دقيق لهذه الآثار الغريبة العائدة لعنصر بدائي من البشر، وهكذا أخبرت المرافق أن يذهب ببطء مع البغال وتقدمت كي أكتشف وأسجل ملاحظاتي التي نشرتها بعد ذلك في «مجلة الجمعية الملكية الآسيوية».

لقد كان الفراغ الممتد حوالى خمسين ياردة يمثل سطحاً أملساً لمداخل هذه المساكن. وكانت كلها عدا السفلى منها عصية على الوصول، وإلى الأعلى فوقي بانت نوافذ مفتوحة تؤدي بشكل واضح إلى مجاميع من الغرف. اكتشفت حينئذ أن بإمكاني إذا ما تسلقت أن أصل إلى زوج من الغرف السفلية. لقد كان عملاً شاقاً ولكني مع ذلك كوفئت بعدد من الكدمات والجروح عندما اكتشفت عدداً من الغرف لم يصلها أو يلمسها أحد من قبل. وعندما عبرت ممراً وصلت عموداً يبلغ ارتفاعه خمس عشرة ياردة وسمكه أربع ياردات يرتفع داخل الصخرة ليصل إلى غرف أخرى والتي وُجِد في إحداها ركام قديم.

انتابني حزن عميق لإجراء مثل هذا الفحص السريع على هذه المساكن الصخرية، وأعتقد جازماً بأنها في حاجة ماسة إلى مزيد من البحث والتنقيب. إذ أن الغرف العليا وتلك التي لا يمكن الوصول إليها من الغرب بالإمكان الوصول إليها بوساطة سُلّم أو حبل وستكون هناك اكتشافات قيمة دون شك.

Twitter: @alqareah

وبوساطة السكان المحليين لم اكتشف شيئاً عنها سوى أن هذه المساكن قديمة جداً أي «قاحتي جامشيد»، والتي تعني أن الفارسي ليست لديه فكرة عن تاريخها، ويعتبرونها من الفترة الأسطورية.

أصبحت البغال الآن على مسافة بعيدة. أسرعت نحوها كي ألحق بها وعندما تجاوزتها أخيراً هَزَّ المرافق رأسه نحوي وكأنني طفل ضال لا يطاوعه قلبه على تأنيبه، ثم ابتسم عندما أخبرته عن «خوب تماشا» المنظر الفاتن.

كان الطريق محاذياً للنهر وحيث أنَّ علم الهندسة لم يُمارَس عملياً في بلاد فارس فحيثما كانت هناك عقبة في الطريق كانت ترتفع حيناً إلى الأعلى ثم تتدحرج حيناً آخر إلى الأسفل لتستقر مكانها بعد ذلك، وهذا ما شَكَّل لنا منظراً ولكن على حساب تقدمنا السريع.

كان المنظر في غاية الروعة والجاذبية. وعلى الجانب المقابل، على بعد مسافة ضئيلة أسفل المدخل، كانت هناك قرية صغيرة تتجمع متكدسة تحت ظلال كتلة صخرية منفصلة وخلفها ترتفع الجبال بقممها المكسوّة بالثلوج، وعندما نظرت ثانية ظهر على قمة منفصلة استحكامات وأبراج ومتاريس، بينما امتدت تحت التلال أعمال ضخمة وجدران كبيرة. لقد كانت قلعة هائلة فصلتها عن الصخرة الرئيسية هوة ضيقة والتي كان ينساب أسفلها جدول ينبعث منه زبد أبيض خفيف.

ففي تلك العصور الغابرة وحين تم بناؤها كان من المستحيل اختراقها، وحتى الآن ما بقي منها يثير الدهشة ويبعث على التأمل بسبب موقعها الحصين وقوتها العجيبة. وعندما واصلنا تقدمنا لم أتمكن من منع نفسي من النظر إليها. لقد كانت عملاً فنياً متقناً في هذا المكان المحكم، وبينما كنت أحدق فيها كنت أتساءل عن تاريخها.

لقد كانت «أمورات مالك شاه» وقد بنيت قبل عشرة آلاف سنة

Twitter: @alqareah

ولا يمكن الوصول إليها في الوقت الحاضر. لقد كانت في يوم من الأيام ممراً مرتفعاً، أما الآن فهو مدمر وخرب ولا يستطيع أحد دخوله. إني على استعداد لبذل كل ما في وسعي لعبور واكتشاف المكان ولكن للأسف ليس بمقدوري، وقد حاولنا وسط ما يكتنفنا من منظر أخاذ حتى أغلقته التلال وارتفعت شاهقة، ثم دخلنا وادياً ضيق كان فيما مضى من الزمن نهراً تجري فيه المياه، بينما ارتفعت فوقنا جدران صخرية حادة وصل ارتفاعها إلى ألف قدم.

أمَّا الآن فقد عُبِّد طريق في سفح التلة الصخرية، وهناك بقايا لطريق قديم على الجانب الآخر وبمحاذاة سيل من الماء يتدفق بين صخور جلمودية هائلة، وينساب الآن سريعاً هادئاً وعميقاً حيث تغوص صخرة سوداء فيه. عبرنا وسط ظلمة منتصف النهار خلال الالتواءات لهذه الفجوة السحيقة.

بعد فترة وجيزة عبرنا «بايجين» حيث توجد قرية صغيرة وهناك ينبوع ماء حار كانت بعض النسوة يغسلن الملابس فيه. مايزال طريقنا يمتد بمحاذاة النهر سواء على هذا الجانب فيه أو ذاك ودائماً تحت الجبال الهائلة الظليلة. وأخيراً لاح صرح بين الأشجار على مسافة أسفل الممر الضيق. «هل هي سياويشا؟» سألت. إنه مكاننا المقصود وقد أُخبرت قبل ساعة ونصف بأنها على بعد فرسخين، «لا»... إنها «علي باد».

تقع سياويشا على بعد فرسخين من هنا. لقد لعنت كل شيء فارسي وعلى الأخص «الفرسخ»، بقيت ساعة واحدة على حلول الظلام ولذلك لا بُدَّ من النزول هنا حيث ما تزال سياويشا تبعد ثمانية أميال.

استيقظت بعثتي الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي، وعند الفجر انطلقنا مرة أخرى في ممرنا الكائن بمحاذاة النهر.

كان علينا تعويض الوقت الذي أضعناه بالأمس، ولذلك أسرعنا الخطى وتمايلنا وتعثرنا وسط الحجارة وقذفنا الحصى على المياه

Twitter: @alqareah

الجارية، وما زلنا نسير تحت الجبال التي بدأت تزينها الأشجار الخضراء وتشتد كثافتها أكثر من ذي قبل. كنا نتسابق على خيولنا ومياه «نهر هراس» تنساب صافية على جانبنا. لقد كان هناك صيد في هذه الأصقاع. فقد طارت حمامة من بين الصخور ولكن لابد من وجود حيوانات كبيرة تتناسب مع هذا المكان. فالأشجار الكثيفة ذات الجذوع الغليظة من المؤكد أنها تخفي النمور والدببة ومن المحتمل وجود الوعل كذلك.

لقد قضينا ثلاث ساعات قبل وصولنا إلى سياويشا، وحمدت الله أننا لم نحاول الوصول إليها الليلة الماضية. وعندما أصر المرافق على احتساء قدح من الشاي، اندفعت مع البغّال وأخبرته أن يلحق بنا بعد ذلك.

على العموم كانت خبرتي كرئيس لسائقي البغال مرضية مع أنني ربما لم أراعِ قواعد السير على الطريق. على أية حال، عندما كان مشهدي أسد الله يتولى القيادة لنا دائماً ننتظر حتى يمر الناس الآخرون، وباتباع ذريعة بسيطة استنبطتها حتى ينتظر الناس الآخرون أو يتنحون جانباً عن الطريق في الوقت الذي تواصل فيه بغالي سيرها. لقد ابتكرت هذه الوسيلة بينما كنت أمشي في المقدمة، فعندما كانت تظهر قافلة أقوم بالتلويح بعصاي بوجه البغل الذي يقود القافلة الأمر الذي يجعله يبتعد نحو الجدار الصخري أو يهوي في النهر يتبعه رفاقه، وبهذه الطريقة كنا نتقدم بخطوات واثقة ورصينة تثير الإعجاب.

لم يكن لدي شك، على كل حال، بأنني لم أكن شعبياً بصورة دائمة في الطريق.

لقد كانت عبارة «كوب من الشاي» التي قالها مرافقي مجرد كلام منمق، حيث شعرت بأني سائق بغال مجرب قبل أن يتجاوزني مع صبيه. أتذكر بأني تفوهت ببعض كلمات التوبيخ والشجب بالفارسية مقرونة بعبارات التهديد والوعيد بأنّ مكافأتهم سيخصم

Twitter: @alqareah

منها وتنقص كثيراً، ولكن سرعان ما اتجهت أفكاري نحو أمور أخرى، ولهذا من الأفضل التعبير عنها بالكلمات التي دونتها تلك الليلة.

لقد أصبحت التلال أكثر كثافة بجذوع الأشجار، حتى قممها كانت مكسوة برداء دافئ من الفرو ينبعث من الثلج الأبيض الراكد، حتى بان أخيراً منظرٌ متماسكٌ لجبال داكنة سفوحها جرداء، ولكن قممها مغمورة بأشجار الغابات الكثيفة وتتشابك الأوراق عند نهايتها مُشَكِّلة زخرفاً متناسقاً وتنوعاً بديعاً. أخذنا نهبط إلى الأسفل وقد سكنت الريح تدريجياً وتحول السيل إلى نهر دافق ومايزال التغيير مستمراً حتى صار شاملاً ومثيراً للعجب والدهشة.

لم تبقَ إلا زاوية واحدة ونكون قد غادرنا بلاد فارس. وقبل أن نستدير حولها كان الجفاف الذي سبق أن شاهدناه واعتدنا على رؤيته طوال طريقنا من الخليج قد تغير تماماً بهذه القمم المكسوة بالفراء ومع ذلك فهي بلاد فارس أيضاً. ثم ألقينا نظرة باهتة على تلك التلال البعيدة بدلاً من تلك الحدة غير الطبيعية في الشرق حيث العتمة لطخت كل شيء جميل، ومع ذلك كان الهواء رطباً. ليس ندياً ولكنه تدرج دقيق بين الجفاف والرطوبة. نعم إنه كذلك ولكن هل يستمر هكذا؟

كان النسيم عبقاً برائحة الأرض والأشجار. إنه أريج الأرض السمراء وعطر الأشجار الخضراء الفواح الذي ينثر شذاه ورائحته الزكية، فيهتز لعبقه وشذاه الجسم والعقل والروح. لا بُدَّ أنه شهر أيار... نعم أيار، فهناك إلى الأسفل توجد كتلة بيضاء وعند الاقتراب منها وجدنا بأنها شجرة مغطاة بالأزهار القرنفلية، هل ذلك عشب؟ عشب أخضر؟ أم أنه حقل؟ إنه حقل يخترقه ممر، يا للغرابة، إنه مثير جداً. وهكذا كان عطر البنفسج الرائع ومنظر البراعم الزرقاء وشقيقاتها البيضاء تعشش سوية على رصيف المجرى الصغير الذي ينساب وسط طحلب خلال فضاء من الأشجار اليانعة. وهكذا كانت خضرة الشجرة والبراعم، وفجأة ومضت الحقيقة، إنه الربيع، ربيع

Twitter: @alqareah

إنكليزي. وبينما كان الطير يغرد من عشه بين الأغصان الندية انهمرت الدموع من عيني.

إنها مدة زمنية طويلة، ثلاث سنوات مرت منذ أن كنت في الوطن ورأيته آخر مرة. وبعد ذلك جئت إلى الشرق البهي والقاسي، والآن أصبح كل شيء ماضياً مرة أخرى، فقد حدث كل هذا فجأة. استنشقت عطر الربيع... بهي... بهي. انحرفت عن الطريق لأمشي على قطعة من العشب الأخضر الناعم. آه، إنني أشعر به تحت قدمي، توقفت حتى أستمع إلى غناء الطير. بوسعي أن أُغنى بنفسي. إني ثمل بهذه البهجة التي أحس بها بعد هذه السنوات الشاقة. لقد عاد نبض الحياة إلى عروقي وانتعشت أحاسيسي بعد أن كادت تتبلَّد وتذوي. لقد عادت عروق قلبي إلى الاخضرار والحيوية وتفتحت كل شراييني عن براعم مثمرة وتفاؤل وحب للحياة. آه، أيها العالم الجميل والرقيق، إنه رائع حقاً.

وهكذا وثَبَتْ روحي إلى العالم. ومع أني صغير بالنسبة له، إلا أن روحي تتدفق وتدخل كل شيء وتتمنى كل الأشياء. هذا الرجل القادم لا شك إنه صديقي. زميلي الطبيب الوفي الذي لم أصادف مثله: «السلام عليكم» و«عليكم السلام»، آه يا صديقي، السعادة تملأ قلبي وأود أن تشعر بها أنت كذلك.

توقفنا عند مقهى صغير في القرية. هل هناك في العالم مثل هذا المقهى أو مثل هذه القرية. أمسكت جرواً صغيراً وقدمت له بعض البسكويت ليأكله. ألا يفعل ذلك؟ يجب أن يفعل وعندما فعلها استغربت من كونه جرواً لطيفاً حقاً، كل شيء لطيف أم أنه الربيع.

إذا ما فقدت شيئاً ثميناً ثم تجده فجأة ألا يُدخل ذلك البهجة إلى قلبك؟ إنه إلى الأسفل على طول الوادي وقريباً من الجدول خلال الغابات. الغابات الحقيقية إلى ما وراء البرك المكسوّة بالطحالب. كانت هناك عين زرقاء تنظر بحفاوة إليَّ، إنها زهرة الربيع. واحد... مائة وبينها توجد أزهار البنفسج الأقحوانية، والزرقاء

Twitter: @alqareah

الباهتة، والبيضاء الغامقة، وتلك الرائحة العبقة التي تمتزج بزهور ونوار أيار.

إنه جوهر كل فصول الربيع وتمام جمالها ورونقها وحلم أرض الربيع.

كنت في جزرة صغيرة في واد مغمور وسط الجبال والتي أغلقتها التلال لتشكل ممراً ضيقاً، ولكن هنا تفتحت الصخور المنحدرة عن زهور وشجيرات بالغة يشع بينها حلة من الطحالب الزمردية، وإلى الأسفل انسابت المياه فوق ظلال بلورية أو استقرت في برك داكنة وغامضة.

لقد استحوذ جمال المنطقة بأسرها على كل مشاعرنا واهتمامنا ولم نلتفت إلى الطريق الجهنمي الذي كان ينتظرنا ولم نفكر في ما يسببه لنا من متاعب ومشاق. تصور صخرة دائرية مثل حجم كرة القدم ومنقطة بكرات صغيرة أخرى بحجم كرات لعبة الكريكيت، ومغروسة وسط الوحل والطين، ذلك هو أفضل جزء من الطريق. أمّا أسوأ جزء منه فقد تكون من درجات عرضية إلى الأعلى والأسفل ربما يصل ارتفاعها قدماً وتختلف عن بعضها بمقدار الثقوب فيها والمملوءة بالطين. وفي هذا الطريق انطلقت البغال البائسة والمتعبة تبذل كل جهدها وتعمل ما في استطاعتها. أمّا لماذا لم تسقط كلها فذلك لم أدرك كنهه.

بالنسبة لأي امرئ: من المستحيل المشي إذ سيغور القدم في الطين الذي يغمر الحجر، وإذا ما خطا كما تخطو البغال في الحفر والتجاويف المحشوّة بالوحل فذلك أمر لا يمكن تأمله.

أخيراً وصلنا إلى مكان اتسع فيه الممر. كان هذا نهاية الجبال. وإلى الأمام ما تزال التلال المكسوّة بالغابات تغلق مدخل الوادي ولكن من الواضح أننا قد أنهينا عملية التسلق.

اتسع مجرى النهر واتخذت مياهه في ثلاث قنوات وسط أرض مقفرة بلورية، ثم دخلنا فضاءً فسيحاً تحت أشجار يخترقها مجرى ماء بين الحين والآخر. كانت الغيوم تحجب الشمس وكانت الغابة

Twitter: @alqareah

تكتنف المكان بأسره وتخيم عليه العتمة والغموض، ويغطيه من أعلى حجاب قاتم كثيف.

توقفنا لحظات لتناول كوب من الشاي في بيت صغير في رقعة خضراء ثم واصلنا التقدم بعد أن انتعشنا حتى رأينا سهلاً فسيحاً معتماً لكثرة ما فيه من أشجار كثيفة، وانطلقنا إلى حيث خط الأفق الداكن ومحيطه المتعرج الذي جعل قلبي يثب فجأة. نعم إنه البحر.

تذكرت بأنَّ بمثل هذه المشاعر التي تغمرني الآن كان جيش زينوفون (القائد اليوناني) قد احتل قمة الجبل قبل ألفي عام وصرخ بأعلى صوته: البحر ـ البحر.

وقبل ثلاثة أشهر كنت قد ألقيت النظرة الأخيرة على المياه المتلألئة للخليج العربي وينتابني الآن الإحساس نفسه حين أحدق في خط الأفق الداكن الذي من خلاله سأتخذ طريقي نحو وطني.

بعد أن اجتزنا القنوات الثلاث للنهر وصلنا إلى ممر سبخ ينمو فيه نبات البردي وهنا وهناك نجد مجموعة من الأشجار المثمرة، وفي بعض الأحيان تصادفنا شجرة ضخمة، وعلى الضفاف تصادفنا أزهار البنفسج وزهور الربيع.

وعندما بدأ الظلام يخيم وصلنا بعد مسير اثنتي عشرة ساعة إلى مقصدنا قرية «كاتابوشت» الصغيرة، وهي عبارة عن مجموعة متناثرة من الأكواخ أُقيمت وسط الريف والتي تشبه إنكلترا تماماً لولا ذلك الرصيف المكسو بالأشجار والقمم المغطاة بالثلوج خلفه.

في مثل هذه الأماكن بوسع المرء أن يمر على رفاق لافتين للنظر لغرابتهم، ففي جواري وفي غرفة طينية جرداء سمعت تأوهات، وعندما ذهبت لاستطلع الأمر وجدت رجلاً مريضاً بالحمى الرئوية كل ما استطعت فعله أنني قَدَّمت له بعض الكينين (مادة شبه قلوية شديدة المرارة) ثم عدت إلى كوخي لأكتشف بأنني لست وحدي هذه الليلة، إذ عندما جلست لأدوِّن مذكراتي سمعت خشخشة قرب

Twitter: @alqareah

الزاوية أفزعتني، وبعد أن نظرت إلى الظلال رأيت دجاجة ترقد هادئة فوق قفص من البيض.

غادرنا القرية الصباح التالي والذي بدا مع شروق أشعة الشمس صورة جميلة للطحالب وزهور الربيع وسقوف الأكواخ المتخذة من القش وسط الأشجار. يقع الطريق في البداية في أرض سبخة تمتلئ بنبات البردي الكثيف والمستنقعات، ولكن بعد فترة وجيزة كنا نسير في مجاز كأنه في إنكلترا. أرصفة على كلا الجانبين تزينها زهور الربيع والبنفسج وشقائق النعمان، وكان الهواء الدافئ يبعث رائحة زكية وحولنا انتشرت الحقول الغناء.

بعد عشرين ميلاً وصلنا إلى «بارفيروش»، وما إن عبرنا جسراً رائعاً على النهر حتى بُهرنا بمنظر امتد أمامنا. ففي وسط بحيرة مكسوة بالقصب وتتجمع فيها الطيور من كافة الأنواع والتي لا تعرف الخوف، كان ثمة جزيرة خضراء تكثر فيها أشجار البرتقال المثمرة وشجر الجوز. ويمكن من بين الأوراق رؤية قصر جدرانه بيضاء وقرميده أحمر، مثل بناء في الريف الإنكليزي، وعبر البحيرة يمتد جسر يوصل إلى الجزيرة حيث كانت أعمدته المدببة تنعكس على المياه الراكدة في الأسفل. إنها صورة بديعة لكل المكان ويمكن لخيال المرء أن يسرح ويحلم بأنه على ضفاف التايمز وسط حلم حقيقي في أجواء شرقية.

بعد أن اجتزنا هذا الطريق المعقود على أعمدة صغيرة قمت بزيارة لهذا المكان، أحد قصور الشاه، بينما كان سائق البغل يطوف المكان بحثاً عن طعام للغذاء. مادام القصر للشاه فهو بطبيعة الحال خرب. فقد كان سقفه المكوّن من قرميد أحمر متهدم كما أنَّ شبابيكه محطَّمة وتغطي ساحته المركزية أشجار نامية كثيفة. لقد كان صورة مثيرة لإفقار العمل الفني للإنسان وجمال الطبيعة. فقد لحق الخراب بالحديقة الغنية بالأشجار المثمرة وخاصة أشجار البرتقال، وخَيَّمت العتمة على أشجار الجوز ومجدها التليد والتي كانت

Twitter: @alqareah

تبرز فوق بساط سندسي أخضر والمياه تتلألأ تحت أشعة الشمس.

هَبَّت نسمات خفيفة ندية على البحيرة وانبعثت البهجة الدافئة للربيع الممتزج بالصيف لتغمر المكان كله. قضيت ربع ساعة أتجول خلال الأنقاض أنظر بتثاقل وأسى على آثار أولئك الذين عاشوا هنا وخلفوه من بعدهم، وإلى النقوش الباقية على الجدران لزوار حديثين زاروا المكان والذين لم يكن بينهم إنكليزي واحد، وإنما وجدت الفرنسي الدكتور دي بارفاروج.

بعد أن عدت من هذه الحديقة البهيجة وفي منتصف الجسر قابلت بعض الرجال الغرباء، وقد دهشت عندما خاطبوني باللغة الهندية. اكتشفت بأنهم من «كيلان» وفي طريقهم للحج. كان أحدهم في كتيبة المشاة السادسة في البنجاب (أدى التحية لي أولاً وخمنت بأنه قد خدم في مكان ما) وهكذا حُل اللغز. وبتحية المغادرة «الله معك» وتحية أخرى، انطلقوا في طريقهم حيث انفصلت سبل حياتنا التي كانت ذات مرة قد توحَّدت.

أعتقد بأن سكَّان بارفيروش لم يروا أوروبياً في حياتهم ولم يروا كلباً مثل ستمبس الذي كان يحظى بالاهتمام في البداية ثم توجه له الإهانة، وأخيراً كان يتعرض لخطر الاعتداء عليه. إذ حدث في السوق، وبعد أن تجمَّع حوله المتوحشون والمهتمون به واقتراب بقرة منه، أن قَدِمتُ لإنقاذه وإبعادها عنه وتخليصه منهم بقدر إمكانياتي حيث بدأ الحشد يبدي نوايا خبيثة. فقد قام البعض بقذف الحجارة عليه ولكني طلبت من صديق أن يحمل الكلب ويقدمه لي، ثم ركبت حصاني وانطلقت أخيراً بسلام.

كانت استراحتنا هذه الليلة في منزل مشهدي أسد الله حيث كان يسكن قريباً من بارفيروش. حال وصولنا قفز صبي صغير عن السياج وركض خلفنا. «إنه ابني» قال مشهدي أسد الله وأمسك به من ذراعيه ثم رفعه فوق كتفه، وهكذا دخلنا منزله.

كان المكان يشبه بيتاً ريفياً إنكليزياً، وقد كُرِّمت بتخصيص

Twitter: @alqareah

الغرفة الرئيسية لإقامتي فيها. ومن الواضح أنه في المناسبات العادية وفي غرفة النساء يوضع موقد من الفحم المشتعل وسط أرض الغرفة من أجل تدفئة المكان المفروش بالسجاد والأفرشة الأخرى، حيث تضع النسوة أرجلهن تحت أغطية حتى يشعرن بنعومة الدفء. ففي أحد الجوانب لا يوجد جدار وإنما ملاءة بيضاء تعلق ليلاً ويتم رفعها نهاراً فهي تحجب النور، إلا أنها لا تمنع الهواء الذي يكون منعشاً ومقبولاً في الصيف، ولكنه بارد ومزعج في أيام الشتاء.

بعد أن استأذنني أولاً، وقف مشهدي أسد الله إلى الخلف في منزله عندما انطلقت في رحلتي الأخيرة إلى بحر قزوين، لقد أحببت هذا الرجل حباً كبيراً. كان رجلاً عزيزاً حنوناً ومجدّاً وأميناً كما كان نشطاً ومتحمساً، ومثلما يجب أن يكون عليه الرجل الفارسي. وبكل أسى وأسف قلت له وداعاً عندما صافحني وأخذ يهز يدي إلى الأعلى والأسفل لمدة دقيقة في الوقت الذي كان فيه ينطق بكلمات الوداع والدعاء برحلة موفقة. ترك ابنه ليذهب معنا، لقد كان عفريتاً صغيراً يبلغ السادسة من العمر ولكنه قفز على البغل ودفعه أمامنا والحبل في يده والسوط في اليد الأخرى، وأخذ يصرخ كأي سائق محترف حتى أصاب الحيوان بجرح في ساقه من شدة ضرباته له. ونظراً لما يتمتع به من حيوية في توجيه ضرباته للحيوان، تجمّع سائقو البغال (كانت بغالهم محملة بالسكر) ولكنه نظر إلينا بابتسامة حتى قال الصبي بعد ميلين: «لقد تعبت» فقمت بإنزاله من على ظهر البغل.

امتد طريقنا بمحاذاة النهر الذي كان ينساب بين منحدرات حادة وفي وسط حدائقهم المفعمة بالزهور العطرة وأشجار البرتقال المثمرة، وكانت الأكواخ المسقوفة بالقش تلمع في ريف تكسوه الغابات. وكان في الحدائق أيضاً منازل صغيرة تشبه البيوت الصيفية، حيث كانت ترتفع أرضياتها على أعمدة وقد أثار انتباهي منظر السقوف القرميدية حتى علمت أن دودة القز تنسج شرانقها

Twitter: @alqareah

فيها بعد تدفئتها من سباتها وحتى حياتها إلى جانب رسم فتاة سمراء.

وفجأة أطل من حول زاوية صف غير منتظم من البنايات الأوروبية، إنه مصب النهر العريض وفيما وراءه البحر.

عبر بلاد فارس - من البحر إلى البحر - لقد اكتملت الرحلة. كان أحد البيوت الذي تميز بلوحة على واجهته يشير إلى أنه فندق. توجهنا إليه وسألت المالك إذا كان يتحدث الإنكليزية أو الألمانية. لا فقط الروسية والفارسية. وهكذا استفسرت بالفارسية عن إمكانية حصولي على غرفة لهذه الليلة. قال بأنه سيفعل حيث اقتادني إلى الطابق العلوي. ولكن جماعتي لن يكونوا هنا إذ قمت بعد ذلك باستفسارات في دائرة الجمارك عن الباخرة، حيث كان يعمل بحيوية ونشاط مدير الجمارك الفرنسي وهو رجل لطيف وكريم، كان قلبه في باريس مع أن جسمه في مشهدي سر. فقد أصرَّ على انتقالي دون جماعتي إلى بيته الذي لم يكن فندقاً وإنما وكالة.

كان بيته أنيقاً ومؤثثاً بشكل لافت للنظر، أما الغرفة التي قُدّمت فيها إلى السيدة فقد احتوت على بعض التُحف الغريبة التي يتمناها ويشتهيها كل قلب. كانت هناك منضدتان يتكون سقفاهما من صور صينية وكانت إحداها تُظهر «فاذ علي شاه» ومستشاريه وهم يحتسون العصير، أما الأخرى فتمثل حفلة زفاف حيث يمتطي الشاب حصاناً ويحيط به أصدقاءه ليوجهوه نحو الفتاة الشابة المحجبة والممتطية حصاناً أيضاً، مصحوبة بعدد من صديقاتها.

لقد علمت بوجود أربع منها في بلاد فارس وقد أُعجبت بها كثيراً، ويمكن أن أضيف بأن الواحدة يبلغ ارتفاعها أربعة أقدام وعرضها قدمان، وقريباً مني كانت هناك صورة معدنية مكبرة والتي قال أحد أصدقاء مضيفي بأنها تساوي ألف فرنك فرنسي. وكانت هناك صور أخرى قديمة وفي حالة جيدة وكلها تمثل مناظر مختلفة مثل بيطرة حدوة الحصان، أو اثنين من رجال الحاشية

Twitter: @alqareah

يضعان صقرين على ذراعيهما، لقد أسرتني هذه المناظر كثيراً. وهناك مجموعتان من عربات البريد تزين حائطاً وبعض الأسلحة القديمة والسيوف تحيط بهما. لقد كان في غرفتي صورة قديمة وفي غاية الروعة والجمال يبلغ طولها أربعة أقدام وعرضها قدمان وتمثل شخصين يمسك أحدهما بيد الآخر، إنه فن متقن.

بعد سفر شاق وطويل أحتاج إلى عدة وجبات كي أستعيد معدل ما أتناوله وأخشى أن شهيتي للطعام سوف تُدهش مضيفي. كان أحد الأطباق يحتوي على الكافيار المحلي وهو أفضل وأشهى ما تذوقت. تمثل هذه الشواطئ أحد المصادر الرئيسية لفن المجاملة الروسية.

جرت مناقشة وتبادل لأطراف الحديث بعد ذلك، والتي سأنقل بعضاً منها من مذكراتي:

لا يحب مضيفي هذه البلاد: الحمى والروماتيزم والملاريا، لا مجتمع ولا وسائل راحة، أما بالنسبة للريف: فهم مجموعة من الأغبياء، لا يفعلون شيئاً ولا يعلمون شيئاً. بوسعهم القيام بأي عمل في هذه الأرض التي تنتج محصولين في السنة الواحدة، ولكنهم على درجة من الكسل بحيث لا يقدرون على حرثها، إنهم لا يفعلون شيئاً سوى زراعة بعض الرز. لا يمكن الحصول على شيء هنا سوى البيض والدجاج والرز، لا لحوم ولا أي شيء آخر.

بعد أن شاهدت كمية السكر التي تتدفق من روسيا سألت فيما إذا كان بالإمكان زراعة قصب السكر هنا. «إنه ينمو بريًّاً» جاءني الجواب «لكنهم على درجة من الغباء. أما بالنسبة للطريق، فالحكومة لن تفعل شيئاً». إذا ما أمطرت، فإنك ستقطع مسافة خمسة عشر ميلاً بين مشهدي سر وبارفيروش خلال يومين، ولدي فكرة جيدة عن الوضع فيما وراء ذلك.

على العموم إنها أرض سيئة الحظ، أرض ذات إمكانيات ولكنها مقفرة ومهجورة بسبب لا مبالاة ومرض سكانها.

Twitter: @alqareah

لقد وصلت رحلاتي إلى نهايتها وانتهت مسيرتي الطويلة. لم أعد أفكر يومياً في منزل آوي إليه ليلاً. لم أعد أهتم بكيفية الحصول على الطعام والوسائل البدائية لتناوله، لقد عدت ثانية إلى المناضد ذات الشراشف البيضاء والأواني الفضية والأكواب الصينية والملاءات والكراسي. إنه أمر لافت للنظر ومثير للسرور. ومما يدعو للشفقة أن الأحاسيس الجديدة قد غمرتني على الفور. هل يمكن الاحتفاظ بها؟ إنها تجعل الحياة عملاً مختلفاً. لقد وجدت متعة بالغة هذا اليوم ولكني أدرك بأنني خلال أسبوع أو أكثر سأجد نفسي أغوص في الأشياء القديمة نفسها التي كنت قد تركتها لفترة طويلة. إذ سيعمل كل شيء لي بدلاً من أن أقوم به بنفسي. إنَّ أحداً لن يقدّر ترف عدم الحصول على الطعام أو إعداد الفراش وتحميل الأمتعة والمشي ثلاثين ميلاً يومياً، وستكون، في الواقع، هذه الحياة الأخرى حلماً أحسد عليه. ياله من بغيض ونهم هذا الإنسان، ومع ذلك كنت على يقين بأن الماضي المفعم بالمشاهدات والزاخر بالذكريات السارة والممتعة هو بهجة لا تضاهيها بهجة في هذه الحياة.

وبالمناسبة إن الحاضر ليس إلا عملية استعادة للماضي. فالحاضر هو كل شيء ومع ذلك فهو لا شيء، أما الماضي فهو شيء كان والذكرى هي الشيء الوحيد الملزم في الوجود. إنه في الواقع، الجزء الأساسي لأي وجود مترابط. ومع أن رحلاتي قد انتهت إلا أنها ستظل مصدراً قوياً وثابتاً حتى يوم وفاتي «كي تسافر مفعماً بالأمل» كما يقول ستيفنسون «أفضل من أن تصل»، ولكن الأفضل من كل هذا أن تستعيد ذكريات ذلك السفر المفعم بالأمل.

سيظل المشهد النهائي عالقاً وحياً في ذاكرتي. غادرت بلاد فارس على مركب لنقل البضائع والذي سيوصلني إلى قارب تجاري يقع على بعد نصف ميل في البحر. حضر كيشنا معي ليودعني ويودع ستمبس الصغير والذي كما أعتقد كان يحبه أكثر من حبه لي.

Twitter: @alqareah

كان الرصيف مزدحماً وكان مضيفي محاطاً بمجموعة من الأشخاص المغمورين وشيء أسمعه عندما ودعته، وهكذا خرجت من بلاد فارس كما دخلتها محاطاً بجوٍ من الصخب والاهتياج، والذي يعطي فكرة خاطئة تماماً عن الطابع الحقيقي لهذه البلاد.

ارتفعت الأشرعة وجلس المجدفون أسفل مجاديفهم. بدأ النهر والبيوت الصغيرة تتضاءل وتتضاءل خلفنا. هناك تموج للماء عند الانحناءات وفي قلبي حزن عميق، رغم كل شيء، لمغادرتي هذه البلاد التي قضيت فيها تلك الأشهر والتي لا يفصلني عنها سوى شريط مائي ساطع حيث تبدو لي وكأنها حلم ضبابي غريب.

إني أعود ثانية إلى الحضارة، إني أغادر الشرق، إني أطير على أجنحة الزمن. فقد عشت فترة وجيزة في عصر آخر، عصر العالم القديم الناعس. وفي زاوية منسية حيث تغاضت عنها عين الزمن فلم تنظر إليها وتجمعت الأوحال عليها. يجب أن يزول الوحل، يجب إزالته، ولكنه أمر يدعو للشفقة والأسى. هناك أسف غير مبرر ولا يمكن إنكاره للحركة البطيئة والحياة الهادئة، والكسل والساعات الضائعة التي تُقضى تحت الشمس وفي مهب الريح الخفيف، وقضاء الأيام العقيمة والتكاسل والاسترخاء بعيداً عن صخب الحياة، والتمسك بالأفكار القديمة وإطالة التأمل فيها، إنها حياة التأمل والتفكير السلمي والتنازع من أجلها حتى تحين ساعة الموت فينتهي كل شيء. الموت هو نفسه في المدينة الكبيرة وفي السهل المنعزل. إنه الموت نفسه. إذن ماذا يهم في النهاية؟

ومع ذلك... إنه ارتطام قوي بالحاجز الحديدي وجوانب الباخرة السوداء ذلك الذي أعادني إلى نفسي وإلى العالم الجديد.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

المحتويات

استهلال	5
مقدمة	11
1. بلاد الأسد والشمس	15
2. الطريق المفتوح	31
3. حياة التشرد	49
4. الممرات الجبلية (كوتاك)	65
5. زيارة إلى الماضي	77
6. ركود الحاضر	99
7. النارجيلة	109
8. على قارعة الطريق	115
9. مدينة الورد وطيور العندليب	127
10. طير الماء الأسود	147
11. بعض الحوادث من الحياة الفارسية	159
12. الطريق مرة أخرى	173
13. ناكشي رستم	187
14. القصور التي فاخر بها جامشيد	207
15. ضريح سايروس	217
16. عنصر الجبل	227
17. الشتاء والجو العاصف	235

Twitter: @alqareah

18. المتسولون	241
19. الصيد بين التلال	249
20. حادثة «الباب» وأشياء أخرى	259
21. أصفهان	269
22. مائتان وخمسون ميلاً من المسير	279
23. الشرق والغرب	291
24. فوق التلال وما بعدها	301
25. نهاية الطريق	313

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

Description of the East
Description of the East

A Travel through Persia

Eliot .K. Williams

يقول المثل الفارسي: «مثلما نحن في الحياة نكون في الموت». وهكذا يمكن القول بأنّ الفارسي هو غالباً مَنْ يحوّل المقبرة إلى مكان للمتعة له ولأصدقائه، فتتحول بلاطة القبر المرتفعة إلى منضدة للأحياء مثلما هي للأموات. بلغة كهذه دوّن الكاتب البريطاني يوميات رحلته في بلاد فارس بحثاً عن الآثار والحدائق الفارسية. إنها قطعة أدبية بحق، لولا أنَّ الكاتب انشغل كثيراً بالسخرية من الفُرس المعاصرين، لكونه لم يتوقف عن مقارنة الأحفاد بأجدادهم العظماء الذين صنعوا التاريخ. رحلة وراء فتنة المغامرة، والشعر عبر عوالم الشـــرق الساحرة ■